أحمد إفزارن



مُهَاجِر إلى الصَّحَافَة

مَسِيرة حَياة











أحمد إفزارن

مُهاجِرٌ إلى الصّحافة

مَسِيرةُ حَياة

مُهاجِرٌ إلى الصّحافة

الكاتب: أحمد إفزارن

رقم الإيداع القانوني : 2023MO0599

ردمك : 978-9920-41-182-0

إفزارن للطباعة

الطبعة الأولى: مارس 2023

إهداء

- **إلى شَريكةِ حياتي "زهور".. حَكِيمةِ الأُسْرَة، الحامِية، المُرَبِّيَة.. وإلى أبنائِنا: نَبِيل (ناشِر)، د. عَزِيز (أستاذ باحث في الرّياضيّات، كاتب ومُلَحِّن)، د. سَمِير (مهندس ودكتور في الإعلاَمِيّات)..**
  شُكرًا على إضَاءاتِكُم..

- **تحيةَ اعتِرَافٍ بالجَمِيلِ إلى بلَدِي.. وإلى باقَةٍ مِن رِفَاقِ الطّريق، وعلى رأسِها: الإعلامِيّ الرّائِد "الصَّدِّيق مَعْنِينُو".. الصحافي الكبير "خالد الجامعي ".. "د. الطّيّب بُوتْبُقالتْ " الكاتِب المُؤرّخ رئيس شُعبَة الإعلاَم.. د. إبراهِيم الشّعبِي" الأستَاذ بالمَعهدِ العالِي للصّحافة، ولكُلّ القَامَاتِ التي نَصَحَت بأنْ يَشرَعَ عبدُ ربّهِ في كِتابةِ مَسِيرتِهِ المِهنِيّةِ المُمتَدّة لحَوالَيْ نِصفِ قَرن.**
- **وشُكرًا لرِفَاقِ العُمر، في "مِهنةِ المَتاعِب"، ولكُلّ مَن وَجّهَنِي وصَحّحَ أخطائِي.. ومَن وَقفَ إلى جانبِي في أصعَبِ الأوقَات .. وإلى الكِبَارِ الّذِينَ أخَذُوا بيَدِي في مِشوَارِي المِهنِي: عبد الجبّار السّحِيمِي، محمد الطّنجَاوِي، عبد الحَفيظ القادِري، الإدرِيسِي القيطُونِي، جَان رُوبِير شِيرْفِيس [1].**

- **وإلى المُؤسّسات التي علّمَتني فنُونَ التّوثيقِ والعمَلِ المَطبَعِي خاصة ببلجيكا وفرنسا [2].وإلى كُلّ المَهاراتِ التي أَطّرَتنِي في مِهنَةِ الصحافة والإعلام، داخِلَ وخَارِجَ المَغرِب...**
  مُمْتَنٌّ لكُم!

---

[1] *Jean-Robert Cherfils (Medi 1)*

[2] *1972 - Institut pour la Promotion Artisanale (Imprimerie, Lynotypie, Monotypie) –Belgique.*
1980: Journal Le Monde (Documentation) - France

فهرس

تَقدِيم

د. عزيز إفزارن

كان أبي يُخبرني بأن حياته هي سلسلة من المعجزات. والواقع أن قراءة سيرته كَفِيلة بإدراك عُمق هذا الكلام. من أسرة مهاجرة من الريف في ظُروفِ المَجاعةِ الكُبرَى إلى أحد قيدومي الصحافة المغربية.. قصة تستحق أن تُروى.

في مَطلع السّتينات، ذهب أبي إلى مُدير الثانوية وأخبرهُ بِرغبته في التوقُّف عن الدراسة. كانت لِوالدي أسبابه الخاصة، ولكن ثمن القرار كان باهظا. ولأن هدفهُ كان واضحا من البداية.. وهو أن يُصبح كاتبا.. لم يَكُن أمامه من خِيار بديل سِوى التعليم الذَّاتي.

مُنذ أن وَعيتُ وجودي في هذه الدنيا وأنا أرى والدي مشغولا، بل مَهوُوسا، بالقراءة والكتابة. طَقْسَان يَنسَى في غِمَارِهما الأكل والشُّرب والعالم بِأَسْرِهِ! أبي ساعةٌ فِكرية تشتغلُ ليل نهار، لا ينتهي مِن عَمل حتى يبدأ في التفكير في العمل المُوالي.

ولأنه اختبر السَّكن في حيّ الصَّفيح.. والمَبيت في الخلاء.. وكسب العيش من حَفْر الآبار، فهو يَعرفُ الفقر جيّدا، والفقرُ يَعرفُه، لِهذا لم يعد يُخِيفه! كان بإمكان أبي أن يَصنع لنفسه ثروةً.. كان في استطاعته كصحافي أن يُتاجر بِصَمْتِهِ وكلامه لِيَنَال حِصَّتَه من كعكة الصّفقات المشبُوهة، ولكنه لم يَفعل! الكرامة والحرية وغِنى النّفس عندهُ الأغلى.. والمبدأ قبل المصلحة.
عِفَّتُهُ تُذَكِّرُني بالحكيم ديُوجِين عندما قال له أحدهم: "لو تَعلَّمتَ التّملُّق لَمَا اضطررتَ للعيش على أكل العَدس." فأجابه ديُوجين: "لو تعلَّمتَ أكل العدس لما اضطررتَ للتملُّق!"

أبي ينتمي لفصيلة "الحَالِمِين". مَدينتُه الفاضلة مَبنِية على قِيم الإنسانية والتَّعايُش والجُنُوح إلى السّلام. كصحافي، كان مُجبراً على مُتابعة مَآسي البَشر،

وكمُفكّر كان يَحلم دائما بعالم أفضل.. وذاتَ زَمَن، وجدَ نفسَهُ في أمواج الخيالِ العِلمِي، يُمارسُ رياضةَ المَزجِ بين العُلومِ والخيال، لتَصَوُّرِ عوالمَ مُستَقبَليّة.

دائما يُوجد أمل.. لا مجال لليأس.. هكذا عرفتُ أبي.. دائما يتوقَّعُ الأفضل. وإذا كان تَصدِيقُه السَّاذج للوُعود الحُلوة قد أَوقَعَهُ أحيانا في الإحباط، فإن رُوحه الإيجابية المتفائلة جَعلتهُ يكسب في المقابل قدرا كبيرا من التحفيز والسعادة في رحلة حياته.

الآخَر مُهِمٌّ في حياة والدي.. يُساعد جهد استطاعته.. مَن يَعرفُه ومن لا يَعرفُه. وأكثر ما يَكرهُه هو الظُّلم.. لِهذا لم تكن الصحافة في نظره مُجرد مهنة لِكسب العيش.. بل أداةً يُواجه من خلالها الظلم بجميع أشكاله.. وإنْ جَرَّ عليه ذلك مشاكل هو في غِنىً عنها. خلال 13 سنة من اشتِغاله مديرا مسؤولا عن جريدة "الخضراء الجديدة"، تَلَقَّى 13 شكاية قضائية.. جميعها خَرج منها بريئاً.

مِن المواقف التي تَعوَّدتُها أن يَسألني أحدُهم بعد تَعرُّفه علي: "هَل أحمد إفزارن مِن أفراد عائلتك؟"
أبي صَنع لِنفسه اسما بين الناس.. ومَعهُ اسم كل العائلة.

سِيرة والدي أحمد إفزارن لا تخُصُّ العائلة والمُقرَّبين فقط.. هي أيضا لِلمُهتمِّين بالشَّأن الإعلامي.. مِهنيين وأساتذة وطَلبة.. بِاعتبارها تُلقي إضاءات على تاريخ الصحافة في المغرب.. بل إنها مُوجَّهة لِكلّ القُرّاء.. إذْ مَا أحْوَجَ أجيال اليوم للتّعَرُّف على أسماء تعكس حياتُها قِيَم التضحية والنَّزاهة!

عامُ المَجاعَة!

وُلِدتُ في قريةِ "رَأس جِيرّي"، بضَواحِي مَدِينةِ مَكناس، عام 1948م، العامُ الذي توَقفَتْ فيهِ المَجاعةُ الكُبرَى التي انتَشرت في المَغرب، لأسبابٍ منها الجَفافُ والأوبِئةُ والهُجُومُ الكاسِحُ للجَرادِ على المَحاصِيلِ الزّراعيّة.
والِدَايَ قدِمَا من الرّيف، وتحدِيدًا مِن قبِيلةِ "بنِي تُوزِين"، برُفقةِ جَدّي منَ الأب "مُوحْ بُوجَمعة"، وجدّتِي مِن أُمّي "فاطْمة نْسَلاّم" وأَخَوَاتِها وإخوَانِها مِن "مَدشَر إجْعُونَن" في "قاسِيطَا"، وهو مِحوَرٌ طُرُقِي يُؤدّي إلى 3 اتّجاهات: الناظُور والحُسِيمَة وتازَة..
جَدّي من أبِي هَجرَ مَسكَنَه وأراضِيهِ في "ثَاورِيرْت" و"ثُلاثاء أزْلاَف" ودُوّار "إفزارَن" ومَناطِقَ أُخرَى..
و"إفْزَارَن"، الذي هو اسمُنا العائلي، يَعنِي بالأمازيغية "الأرضَ الصّلبَة".. كما يَعنِي رحيقَ التّمر، في مَناطِقَ أمازيغيةٍ أطلَسيّة، حسَبَ ما قِيلَ لي..
وهذا ما فعَل جدّي من أُمّي.. هو نفسُه هَجرَ أرضَهُ في "مَدشَر إجْعُونَن.."

لقد هجَرَت عائلتِي أراضِيها الفِلاحيّة، ومَرّتْ مَشيًا على الأقدام، على مُفتَرَقِ الطّرُق "قاسِيطَا"، واتّجهَت صَوبَ "تازَة" إلى "فاس" ثم "مَكناس"..
كانت بِلادُنا آنذاك تحتَ الهَيمنَة الاستِعمارِية، الفرنسِية والإسبانية..
وهذا يَعنِي تَقاسُمَ أغذيةِ البَلد، بكِيفيّةٍ غيرِ مُتَوازِنة، مع دَولتيْن احتِلالِيّتَيْن: فرنسا وإسبانيا..
وثَرَواتُ البلد، وفيها احتِيّاطاتُ الحبُوبِ والخُضَر والمَوادّ الغَذائية، وأساسياتُ الحياةِ اليومية، يَذهبُ أكثَرُها إلى القُوّتَيْن الاحتِلالِيّتَيْن: إسبانيا في الشمال والصحراء، وفرنسا في بقيةِ التّرابِ الوَطنِي..
إسبانيا كانت تَحرِقُ الغابات في الشمال، لتَوفيرِ التّدفئةِ لجُنُودِها المُتمَركِزينَ في الرّيف وبقيةِ المِنطقةِ الشمالية، وصُولاً إلى الجَنُوب، وتحديدًا: الصّحراءِ والجُزُرِ البَحريةِ المَغربية..
وآنذَاك، كان الريفُ يُعاني من تبِعاتِ "حربِ أنوَال" (1921)، بقيادةِ زعيمِ حربِ الرّيف، "محمد بن عبد الكريم الخطّابي"، ضدّ الجيشِ الإسباني..

واستَعانَ الجنرال فرانكو، للتّغلّب في حربِه الأهليّة الإسبانية، بقُوّةٍ من شَباب الرّيف، يرتَدُون لباسًا للجَيشِ الإسباني، بطربُوشٍ مَغربي..
ونفسُ الطّريقة، استَخدَمَتها فرنسا في المِنطَقةِ المَغربيةِ الوُسطَى والجنُوبيّة التي كانت تَحتَلُّها بمُوجِب "اتفاقيةِ الحِماية"..
الدّولَتان الكبِيرَتان، إسبانيا وفرنسا، استَخدمَتا نفسَ الأسلوبِ الاستِعماري المُتمثّل في الهَيمَنة على ثَرواتِ البلد، بما فيها الغاباتُ والأراضِي الفِلاحيةُ الجماعيةُ والخُصُوصيّة، والاستِيلاءُ على مَخزُون الزراعةِ لفائدة جَيشَيْهِما، وجاليةِ كلّ مِنهُما، وتسريبِ كِمّياتٍ مِن مرُدوديّة البلادِ إلى خارجِ الحدُود، لضمانِ التّوازُنِ الغَذائي لفَرنسا وإسبانيا..
وهذا عانَت مِنهُ كلُّ جِهاتِ المَملكة، نتيجةَ الجَفافِ الرّهيب، وما وَاكبَهُ من مَجاعةٍ كُبرَى..
وإلى هذا، كانت إسبانيا قد استَخدَمت في "حَربِ الرّيف" أسلحةً كِيماويّة، فأثّرَت تأثيرًا سَلبيّا على الأرضِ والسُّكان، لدرجةِ أنّ السّرَطانَ ما زالت أكثرُ إصاباتهِ مُنتشرةً في الرّيف، مُقارَنةً معَ نِسبةِ ضحاياهُ على الصّعيدِ الوَطني..
وإلى هذا، كانت الدولةُ الفرنسية تخُوضُ "الحربَ العالميّةَ الثانية"، ضدّ النّازيّة، وأَقحَمت فيها قُواتٍ مَغربيةً للدفاعِ عن التُّراب الفرنسي وعَن دُولِ ما يُعرَفُ حاليًّا بالاتّحادِ الأوربي..
وهذه صُورةٌ عامّة، فيها دُولٌ كانت تَجعَلُ مِن طنجةَ مِنطقةً دَولية، وفيها إسبانيا وفرنسا، ومعهُما سيطرةُ مَجموعةٍ من الدّول الأورُبية.. وتحتَ هذا الغِطاءِ الاستِعماري، تمّت إدارةُ "طنجة الدّولية"، بمُوجِب نِظامٍ دَولي..
وهذه الأعوامُ الجَفافيّة، عانَى فيها المَغاربةُ من القَحطِ والجَراد والطاعُونِ وأوبئةٍ أخرى...
وتبقَى مجاعةُ 1945 هي الأخطرُ على الإطلاقِ في تاريخِ المغرب الحديث.. وعانَى المَغاربةُ خِلالَها استنزافًا خطيرًا للمَوادّ الغَذائيةِ الوَطنية.. وتفشّت في البلد أمراضٌ وأوبئة، وإسهالٌ مُزمِن، وفَقرُ الدّم، وأعراضٌ أخرى، وكوارثُ إنسانيةٌ فظِيعة..
وفي نفسِ عام المَجاعةِ الكُبرى، تمّ إنهاءُ الحربِ العالميّة الثانيّة، وتأسيسُ هيئةِ الأُمَم، ومُنظمةِ الصحةِ العالمية..
هذه هي الحالةُ العامةُ المُحيطةُ بالمِنطقةِ خلالَ تلكَ الفترةِ المُتَشنّجَة، مَحليّا

ودوليّا.. فترةٌ صعبةٌ في تاريخِ الشعبِ المَغربِي، وخاصةً عام 1945م الذي أَطلَق عليه المغاربةُ تسمِياتٍ منها "عام البُون، عام الجُوع، عام الجَراد، عام كرنِينَة، عام خِيزُّو، عام حَمِّيضَة..."...
وتَسمياتٍ أخرى، تَختَلفُ من مَكانٍ لآخر..
تَختلفُ في التّسميّات، وتتّفقُ في المَضمُون، وهُوّ استِحضارُ مَرحلةٍ قاسيّة: "عامُ الجُوع"..
مَرحلةٌ صعبةٌ في تاريخِ المغرب..
وسُلطاتُ الحِماية تقُومُ بتَقنِينَ الأغذيةِ وبقيةِ الضّرُورِيّاتِ المَعِيشيّة، ولكن التّوزيعَ كان يُولِي الأسبقيةَ للأعيانِ والسُّلطاتِ والجَيشِ والجَاليةِ الفَرنسية...
الأغذيةُ والأدويةُ والألبِسَةُ وكلُّ ضَرورَاتِ الحياة، في تلك الفَترة، تَذهبُ إلى مُتطّلباتِ الجيشِ الفَرنسي، وإلى الجاليةِ الفرنسية، وإلى "الأعيَان"، وإلى الدّولة الفرنسيّة، وكلّ التُّرابِ الفرنسي..
بينما تَسقُطُ في الطّرُقاتِ طَوابيرُ بشَريةٌ مُهاجِرةٌ من شدّةِ الجُوع والعَطَش والأمراضِ والأوبِئة..
والناسُ صَرعَى في طُرقاتِ المُدُن والبَوادِي، لدَرجةِ أنّ مَوتَى المَجاعة يَتَساقَطُون فُرادَى وجماعات..
وتَنقَضُّ الكلابُ الضّالةُ لنَهشِ الجُثَث المُتراميّة هُنا وهُناك..
واضطرّ الناسُ لأكل الجَراد، من أجل سدِّ الرَّمَق..
واضطَرّ الكثيرُون أيضًا لبيعِ أراضِيهِم الفِلاحيّة، في هِجرةٍ جَماعيةٍ إلى كلّ الاتّجاهات..
وفي الناس من تَنازلُوا عن أرضِيهم مُقابِلَ وَجباتٍ لتَغذيةِ الأطفال..
وكثُرَ التّرامِي على أراضِي الغَير..
وانتَشَرت "السّيبَةُ".. والفوضَى.. واللّصُوصية.. وقَطعُ الطرُق..
واعتقَلت السّلطاتُ الإسبانيةُ والدِي.. وكانت تعتزمُ تصفيتَه.. وقد أخبرَني والدي أنها كانت ترى فيه أحدَ أتباعِ بطلِ حربِ الرّيف.. وقد نجَا من المَوتِ بأعجُوبة..
آنذاكَ كانت إسبانيا تعتقلُ الناس بشكلٍ عَشوائي، في غربلةٍ بشَريةٍ شامِلة، بكُلّ الشمالِ المغربِي الذي كان مِنطقةَ نُفُوذِها..
ومِنَ الرّيفِ انطَلقَت هِجرةٌ جماعيةٌ لسُكانِ الرّيف، باتجاهِ أيّ مكان، بحثًا عن

العَيشِ والأمنِ والأمانِ والحقّ في استِمراريةِ الحياة..
ولم تَفلَح سُلطاتُ الاستِعمار في ثَني الناسِ عن الهِجرةِ الجماعية في كل الاتّجاهات..
واتّخذَت هِجرةُ قبائلِنا طريقَها من الرّيف إلى داخِلِ المَغرب..
ومَغاربةٌ آخَرُون هاجَرُوا إلى الغَربِ الجزائري الذي كانَ أيضا تحتَ السّيطرةِ الفَرنسيّة..
والطريقُ التي انقَادَت لها أُسرتِي، من جهة الأب والأم، كانت باتّجاهِ تازة وفاس وضوَاحِي مَكناس.

عَمّتِي "فاطِمة"

هي أصغَرُ مُهاجِرَة في قافِلتِنا.. و"عِنايةُ الرّحمان" مع القافِلة..
وعِنايةُ "القافلةِ العائلية المُهاجِرة" لا تَغِيبُ أنظارُها عن صَبيّةٍ هي "فاطِمة".. لها مَكانةٌ خاصّة..
جَدّي من أبي هو والدُها.. يُسمّيها "البَرَكَة".. و"المُعجِزة"..
وكلُّ "قافِلتِنا المُهاجِرةِ" عَيْنُها على الصّبيّة.. أيُّ سِرٍّ في "فاطِمَة"؟ الكلُّ يَحسِبُ نفسَهُ مَسؤولاً عنها.. مَسؤولاً عن سَلامتِها.. حياتُها هي الأغلَى..
فماذا وقعَ للصّبيّةِ الغاليّة؟
جَدِّي "مُّوحْ بُوجَمعة" يَعرفُ ما حدَث..
وفِي لحظةٍ من لحَظاتِ التّناجِي مع السَماء، بَدأ يَذرِفُ الدّموع.. والتَفَتَ إليهِ مَن بجِوَارِه: "ماذا يُبكِيكَ يا الفَقِير؟"..
و"الفَقِير" في التّعبِير المُتداوَلِ آنذاكَ، هو المُحتاجُ إلى ربّ العالمين، كما يَعنِي: العاقِلَ والحكيم..
وجدّي يَذرِفُ الدّموعَ من شِدّة التأثّر.. وعَيناهُ على ابنتِه الصّبيّةِ "فاطِمة"..
وخاطَبَ المُشاةَ إلى جانبِه: "يا أحبابِي! إنّ ابنتِي هذه، منَ البرَكات.. فسُبحَانَ الله!"..
- وما هو السّرُّ يا "الفقِير"؟ باللهِ عليك لا تُخْفِ عنّا ما وَقَع.. ما هو السّرّ؟
تَوجَّهَ جَدّي إلى القِبلَة، وخاطَبَ القافِلة: "لقد كانَت ابنَتِي الصّبيّةُ تَرضَعُ ثَديَ أمِّها - زَوجَتِي - حتّى وزَوجَتِي هذه قد فارَقَت الحَياة.. لقد عاشَت ابنتِي بفضلِ حليبِ أمّها المَيّتة.. ويَرحمُ اللهُ الأمواتَ والأحياء"..
وتوقّفت القافلةُ لحَظات، ورفَعَت أكُفَّها إلى السّماء: "آمين، يا ربَّ العالَمِين!"..
وأكّدَ جَدّي لقافلةِ الأُسرَة: "عاشَت فاطمةُ بفضلِ حليبِ أمّها الميّتة.. فسُبحانَ الله!"..
كان جَدِّي يَتكلّمُ لُغةً رُوحيّةً تَصوُّفيّة..
والقافِلةُ تمشِي، وتُصغِي، وجَدِّي يَتَكلم: "يا بَناتي وأبنائي، لا خوفَ عليكُم، ما دامَت بينكُم هذه البرَكة"..
وأشارَ بأُصبُعه إلى الصّبيّة "عَمّتِي فاطِمة"..

أجَل! عمّتي "فاطمة".. هي عَمّتِي الواحِدةُ الوحِيدَة..
وشاءَ القَدَرُ أن تعِيشَ عَمّتي "فاطمة" عقُودًا من الزّمن، وأن يكُونَ لها أحفادٌ وحفِيدَات، بعد أن رَضَعت ثديَ أمِّها الميّتة..
لقد كانت عمّتي "فاطِمة" أصغرَ مُهاجِرةٍ من الرّيف، مع أفرادِ الأُسرَة، ولم تكُن تَدرِي أنّها قد عاشَت بفَضلِ حليبِ أمّها التي فارقت الحياة..
ووَصَلت العائلةُ المُهاجِرةُ إلى قريةِ "رأس جِيرّي"، بضاحيةِ مَكناس..
وهُناك سوفَ نُولَد: أُختِي "مِيمُونة"، أنا "أحمد"، وإخوَاني: حَمّادي وامحَمد وبُوجَمعة ومُحمّد..
هؤلاء الستة هم من استمروا على قيد الحياة.. بينما توفي ثلاثة في سن الطفولة : أختان لي وأخ واحد كان اسمه "علي".
عِشنا معًا تحت رعايةِ والدي وَوالدتي، ومَعَنا العزيزةُ عمّتِي "فاطِمة"..
ولم تُغادِرْ "عَمّتي فاطِمة" كُوخَنا إلاّ بعد أن زَفّها والدِي إلى زَوجِها البَنّاء، الرجل الطيّب، "مُحمّد قَضَى" في ضَيعَةِ المُعمِّر "خْوَان"، بقريةِ "رَأس جِيرّي"..
وفي الطريقِ ماتَ كثيرٌ من الأقرِباء، نِساءًا ورِجالاً..
و"عَمّتِي" شاءَ لها القَدَرُ أن تُسَاهِمَ في تربيّتِي، وأن تُعلّمَنِي أنا وإخوتِي كيفَ نُواجِهُ صُعُوباتِ الحَياة..
كما علّمَتنِي "عَمّتِي" أنّ الصّعُوباتِ تُشكّلُ هي الأُخرَى مَدرَسةً وأيةَ مَدرسَة..
إنّنا قد عِشْنَا معًا، برعايةِ أمّي وأبِي وعَمّتِي "فاطِمة"، طُفولةً هانئةً في وقتٍ كثُرَت فيه الجَوائحُ والأمراض..
والوَفيَاتُ كلُّها كانت إكراهيّة، بسبَبِ الأوبئةِ والمَجاعةِ التي استَفحَلَت في كُلّ رُبُوعِ البَلَد..
وأستَحضِرُ من عَمّتِي ذِكرياتٍ مِن أبرزِها أنّها منذُ طفولتِي وهي تُناديني "أَخِي".. إنها أُخوّةٌ كبُرَت معَنا منذ الطّفولةِ المُبكّرة، عِندَما كانت تُرِيدُني أن أكُونَ برُفقتِها، بحُكمِ أنّنِي أكبَرُ إخوانِي الذكور.. كُنتُ أرافِقُها إلى العَيْن، و"البقّال" أو إلى ضيعةٍ للمُعمّرين...
وما زِلتُ إلى الآنَ أحسِبُها أُختِي.. وهي تُنادِينِي: "خُويَا"، أي "أخِي"..
تآخٍ بينَ عَمّتِي وأنا ابنُ أخِيها..
وهذه أصدَقُ "أُخُوّة"..

رَأس جيرّي

وصَلَت أُسرَتِي إلى مَدينةِ مَكناس..
وأخَذَت الطّريقَ إلى "رَأس جِيرِّي" القريةِ التي نَصَحَ بِها الناسُ عائلتِي المُهاجِرة..
تَبعُدُ عن المدينةِ بحوالي 20 كيلُومترًا..
وفيها سَوفَ أُولَد.. قرية "رَأس جِيرّي" خَضراءُ جميلة..
قريةُ مُقاوَمةِ الاحتِلال..
تَتَوسّطُ ضَيعاتِ المُعمِّرِين الفَرنسيّين، وفيها يَتقَرّرُ مَسارُ حياتِي، أنا وإخوتِي..
فيها "سُوقُ الثّلاثاء"، وهو غيرُ بعيدٍ عن سُوق "سَبت جَحْجُوح"، و"الأحَد آيَت مِيمُون"، وأسواقٌ أخرَى... ومِنها يَقتَنِي سُكّانُ المَناطقِ المُجاورةِ احتيّاجاتِهم، من أغذِيّةٍ وغيرِها...
وفيها تجِدُ وافِدِين مِن مُختلِف الأرجَاء..
ويَلتَقِي مُهاجِرُون مِن الرّيف، جْبَالة، سُوس، الصّحراء، الأطلَس، ومَناطِق أُخرَى...
ويَجمعُ كلّ هؤلاء تَواصُلٌ بالدّارجةِ المَغربيّة..
وفي هذه القريةِ المُخْضَرّةِ الجمِيلة، يَتلقّى الجمِيعُ تِرحَابًا مِن سُكّانِ القَريةِ الأصليّين..
والناسُ، وحتّى الأطفالُ يَشتَغلُون في الضّيعاتِ الفَرنسيّة، ويُمارسُون مِهَنًا مُتكاملةً كالتّجارةِ والصّناعةِ والحِدادةِ والنّجارةِ والفلاحةِ وغيرِها...
ولا أحدَ مِنهُم يَتصوّر أنّ القدَر يُبقِي لهُم مُفاجَأة، وهي أنّ أجيالاً قادِمةً ستَخرُج من صُلبِهم لكِي تكُونَ مُهاجِرةً إلى الخارج...
وقلّما تجِدُ بلدًا في العالم لا يَقطُن فيه واحدٌ أو أكثَر من مُهاجِري هذه الفُسَيفِساءِ البَشريةِ المَغربية..
بناتُ وأبناءُ "رَأس جِيرّي" في كل مَكان..
مَغاربةٌ مُتألّقون.. مِنهُم عُمّالٌ ماهِرُون، وأطبّاء، ومُهندِسُون، محامون وأساتِذة، وخُبراءُ في الرّياضيّات، والفيزياء والكيمياء، والاقتِصاد.. وكفاءاتٌ عِلميّةٌ أخرى رفِيعة.. وكُتّاب، وإعلاميّون، وسياسيّون، ومُبدِعُون في مُختلفِ الفنُون والاختِراعاتِ والابتِكارات...
وإلى هؤلاء، مَسؤولُون كبارٌ في سَلاليمِ دُولِ الإقامة..

مَغارِبةٌ بارِزُونَ قد خرَجُوا مِن رَحِمِ المُعانَاة..
إنه العالَمُ ما ظَنَنّا أنّهُ يومًا ما سيَختَلِط.. وأنّ لِبَنَاتِنا وأبنائِنا مكانًا في مسؤولياتِ تحريكِ السياساتِ العالميّة..
حَسِبنا أن العالمَ مُنحصِرٌ في مكانٍ واحد هو "رأس جيرّي"، أو الريفُ أو الأطلسُ أو الصحراءُ أو غيرُها من "تُراثنا" الجغرّافِي المَغربي..
وأَدرَكنا أن الهِجرةَ ليسَت ظاهرةً محدُودة..
إنها مُحرّكٌ لاختِلاط الشعوب والأمم، وجعلِ الناسِ أسرةً واحدة، في عالمٍ ظاهرُه مُتنوّع، وباطنُه عالَمٌ واحد.. وعبرَ التاريخ، لم تَستَثنِ الهِجرة بُسطاءَ العالم، بل شمَلَت حتى الأنبيّاء والحُكماءَ والمُفكرين...
وهِجرة أُسرَتي كانت من أجلِ الحياة!

يا حسرةَ على طُفولةِ "رأس جيرّي"!
هناك أمضيتُ أجملَ أيام حياتي.. جَمِيلةٌ بعُمقِها الإنساني..
وهذا "الفَضاءُ القَرَوِي" قد أصبحَ اليوم تَجمُّعًا سكنيًّا كبيرا..
ولكن، عندما زُرتُ أبناءَ خالي هناك، صُدِمتُ كثيرا: هذا ليس "رأس جيري" الذي عشتُ فيه قبلَ 70 عامًا..
تَكدَّسَت فيه مَظاهرُ البؤس والفقر والبطالة واللاتعليم..
في طفولتي كان فضاءًا للتعايُش والتواصل، مُنتعِشًا بالاخضِرار الزّاهر في كلّ اتّجاه..
والضّيعاتُ الفرنسيةُ تَنتشِرُ فيها وحولَها شُجيراتُ العِنب، وأنواعٌ من الحبوب والخُضَر والفواكه.. وفي كل اتجاهٍ ترى الأغنامَ والأكباشَ والبقَر..
الثروةُ كانت حاضِرة.. والأطفالُ مُواظبون على الدراسة..
ومن مكناس يعُود أبناءُ القرية الجميلة، ليَحكُوا عن الدراسة الثانوية..
ومنهم من أصبحَ يَدرس في الجامعة بالرباط..
ونحن أولُ فوجٍ في المَدرسة العصرية..
وثاني فَوجٍ حصل على الشهادة الابتدائية..
أما أنا وأخي حمّادي، ففي عُطلة الصيف نشتغل في ضَيعاتِ قطفِ العِنَب..
هذه الدراهم المحدودة نوفّرها لشراءِ احتياجاتِنا الدراسية..

ألغاز السّماء!

الطّفولةُ المُبَكّرة في "رأس جيرّي" لا أستَحضِرُها بوُضُوحٍ تامّ..
أحاوِلُ أن أغُوصَ في ما قبلَ الطفُولة، ولكِن لا أجدُ إلاّ الغُمُوض..
لا أستَطيعُ اختِراقَ الزّمَن..
ووَحدَه الخيالُ يَجعلُني أتصوّرُ أنّني كنتُ مَوجُودًا، قبلَ أن أُولَد.. وكذلك أنتَ ونحنُ جميعا.. كيفَ كُنّا؟ هذا أجهَلُه..
وحتى وأنا طِفل، كنتُ أتَأمّلُ السّماء، وأزعُمُ لنفسِي أنّني قد قَدِمتُ من هناك..
وأتصَوّرُ أنني أنا وأبي وأمّي وإخوَتي وكلّ بناتِ وأبناءِ قريتي الجميلة، قادمُون إلى هُنا من السماء.. من فوقِ السحاباتِ والأضواءِ الكونيةِ البعيدة..
الخيال في حياتي مرتبط بالأكوان اللامتناهية..
أنا ونحن جميعا، من أبناءِ السماء..
هكذا كنتُ أتصوّر، وأنا طِفل..
وما زلتُ أرى ما كنتُ قديما أرى..
وعلاقتِي بالسّماء، لم تتوَقّف إلى الآن.

وليمة التُّراب!

طُفولتي مُوغِلةٌ في السّماء، وذاتُ علاقةٍ مَتينةٍ مع التُّراب.. ولستُ وَحدِي.. كثيرٌ من أطفالِ جيلي على هذه العادة..

كُنتُ أخرُجُ من كُوخِنا، وأشرَعُ في تَذوُّقِ طَعمِ التُّراب، مِن شِدّةِ تأثيرِ المَجاعةِ الكُبرَى..
ولم أتَوقّف عن هذه العادةِ في هذه الطّفولة المُبكّرة، إلاّ بضَرباتٍ مُتتَاليّةٍ من أمّي وهي تُوبّخُني: "لا تَأكُل التّراب.."!
وأشرعُ في البُكاء.. ومعِي هِيّ تَبكِي.. أمّي تَعرفُ أنّ الخُبزَ نادِر.. وأحيانا غيرُ مَوجُود.. ثمّ تُعانِقُنِي.. ونتَصالَح..
كانَت والِدَتي تغضِبُ منّي.. ولكنّها أدرَكَت أنّ للضّرُورةِ أحكام..
وأتذكّرُ بعضَ الأحدَاثِ المُستفِزّة..

إنّ الزّمنَ في الطّفولة يمُرّ بطيئًا، خاصّةً في أوقاتِ المَجاعة..
وقد كُنّا، نحنُ جُلُّ المَغاربة، نجتَرُّ تَبعاتِ عامِ الجُوع..

وفي هذه السّنوات، وأنا صغِير، خرجتُ ذاتَ صباحٍ من كُوخِنا الطّينيّ، ونُسمّيهِ "النّوَالَة" .. خَرَجتُ إلى البابِ لكي أتَمَلّى بطَلعة الشمس، وأنا حافِي القدَميْن، وبِلِباسٍ بسِيطٍ أبيَضَ نُسَمّيهِ "قَشّابَة"، هو نفسُه ستَكُونُ لي معهُ واقِعَة..

طِفلُ المُقاوَمَة

كانت فَرنسا تَبحَثُ عن أَطفَالِ المُقاوَمَة..
وهذا ما وقَع لِي وأنا طِفل.. فِي ذلك الزّمن، وقَفتُ ببابِ كُوخِنا، والشّمسُ ساطِعة، وباغَتَتنِي سيارةٌ عسكريةٌ فرنسيّة، وتوقّفَت عندِي..

- سيارة عسكرية ببَابِنا!
أنا وهيّ وجهًا لوَجه..

هذا يَحدُثُ لأولِ مرّة، رغم ان هذا النوعَ وغيرَه من الآليّاتِ العَسكرية أصبَحنا نعتادُ عليه هذه الأيام، فِي قريةِ "رأس جِيرّي"، حيث الجيشُ الفرنسي يغدُو ويَرُوح..

العسكري يبحثُ عن أبناءِ المُقاومة.. وفهِمتُ أن هذا العسكريّ الواقفَ أمامي ، مسمُوحٌ له أن يُطلقَ النارَ على الناس..

هذا المَشهدُ قد أدرَكتُ مَعناه..
تقدّم منّي العَسكريّ، وأَشهرَ فِي وجهِي بُندُقيتَه..
ولم أفهَم.. وهو قد أدركَ أنني لم أفهَم.. فأشار لي - بالبُندُقيّة - أن أرفعَ يَدَيّ..
فرَفعتُ يديّ..

وفتّشَنِي.. تأكدَ أن لاشيءَ بدَاخلِ "قشّابتِي".. هي بَيضاءُ اللّون.. سبَق ان قال لِي والدِي إنه اشتراها لكي أستعمِلَها فِي وقتٍ لاحِق، وتحديدًا لحَفلةِ الخِتان..

وانصرَفَ الجُندي..
ثم عُدتُ إلى داخلِ كُوخِنا..
إنه أجملُ كوخٍ فِي الدنيا.. فيه أجِدُ الحُرّيةَ والأمان..
وقُلتُ لأمّي: إنّ عسكريّا قد فتّشني..
فاقترَبَت منّي مَذعُورة..

وقامَت هي أيضا بتفتِيشِي..
وسألَتنِي: "أين هو العَسكري؟"..
وأشرتُ لها: إنه ذهبَ بسيّارتِه..

فأطَلّت والدتي من نافذة الكُوخ، وتَمتَمَت بكلامٍ غاضِب، ثم أردَفَت: "تْفُو! يُفَتّشُون حتّى الأطفال.. أعوذُ بالله!"..

وجَلَسنا أنا وأمّي معًا خارجَ الباب، أمامَ الكُوخ، وهذا مَكاني المُفضّل..
أعشِقُ هذا المكان.. منهُ أرفعُ عينيّ إلى فَوق.. وأرَى السّماء..

وكانت الشمسُ في كَبِدِ السماء.. وأُمّي تَربِتُ على كتِفي، وتَمسحُ رأسِي، وتَتأمّلُني: "أحمد! هل كُنتَ خائفًا؟ أنا مُتأكّدةٌ أنكَ شُجاع.. إنكَ انت ابنُ رجُل، وحفيدُ الرّجال.. وقَبّلَت وَجنتَيّ.. وحَكَت لي أنّنِي مُقبِلٌ على الرّجُولة: "يا بُنَيّ! سيَأتي عندنا الحَجّام، وسوفَ يَختِنُك، لكَي تكُونَ رجُلاً..."..

ثم ضَحِكتْ أمّي.. وقَبّلتْني.. وعادت إلى مَشاغِلها في البيت..
ولدَى عَودةِ والدِي، حَكت لهُ أن عَسكريًّا قد جاء، وفتّشَ ابنَنا "أحمَد"..

وقصّتْ لأبي ما وقَع.. فضَحِك ضَحكةً كُبرى.. وقال: "لا تَقلق يا بُنَيّ! أنتَ رجُل.. وابنُ رجُل.. لقد ظَنّ أنّ تحتَ قشّابتِك سِلاحًا خطيرًا.. وفِعلاً، عندَكَ سِلاح"..

وأضافَ أبِي: "إنّك مُقاوِم.. أصغرُ مُقاوِم.. وبك أفتَخِر"..

ولم أفهَم شيئا.. فهِمتُ فقط أن أبي قال كلامًا يُطمْئِنُني.. وابتَسَمتُ للوالد.. وردّ عليّ بابتِسامة.. وكثيرا ما كانت الابتِسامةُ المُتبادَلةُ لُغتَنا التواصُلية..
الابتِسامةُ أبلغُ تعبيرٍ لطمأنة الطفولة..

ثُمّ ضَحِكَ أبي حتّى سَمِعَتهُ أُمّي..
وسألَتْهُ: "لِمَاذا تَضحَك يا عَمْرو؟ اَضْحِكْنا معك!"..

قال أبِي: "أتحدّثُ عن السّلاحِ الذي عَنهُ يُفتّشون، ظنُّوا أن ابنَنا أحمد يُخبّئهُ تحتَ قشّابتِه".. وأنا لم أفهَم شيئًا..
وأشار أبِي لوالدتِي: يا فاطْمة، تَعاليْ ببِرّادِ شَايٍ مُنَعنَع، وبرُفقتِه "بَغْرِيرَة"..

انصرَفَت أمّي لإعدادِ المَطلُوب، والتَفتَ إليّ أبِي مُبتَسِمًا: "أسّي أحمد.. أنتَ ستَكُونُ رجُلاً حقيقيّا.. فاستَعِدَّ لمَعركةِ الرّجال.. غدًا سيَكُونُ عندنا الحَجّام "السّي المَعْطِي" لكِي يقُومَ بخَتنِك يا ابْنِي.. الخِتانُ مُهِمّ.. هو علامَةُ الرّجُولَة.. سوفَ نَفرَحُ بك!"..

ولم أفهَم شيئًا.. لا مَعنَى الخِتان.. ولا مَعنَى الرّجُولة.. ولكنّني فَرِحتُ لِفرَحِ والدِي ووالِدتِي.. وجاءَت أمّي بالصّينيّة، وفيها ما يُؤكَلُ ويُشرَب.. وأخذَتْ مَكانَها إلى جوارِ أبِي.. وقالت له أُمّي: إذن، لن تَذهبَ غدًا إلى السُّوق؟!
أجابَها: "سَأشتَغلُ في بِناء المَدرسةِ الجديدة"..
ثم مَدَّ لي قِطعةَ "بَغْرِيرةٍ" ساخِنة، وكأسَ شايٍ مُنَعْنَع..
لقد كانت أُكلَةً لذِيذة.. والتفَتَ إليّ أبِي من جديد: "بعدَ الخِتان، ستَذهبُ إلى المدرسة.. سنَبنِيها بجِوارِ كُوخِنا.. المَدرسةُ قَريبةٌ جدّا.. ستَكُونُ هُناك، على بُعدِ أمتار.. امامَ كُوخِنا.. المَدرسةُ هي جارَتُنا"..

ثم دَعانِي إلى الصّلاَة.. وقال: "سأُعلّمُك كيف تُصَلّي"..

وصباحَ الغَد، كان أبِي على بُعدِ أمتارٍ قليلة من كُوخِنا..
وسمِعتُ المَسؤولَ عن البِناءِ يُنادِيه: "يا المْعَلّم "عْمَرو"! رُدَّ بالَك للخَدّامِ الجَديد! تأكّدْ أنهُ في المُستَوى المَطلُوب؟"..

أجابهُ والدِي: "لا تَقلق! إنهُ عامِلٌ جيّد!"
وبَدأَتِ المدرسةُ تَكبرُ أمامِي.. أتَتَبّعُها وهي تَكبرُ..

كلَّ صباحٍ أقفُ بباب كُوخِنا، وأستَمتِعُ بمَنظَرِ المَدرسَةِ وهي تَعلُو وتَعلُو"..

"الحَجّام"

وذاتَ صباح، جاءَ "المْعَلَّم المَعطِي"، وهو من خَتّنَ كلَّ ذكُورِ القَريَة..
كانَت أمّي مُنشَغِلةً معَ بعضِ الجَاراتِ في إعداد الغَذَاء..
وهمَسَ أبِي في أُذُنِ "الحَجّام"، ثم أشارَ لي بأنْ أتقدَّم للسّلامِ عليه.. كُنتُ لابِسًا قشّابة المقاومة، بَيضاءَ جديدة.. قَبّلتُ يَدَه، جَريًا على العادة، ثم طلَبِ منّي أن أجلِسَ قُبالتَه على مخدة..
ثم رَفعَ قشّابتِي، ومَدّ يَدّهُ لتَفحُّصِ ما بدَاخلِ القشّابة..
وطلبَ من طفلٍ آخَرَ أن يُساعِدَه..
ثم أَخرجَ مِقَصّا، وقال لي: "انظُرْ إلى فَوق! هُناك حَمامة!"..
رفَعتُ عَينيّ إلى السّقف، وحَرّكَ "الحَجّامُ" المِقصَّ..
أحسَستُ بشيء.. ثم رأيتُ قَطراتِ الدّمِ تتَسرّبُ منَ القشّابة..
فهِمتُ أنه اقتَطعَ منّي شَيئا..
وقال "المْعَلّم المَعطِي": "مبرُوك! لقد أصبَحتَ رجُلاً!"..
ولَم أشعُر إلاّ وقد وَقَفتُ علَى قدَميّ، وخَرَجتُ مُسرِعًا إلى الباب، والتَقَطتُ حَجَراتٍ صغِيرات، وقَذفتُه بها..
وبحثتُ عن حَجَراتٍ أُخريات... ورَشَقتُه بها..
والضّيوفُ يَضحَكُون وهُم يُشاهدُون طِفلاً مُختّنًا يَرشُقُ الحَجّامَ بالحَجر.. والخَتّانُ يَهرُب من الطّفلِ المُخَتّن..
وأطفالُ القرية يضحَكون، وهم يُردّدون أنّني قد رجَمتُه..
ولم ينسَ "المْعَلّم المَعطِي" هذا المَشهدَ المُضحِك، إلى أن فارَق الحياة.. وكان- رحمَه الله - يَبعَث لي بالسّلام مع والدِي، عندما كنتُ أشتغِلُ في الرّباط.. ويُلِحُّ "الحجّام" على أبي : "سلِّم على ذلك الرَّجُل"!

عيشَة قنديشَة

كانُوا يُخيفُونَنا بها، ونحنُ أطفال.. يُرعبُونَنا بالغُولَة التي تَفتَرسُ الأطفَال..
يُشِيعُونَ أنها تعترضُ الأطفالَ ليلا في الطريق، ثُمّ هناك في الجبَل..
"عيشة قنديشة" تَغَنَّى بها التراثُ المغربي: ناس الغيوان، جيل جيلالة، لمشاهب، كناوة، الملحُون، وكثيرٌ من الفِرَق الأخرى، وكتاباتٌ إبداعية تُبرِز هذه الشخصية: لالة عيشة، مولاة الواد، مولاة الجبال، مولاة المَرجة، عيشة الكناويّة، الحمدُوشية، البحريّة... إلخ.
تعدّدت التسميات لشخصيةٍ واحدة، وما زال الكثيرُون، وخاصة في الباديّة، يَعتبرُونها من الجنّ، وأنّها غُولة.
والأرجح أنها شخصية مِن عُظماء تاريخِنا الوطني..
فلدى سُقوط الأندلُس في القرن الخامس عشر، خرَجت الأميرةُ عائشة « La Contesa Aisha» إلى الجِبال والوِديان لمُقاومة البُرتغال الزاحِفين على المغرب بعدما تم طرد عائلتها وتشريدها من طرف البرتغاليين. انضمت عائشة للمقاومة المغربية.
كانت مُقاومتُها شرِسة، لدرجةِ أن الغُزاة أشاعُوا أنها تأكُلُ الأطفال، وتَفترسُ من تصل إليه من البشر.. وقد نجحُوا في إشاعة هذه الكذبة، لدرجةِ أن كثيرا من الناس، وخاصّةً في البادية، ما زالوا يُصدّقون الكذبة .ومهما يكُن، ما أحوجَنا إلى تدريسِ تاريخِنا بكيفية تصلُ معه الحقائقُ إلى أطفالنا حتى لا يَقعَ لهُم نفسُ التّرهيب الذى وقَع لِي ولغيرِي، وللأجيال التي مرّت، من تحريفِ التاريخ .
في طفولتي نشأتُ على تربية تقليدية صارمة، ولم أُفرّق بين الدنيا والآخرة، والخوف والجنّ، وَحِمَار الليل وبغلة العُودَة، وبين العقل واللّاعقل. كانت المفاهيم تختلط ولم أفلح في مراجعة الذات إلا في وقت لاحق، وتحديدا بعد أن قررتُ تعليم نفسي بنفسي. كان عليّ أن أُمَنْطِق نفسي. عندها بدأتُ أبحثُ في كائنات ترعيبية من قبيل "عِيشة قنديشة"، وأدركتُ أن الاستعمار وأتباعه قد شوَّهوا تاريخنا وصاروا يُروِّجُون لصور مغربية بشكل بعيد عن الحقيقة والواقع.

وعِشنا طفولة تخلط بين الحقيقة والخرافة، والواقع و الإشاعة، والمعقول واللَّامعقول. واكتسحتنا كُتب صفراء هي الأخرى تخلط بين الليل والنهار، والدنيا والآخرة. وصرنا نعيش الآخرة ونحسبها هي الدنيا.

مَدرَسةُ المَغارِبة

انتهى بناء هذه المدرسة.. وأبي يجلس بمدخل كوخنا، ويتأمَّل باعتزاز أنّه هو من بُنَاة المدرسة المغربية في "رأس جِيري". هي أول مدرسة للمغاربة في هذه القرية.
وشيخ القبيلة يُبلغ السكّانَ بإجباريةِ التّعليم..
وكان معَنا تلامِيذُ فوقَ الأربعِين: لهُم أبناءُ هُمْ أيضًا تلامِيذ..
ستكُونُ ثاني مَدرسةٍ في "رأس جِيرّي".. المَدرسةُ الأولى خاصةٌ بالمُعمّرِين.. لا يَدرُسُ بها إلاّ التّلاميذُ الفرنسيّون، وخاصةً بناتُ وأبناءُ المُعمّرين، والمغاربةِ المُقرّبِين من السّلطات الفرنسية..
والمدرسةُ الجديدة خاصةٌ بالتلاميذ المغاربة..
وها هي السّلطاتُ الفرنسيةُ تُمارسُ التّفرقةَ العُنصريةَ بين الفرنسيّين والمغاربة، في التعليمِ العمومي..
إنه التّمييزُ بين مَدرسةِ المُستعمِر، ومَدرسةِ المُستَعمَر..
وسيَكونُ والدِي من بُناةِ مَدرسةِ المَغاربة..
والِدي سألَتهُ أُمّي عن الجديد، وهو مُنكبٌّ على صَبّ الشّاي، فأخبَرَها أنهُم بَعثُوا إليهِ "وَلد قدّور"، فأخبَرهُ أنّ كلّ رجال القرية سَوفَ يَتَناوَبُون على العَملِ في النّهار، وعلى الحِراسةِ ليلاً، إلى أن يَكتَمِلَ البناءُ.
أدخَلَني أبِي إلى هذه المَدرسةِ الجديدة..
مَدرَسةٌ حديثةُ البِناء.. تَقعُ بجِوَارِ كُوخِنا.. ولا تبعُد عنّا إلاّ ببِضعَةِ أمتار..
"ولد السّي إبراهيم" كان أقربَ التّلاميذ منّي.. نفسُ العُمر.. نفسُ الطّباع.. مُجتَهِد.. أنِيق.. طيّب..
وكان في القسمِ أطفالُ كلّ الأسَر: وأغلبُها مِن مُهاجِري مُختَلف مَناطقِ الجفافِ والأوبئةِ والمَجاعة..
تنوُّعاتٌ بَشريةٌ تجَمَّعَت هُنا..
ولا أنسَى اليوم الأولَ في المَدرسة.. كانت تُدَرّسُنا مُعلّمةٌ فرنسية قدِمت من مكناس على درّاجة نارّية..
وكانت المَدرسةُ تُقدّمُ لتلاميذِها وجبةَ فطُور..

وذات يوم، انتَهت حصةُ الدّروس، وخرَجنا..
وعندَما وصلتُ للمنزل، سألتني أمي: "أين أخُوك حَمّادِي؟"..
أَخذَتنِي من يَدِي، وعادت بِي إلى المدرسة.. وهناك، كان أخي مُحتجَزًا.. المُعلمةُ عاقَبَته.. ونَسِيَتهُ هُناك.. وأغلقَت الباب..
والعقُوبةُ فيها احتِجاز.. وفيها الضربُ بالمِسطرة على أصابع اليديْن.. وعلى مُؤخّرةِ التلميذ الكسُول..
وعُقوبةُ المعلم كانت الضربَ بالعَصا على اليديْن..
بينما عُقوبةُ الفقيهِ "السّي عبد السلام" هي الضربُ بعصَا الزيتُون على اليديْن والقدميْن..
وكلُّها تعنيفٌ لأطفالِ ذلك الزّمَن..
ولم يطُل مُقامُ المُعلّمة الفرنسية..
جاء مُعلمٌ مَغربِيّ هو الأستاذ "الهادِي المنِيعِي" شقيقُ الكاتبِ المسرحي الكبير "د. حسَن المنِيعي"..
ومِنَ "السّي الهادِي" تَعلَّمنا..
هو أستاذٌ من الطراز المُمتاز..
كان يُعلمنا العربية، والأخلاق، والتربية الوطنية، ويقُوم بتحفِيظِنا الأناشيدَ الوَطنيّة..
وبعد مُدةٍ قصيرة، التحقَ به مُعلمٌ آخرُ هو "السّي علاّل كعبون" الذي صار يُعلمُنا الفرنسيةَ والحِساب...
كان للمُعلّمِين جناحٌ للسّكنِ في المَدرسة..
أُستَاذان نَعتزُّ بهما..
ولا ننسَاهُما..
أُستَاذَان درّسَانا لغايةِ اجتِياز الشهادة الابتدائية..
وأحيانًا يَظهَران بباب مَسكنِهما، فيُشيرَانِ لي، لكي آتِيّ لهُما بإناءِ ماء..
وآخُذُ الإناءَ فأملأُه بالماءِ منَ العَين..
وهكذا تكُونُ لهُما الكِفايةُ من الماء الشّروب..

والدِي

كان والدِي ووالدتي سَعِيديْن بكوني في خدمةِ الأستاذيْن..
وعندما يَحتاجان لإصلاحاتٍ داخلَ القِسم، يَعرفان أن أبِي يَمتَهنُ "سبعَ صَنائع"..
فيه الحدّادُ والبنّاءُ والنّجارُ ويَقتلعُ الضُّرُوس، وله مِهنٌ أخرى هي مِن احتياجاتِ القرية..
وله علاقاتٌ طيّبةٌ مع الجميع.. وفي رَمضان، يُواظِبُ على الآذان، خاصّةً في الفَجرِ والغرُوب..
ولا تفُوتُه مُناسَبةٌ دينيّة، إلاّ ويَحضُرُها..
وهو مُتديّنٌ إلى أقصَى الحُدود..
ويَحكِي لي قَصصَ الأنبيّاء، وحِكاياتِ الأوّلين.. كيف كانُوا يعيشُون.. ويتَواصلُون..
ويَقُومون بفِعلِ الخَير.. ويَخدُمون الناس.. ويحترمُون الجميع..
وكُوخُنا قلّما يَخلُو من الضّيوف..
وقد عُرِف والدِي بإعدادِ الشّاي المُنَعْنَع..
فتحتُ عينيَّ على هذه البيئة الاجتماعية..
وأثناء الدراسة الابتدائية، وقَعت أحداثٌ وأحداث..
كان أبِي مُصِرّا على أن أكُون إلى جِواره في كل مُناسبة جماعية.. ويعتزّ بي أمام أصدقائه الكبار..
وكانت لي ثِقةٌ في كلّ ما يقول أبي..
ثقةٌ بلا حدود..
طيّبٌ صادقٌ أمِين..
وكنتُ أُنفّذ ما يَنصحُني به: في الفجر أستيقظُ للصّلاة، و أَذْهَبَ للمَسجد، ثم إلى المَدرسة..
وفي المساء، أقرأ الحِزب.. وهو يَتَتبَّعُني..
وأراجِعُ الدروس.. أمام عينيْه..
نمُوذجُ للأبِ المُربّي.. النّمُوذجي.. القُدوَة..
ومع الأيام، تحوّلَ "رأس جيري" إلى: "سوق الثلاثاء"..
وكان لأبي فيه "قَيطُون" للحِدادَة.. ويَقصدُه الناسُ لإصلاحِ أدواتِ المنزل، من "برّاد" و"غَلاّي" وغيرهِما..

وهو مَعرُوفٌ جدا، في كلّ المِنطَقة..
وفي السّوق، يأتي من يَعقِدون معَه مَواعيدَ في قريةِ كذا، أو مَنزل كذا، فيَجدُون فيه الحدّادَ والبنّاءَ والفلاّح وغيرَ هذه المِهن الأساسية للبادية..
وفي برنامجِه الأسبوعي أربعةُ أسواق منها: "ثُلاثاء رأس جيرّي"، "سَبت جَحجُوح"، "الأحَد آيَت مِيمُون"، وهكذا كانت حياتُنا اليومية.. يومٌ بعدَ آخر.. والأسابيعُ تتَوالَى..
وهذا البرنامجُ يَجعل أبِي على اتّصال بكُلّ سُكان القُرَى المُجاوِرة..
ويَضمَنُ مدخُولاً مُستَقرّا لحياتِنا اليومية..
كما يَتمكّن من مُساعدة من يَحتَاجون..
ومِن إدخالِنا أنا وإخوتِي الذكورُ الثلاثة إلى المدرسة..
أختي الكبيرة تمكّنت، بعدَ زواجِها وإنجاب أطفالها وبناتها، مِن تعلُّم القراءة والكتابة..
وبرنامجُ والدي مُتنوّعٌ كلّ أسبُوع..
كلّ يومٍ شُغلٌ في مَكان..
ثم في الأسواق..
هو مَعروفٌ في كل القبائلِ المُجاوِرة.. وكان والدِي يُشجعُنا على العَمل.. العملُ عبادة!
كان يُكرّرُ هذا على مَسامعِنا..
ويقول: "النبيُّ نفسُه كان يَشتغل.. لقد كان راعِيًا للغَنم.. ثم تاجرًا"..
وتَشبّعنا بهذه الصّورةِ التي كان يُلقّنُها لنا والدِي..
في هذا السّياق، وبِفعلِ علاقةٍ مِهنيّةٍ لأبِي مع اللّحّامِ الذي سيكونُ أقربَ أصدِقائِه، وهو "الْمُعَلَّم السّلايْكِي"، مِن سُكّانِ "سَبت جَحْجُوح.."
إنّهُما يُمارسانِ في الأسواقِ نفسَ المِهنَة، وهي مِهنةُ "اللَّحَّام"، أي إصلاح الأواني المنزلية، وخاصةً منها البَرَارِيد..
"السّلايْكِي وأبي أصبحَا شريكيْن في تِجوالِهِما بالأسواقِ المُحِيطةِ بقرية "رأس جِيرّي".. وفي كلّ سُوق، يشتغلُ كلٌّ منهُما بشكلٍ انفِرادي، وفي قَيطُونِه الخاصّ به.. وفي نهايةِ السّوق، يتقاسَمان المَدخُول مُناصَفَةً..
كلُّ واحدٍ منهُما يَضَعُ على "مِندِيلٍ مُشترَك" مدخولَهُ خلال عمَلِهِ يومَ السّوق..
ولا شكّ في الثقةِ المتبادَلة بين الصديقيْن الشريكيْن..
وبَقيّا على هذه الثقة المُتبادَلَة مدى الحياة..

عَضّةُ الحِمَار!

كان أبِي في إحدى الأسواق المُحاذيةِ لقَريتِنا "رأس جِيرّي".. وفي الطريقِ اختلفَت مِشيةُ أبي عن مِشيةِ حِماره، فوصلَ أبي قَبلَ الحِمار..
الأمطارُ كانت شديدة..
ولم يَتمكّن الحمارُ من المشيِ على مُستَوى سُرعةِ أبي..
غضِبَ أبي.. أيُعقَلُ ألاّ يكُونَ حِماري قد وصَل؟ لقد كان هو السابق.. وعلى طُول الطريق كان هو أمامي، وأنا أتبَعُه.. فماذا حدَث؟
كان أبي غاضِبًا..
إنّ الحمارَ رفيقُه في الذهابِ والإيّاب..
وما زالَ أبي يتساءلُ عمّا حصَل، حتى وصلَ الحِمار..
وجدَه أبي في استقبالهِ ببابِ كُوخِنا.. وساعدتهُ أمّي في إدخالِ ما أتَى به من السّوق..
وخَرجتُ إلى الحمار، وصِرتُ أُؤنّبُه بطريقتي على تأخُّرهِ في الطريق: "أيُّها الحِمار، كيفَ تَتأخّرُ عن أبي؟"..
سمِعَني أبي، وبَدأ يَضحَك..
وأنا لم أتوقّف عن زَجرِ حمارِ أبي: بلغَ بِيّ التوتّرُ درجةَ الصّراخِ في وَجهِ الحِمار..
وأبِي لا يكُفّ عن الضّحك: "يا أحمَد! اللهُ مُسامِح.. سامِحِ الحِمار!"..
ولاَ أفهمُ كيف أنّ هذا الحِمارَ قد فَهِم..
لقد ردّ عليّ بتوتُرٍ مُماثِل..
واتضحَ أنّني أنا والحمارُ على مُستَوّى واحدٍ من التّصعِيد..
غضِبَ الحمارُ منّى، وانقضّ على رُكبتِي اليُمنَى..
لقد عضّنِي عضًّا شديدًا.. مُوجِعًا..
وصارت عَضّةُ الحِمار نُكتَةً في كُوخِنا!
وتنكيتًا في أوساطِ بناتِ وأبناءِ القرية..
وفيهم من صار يُروِّج في أوساط بعض التلاميذ أن عضَّة الحمار ما هي إلا غضبة من السماء.
وهذا تحدّث فيه الفقيه قائلا: "لا يُصيب الحمارُ أحداً، سواءٌ بعضّة أو غيرها، إلا إذا كان المُصَاب مُذنِبا."
خرافات نشأنا عليها!

التّلقيح

ذاتَ صباح، أَخذُونا نحنُ الأطفالُ إلى سُوق "سَبت جَحجُوح"، ولقّحُونا بحُقنَةٍ في ذِراعِ كلّ واحدٍ منّا، ثم أرجَعُونا إلى "رأس جِيرّي"..

ولم نَعرِف معنَى التّلقِيح، سِوى أنه ضِدّ مَرضٍ كانَ مُنتَشِرًا في أوساطِ أطفالِ القَرية..

وأنا نفسِي قد أُصِبتُ بمَرَض..

وفيما بعد، سيَزدادُ في كوخِنا مَولودٌ جديد: "عَلِي"..

أخُونا "عَلِي" أُصِيبَ هو أيضا بمرَضٍ، ثم فارقَ الحياة..

وأحدَثَت وفاتُه ألَمًا شديدًا في كُوخِنا..

وكان رأسِي بدُونِ شَعْر.. كُنتُ طِفلاً "أقرَعَ" من حِدّةِ المرَضِ المَجهُول..

وكان أبِي يُعالِجُ رأسي بزَيتٍ أسوَد.. ويقُومُ والدي هو نفسُهُ بتَحلِيقِ شعَرِ رأسِي بين الحينِ والآخر..

وبعدَ مُدّةٍ استعادَ رأسِي عافِيَّتَه.. وأصبحَ شَعرُ رأسِي لامِعًا..

ثم نَنزِلُ نحنُ الأطفالُ إلى الوَاد الذي يَفصلُ بين سُكانِ القرية: سكانُ يمِينِ الوَاد تابِعُون لمدينة "الخميسات"، ونحنُ سُكانُ يَسارِ الوَادِ تابِعُون لمدينةِ مكناس..

وكان هذا الوَادُ هو الفاصِلُ الحُدودِي بين نُفُوذ مكناس ونُفُوذِ الخميسات، في ذلك الوقت..

خيالات طفولية

فِي تلك الطفولة المُبكّرة، تعرّضتُ لمَرضٍ أَشعَرَني أنني بين الموتِ والحياة..
أمضيتُ أيامًا أقرَبَ إلى المَوت منها إلى الحياة..
كنتُ أتصوّرُ أنّني سألتحقُ بأُخْتَيّ وأَخَوَيّ الذين فارَقُوا الحياة قبل ميلادي، بسببِ مُضاعفاتِ المَجاعةِ والوباء.. ..
سيكونُ مُلتقاهُم مُفيدًا جدا.. سأعرفُ منهُم كيف هي الحياةُ بعدَ الحياة؟
أحبُّ أن أعرفَ كيف هي الحياةُ هناك..
المَعرفةُ عندي هي الأَهَمّ..
ولكن المعرفةَ لن تكُون مُمكِنَةً إلاّ عندما أكونُ هناك، في عين المكانِ والزّمان..
وشاءَ القَدَرُ أن يتَراجَعَ المَوتُ وتَنتصِر الحياة..
وصِرتُ أخرجُ إلى الطبيعة المُحيطةِ بكُوخنا..
وحالةُ تأمُّلٍ في السماء، تتَملّكُني وتُسافرُ بخيالي إلى ما قبل ميلادي، ثم إلى ما بعدَ حياتي.. وكنتُ أتصوّرُ أن حياتي ربّما لم تبدَأ بعدُ في قريتي "رأس جيرّي"، وأنها سوفَ تَبدأ، وتَتَواصَلُ في حياةٍ قادِمة، بِعَوالِمَ أخرى..
أتصوّرُ أنني بين حَياتيْن: ما قبلَ الحالية، وما بعدَ الحالية.. "جئتُ" من حياةٍ هي قبلَ ميلادي، وسوف أرحلُ إلى حياةٍ لاحِقة، بعد حياتي..
وفي خرجاتي إلى الطبيعة المُحيطة بكُوخنا، أستَقرِئ الماضي الذي كنتُ أتصوّرُه في مكانٍ ما، فوقَ السحاب، وأيضا أستقرئ المُستَقبلَ القادمَ في مكان ما..
وكنتُ أتصَورُ أيضا أنني لَستُ فردًا واحدًا..
أتصوّرُنِي شخصًا مُكرّرًا: واحِدٌ هو أنا هُنا على الأرض، وآخُرُ هو أنا فوقَ أو تحت السّحاب.. أتصوّرُني مُحاطا بالحياةِ السابقةِ والقادمة، وبحياةٍ أخرى أنا فيها هُنا تحت السحاب، وفي نفس الوقت فوقَ السحاب..
وكثيرا ما كنتُ أخاطِبُ نفسي وأنا أتحركُ فَوق، كما أتحرك هُنا تَحت..
شخصَان هُما معًا أنا، يقُومَان بنفسِ التأمُّل، ونفسِ التّحرُّك، والمَشي والجَري وحتى اللَّعِب، هُنا تحت، وهناك فَوق..

هؤلاءِ عَلَّمُونِي

فِي ذكرَياتِ القِسم، 3 مُعلّمينَ لا أنساهُم:
1 - "الهادِي المنِيعِي": مُعلّمُ العَربية.. كان صارِمًا فِي التّعليم.. المِسطرةُ فعّالةٌ فِي يَديْه..
ولكنهُ مُنضبِطٌ لأقصَى الحُدُود..
لم يَتأخّر أبدًا، ولَو مرّةً، عن مَوعِدِ التّدرِيس.. كلّ صباح، باستِثناءِ الأحَد، ورغم الطقسِ الذي يكُونُ أحيانًا مُمطِرًا أو شديدَ البُرودة، يصِلُ إلى المَدرسة، على درّاجتِه النّارية، قادمًا من مدينة مكناس، على بُعد حوالي 20 كيلومترا..
وفِي التلامِيذ من كانُوا يَسكُنون على بُعد 5 كيلومترات، أو 9، أو حتى أكثر، وكُلّهُم يكُونون فِي الموعدِ المضبوط.. يَصِلون فِي الوقت المُحدّد على دراجاتِهم الهوائية..
ويا ويلَ من يتأخّر!
المُعلّم يجدُنا نحنُ التلاميذُ والتلميذاتُ فِي انتِظارِه..
نُقبّلُ يدَهُ واحدًا بعدَ الآخَر، ثمّ يشيرُ إلينا بالدّخُول إلى القسم..
وفِي الوقتِ المَضبوط، نَكونُ داخلَ القِسم..
وأغلبُنا حُفاةُ القَدَمَيْن..
والمُعلّم يكتُبُ فِي السّبّورة، ثم يشرحُ لنا الدّرسَ الأوّل..
وذاتَ مرّة، وهو يكتُب بالطباشير، توقّفَ والتَفَتَ إليّ قائلا: لا أنسَى الطريقة المُعوَجّة التي كتبتَ بها حرفَ الذّال، يوم أمس.. وإذا كتبتَه فِي وقتٍ آخر، بطريقةٍ غيرِ صحيحة، فسَوفَ أُرِيكَ بهذه المِسطَرة كيف يجبُ أن تَكتُب..
وكانَ هذا تهديدا ليس لِي وحدِي، بل لكُلّ القِسم..
وذاتَ صباح، ونحنُ فِي القِسم، دَخلَ التلميذُ "مولاي امحمد".. وسألَهَ المُعلّم: "لماذا تأخّرتَ؟"؟
تَلَعثَمَ "مولاي امحمد"، ولم يعرف كيف يُجِيب.. وباغَتَه المُعلّمُ بصَفعَةٍ قويّة..
من هو "مولاي امحمد"؟ إنهُ ابنُ أحدِ أكبرِ أثرياءِ مِنطقَةِ "كَرْوَان".. كان يَدرُسُ مع أبناءِ المُعمّرين الفرنسيّين..
وأصبحَ "مولاي امحمد" حديثَ الخاصّ والعامّ فِي قريةِ "رأسِ جِيرّي"!

وما دامَ هو نفسُهُ يُصفَع، وأمامَ تلامِيذَ جُلُّهم حُفاة، وأنا مِنهُم، فماذا سيفعلُ بنا المُعلّم إن تأخَّرنا نحنُ عن المَدرَسة؟

وكان هذا دَرسًا للجميع..

وتَعلّمنا منَ "السّي الهادِي" أنّ المُعلّم فوقَ الجمِيع، مُترفّع عن كلّ الفَوارِقِ الاجتماعية، وأنْ لا فرقَ بين التلاميذِ إلاّ بالاجتهاد..

2- السّي "علاّل كعبون"، مُعلّمُ الفَرنسيّة..

لم يكُن أقلّ تعنيفًا من "السّي الهادي"..

كِلاهُما يتَسلّحان بالمِسطَرة، طيلةَ الحصّةِ الدراسية..

أسرةُ التعليم كانت مُقتنِعةً بأنّ العصَا قد خرَجت من الجنّة..

هذا تعلمناهُ من مِسطرَةِ المُعلّم..

وعندَما نشتَكِي إلى الأسرة، يُقالُ لنا: المُعلّم لا يُمكِنُ أن يَظلمَ أحدًا..

ادرُسوا جيّدًا ولن يظلِمكُم أحَد..

كانت التربيةُ هكذا..

ولكُم أن تختارُوا!

إمّا الضّرب، أو الحِفظ..

فكُنّا نَختَار الحِفظ..

نَحفظُ حتى بدُون فَهم..

3- السّي "عبد السّلام".. مُعلّمٌ فقِيهٌ له حِصّةُ الدّين.. يُدرّسُها لنا نحنُ الأطفال، وشعارُهُ: " العَصا خرجَت من الجنّة"!

ولا خيارَ لنا إلاّ المُواظبة على الحِفظ..

وعندما يسألُ أحدُنا عن المَعنَى، يُجيبُه الفقِيه: "لا تَسأل.. فهذا كلامُ الله.. اِحْفَظهُ كما هُو"..

وتَرَسّبَت في ذهني أن القرآن يُحفَظُ عن ظهر قلب..

واللهُ وحدَه يَعرفُ المَعنَى..

المُعلّمُ الفقِيه كان يقومُ بتَحفِيظِنا القُرآن..

ونُردّدُ بَعدَهُ الآياتِ التي كان يَقرأها علينا منَ المُصحَف..

وكان بجوارِي التّلميذُ "بنعِيسَى"، والفقيهُ يَقرأ من المُصحَف سُورةَ المُلك: "فارْجِعِ البَصَرَ هل تَرَى مِن فُطُور"..
وبدَلَ "البَصَرَ" نطَقَ بنعِيسَى: "البِيصَارَة"...
وغضِبَ الفَقيهُ غضبًا شديدًا: "البِيصَارَة ليست هُنا.. هُنا نَقرأُ كلامَ اللهِ.. وإذا أردتَ البِيصَارَة، فاذهَبْ إلى أُمّك"!
ثمّ انهالَ عليهِ بقَضيبِ الزّيتُون..
ومنذُ ذلك الوَقت، اختَفَى التّلميذُ "بنعِيسَى"، وقيلَ لي بعدَ سنَواتٍ إنهُ فِي الخارِجِ..
كان هذا الفقِيهُ يستَعينُ على راتِبه الشّهري بكتابَةِ التّمائم لدَفعِ الجِنّ أو العَينِ أو المَرضِ ونَحوِ ذلك..
وهذا المُعلّمُ الفقِيهُ كانَ يَنصَحُنا بالذهابِ كُلّ جمُعةٍ إلى مَقبَرةِ "سيدي الوافِي"، وقراءةِ القُرآنِ تَرَحُّمًا على الأموات..
وصِرنا مُواظِبِين على المَقبَرة..
ولدى اقترابِ الامتِحان، اشتَرى التّلميذُ "مُحمّد الوافد" شَمعةً ووَضَعَها على قبرِ "سيدي الوافِي"، وطلبَ منه أن يكُون من النّاجِحين..
وفعلاً نَجحَ فِي الامتِحان..
وهذه الواقِعة جعَلَتني أُفكّر..
والتفكيرُ لا يُثمِرُ بسُرعة..
يحتاجُ إلى وقت..
وهذه هي النتيجة التي خَلُصتُ إليها..
وكلَّ صَباحٍ يُوقِظُني أبي للذّهابِ إلى المَسجِد..
ولا فَرقَ بين الأيام، ولا بينَ الصّيفِ والشّتاء..
وفِي المَسجِدِ نَحفظُ القُرآن..
ساعتيْن إلى ثلاثِ ساعاتٍ كلَّ صباح، قبلَ الذّهابِ إلى المَدرسة..
كُنْتُ أنا و"إدريس ولد عبد الرحمان"، نلتقِي فِي المَسجِد، ثم نتَوجهُ معا إلى المدرسة..
وذاتَ صباح، لاحظْنا أنّ الفقِيهَ يُملِي على الطّلبَةِ مِن المُصحَف، وهذا يعني أنهُ ليس حافِظًا..
واتّفقنا على أن نتكلّمَ حول الفَقِيهِ المُزَوّر بعدَ الخُرُوجِ مِنَ المَدرسَة..

وهذا ما حصَل..
ناقَشْنا ظاهرةَ فقيهٍ مُزَوّر..
واتّفَقنا عل أن نشتكي لوالدِ إدريس، باعتِبارِ أنهُ مسؤول عن المَسجد، نيابةً عن الجماعة..
وفي نفسِ اليوم، تمّ الاستِغناءُ عن الفقيهِ المُزوّر..
وأُوتِيّ بفقيهٍ جديد..
- كانت هذه من سُلوكياتِ صغارِ "العفاريت"..

كتاب السِّحْر!

وحكَى لي "ولد السّي إبراهيم" أنّ "حمّو"، وهو تلميذٌ مَعنا، سيتزَوّج التّلميذة "مَامًّا"..
وقرّرنا أن نتَأكّدَ إن كانت كُتبُ السّحرِ فعّالةً أم لا..
اتّفَقنا على الذهاب معًا إلى سُوق "الأحَد آيت مِيمُون"..
مَشَيْنا 9 كيلُومترات، على الأقدَام، واشتَرَينا كتابا صغيرا، ثم عُدنا على الأقدام..
وفي اللّيل كُنّا معًا في غُرفةٍ بِكُوخِنا، بدعوَى مُراجعةِ الدّروس..
وفتَحنا كتابَ السّحر..
فيهِ فصلٌ عن فسخِ الزّواج..
طبّقنا ما فيهِ من تعاويذَ وبُخُور..
والغريبُ أنّ "حمُّو" - بعد أيام - افترَقَ عن "مامّا"..
وتمضِي الأيامُ والأعوام..
وبعدَ سنواتٍ طويلة، قرّرتُ أن أُعيدَ النّظر في أفكاري، وأناقِشَ نفسِي بالعَقل، للتّمييز بين المنطِقي والخُرَافِي..
لقد كنتُ مُنزلِقًا إلى خرافات.. وشعوذَة..

إلى "مَكناس"

أبِي أعَدّ لِي مَفاجأة!
وهي أنْ نُسافِرَ معًا إلى ذلك "العالَم".. سنَركبُ الحافلةَ إلى مدينة "مَكناس"..
فرحتُ كثيرًا للخَبَر، حتى وأنا لا أعرفُ أي شيء عن المدينة..
قال والدي: " المدينةُ مَنازلُ كثيرة، وطُرُقٌ كثيرة، وسُكّانٌ كثيرُون"...
وأنا لم يَسبِق لي أن رأيتُ المدينة..
لا أعرفُ إلا قريَتَنا.. مُقتَنعٌ بأنّ كلّ العالَم يُختَزَلُ في قريَتِنا..
جلستُ على رُكبةِ والدِي، وانطلقَت الحافلةُ باتّجاهِ "مَكناس"..
لأوّلِ مرّةٍ أرى المُنعرَجاتِ المُمتَدّة وراءَ أُفُقِ "رأس جِيرّي"..
وأكتَشفُ عَوالمَ تُوجدُ خارجَ قريتِي، وفيها النّاس.. أنواعٌ من الناس.. كبارًا وصِغارًا.. وعلى العُموم، هُم بَشَرٌ مِثلَنا، نحنُ القادِمُون من قَريتِنا..
اندهَشتُ لمَرأى الشّوارعِ في "مَكناس"..
نزَلنا من الحَافِلة.. وسِرتُ مع أبِي، في زِحامٍ بَشَرِيّ شديد..
شوارعُ مُعبّدة.. أعمِدة كهربائية.. باعَةٌ على الرّصيف.. سيارات.. الناسُ تتكلّم..
وأبِي يُسلّمُ على بعضِهم، أو يرُدُّ السّلام..
هذا عالَمٌ عجيب..
والناسُ في المدينةِ لا تتَصافَح.. كُلُّ واحِدٍ يَمضِي، أحيانًا في تجاهُلٍ لمَن حولَه..
وهذا التّجاهُلُ يَصدِمُني أنا ابنُ البادية.. يَصدِمُني أنا مَن أَلِفْتُ آدابَ البادية..
ولم أَسأل.. صِرتُ أُتابِعُ خُطواتِ أبِي دونَ أيّ تعليق..
وقَفتُ معهُ ببَابِ مَتجَر.. ثم مَتجَرٍ آخَر، فثالِث ورابِع... وكِدتُ أَضِيعُ في الزّحام..
أخذَني أبِي من يَدِي، وسِرتُ معهُ إلى مَتجَر..
ولا ينسى أبِي أن يمُرّ على سوق الألبسة القديمة، وأنا وإخوتي مُعتادون على ارتداء ألبسة بعضنا..

الأعوام عندنا تتشابه..

والقديم يبقى جديدا مادام صالحا لإعادة الاستعمال.. وتجارة القديم مازالت مُنتعشة عندنا، ولا تتأثر بالتّقادم..

ومبدئي منذ ذلك الوقت: "لا تترك الثقافة عندك، مَرِّرْها إلى غيرك، لكي يستفيد معك، وأنت معه تستفيد. الثقافة المتبادلة تُنعش وتَنتعش.

اليَهُود

نحنُ في مَكناس..
"صباحُ الخيرِ سيّدي!".. قُلتُها كما هي العادةُ في قريَتِنا..
ولم يَرُدَّ الرّجُلُ السّلام.. رُبّما لم يَسمَع.. ورُبّما تَجاهَلَ التّحيّة..
أبي ضحِكَ مِنّي، عندما غادَرْنا المَكان..
التَفَتَ إليّ والدِي: أنتَ قُلتَ "سيّدِي" لِيَهُودِي؟!
وشارَكتُ أبي في الضّحك: "هل هو يَهُودِي؟"
إنه يَتكلّمُ العَربيّة!
فما هو اليهُودي؟ أنا لا أعرف.. هُنا بدأتُ أتساءلُ بصَمت.. أطرحُ لنفسِي أسئلةً قد تكونُ مُحرِجة.. وأبحثُ عن جواب..
وأدركتُ بعد سنوات أن الإشكاليةَ لا تحتاجُ إلاّ جوابًا بسيطًا واحدًا لا أكثَر: هو أن الناسَ كلَّهُم سَواسيّة..

ومرةً أخرى كنتُ مع أبي في زيارةٍ أخرى لمدينة مَكناس..
ومَرَرنا معًا مِن شارع "بَرِّيمَة"..
وهذه المرة، لاحَظتُ أطفالاً جالسِين على الرّصِيف، جنبًا إلى جَنب، وسألتُ أبي: "مَن هؤلاء؟"، قال إنهُم أطفالٌ يَهُود..
ولم أفهَم معنَى يَهُود..
كانوا جالسينَ واحدًا بجوار الآخَر..
بدَا لي أنّهُم يختَلفون عنّا نحنُ أطفالُ القرية..
وفي مرّةٍ ثالثة، جِئتُ مع أبي، ولم أجد الأطفال اليهود على ذلك الرصيف.
سألتُ أبي: "أين اليهودُ الصغار؟ أين هُم؟"..
أجاب: "سمِعتُ أنهم يَرحلون إلى الخارج"..
وأنا لا أعرفُ هذا "الخارِج"..
حسبتُ "الخارِجَ" حُومةً أخرى، أو قريةً أخرى..
وعندما عُدنا إلى كُوخِنا، كان الخبرُ قد سبَقَنا.. والدتِي سمِعت من إحدَى الجارات أنّ "اليَهودَ يَهجُرُون مَكناس.. لقد بدأوا يبِيعُون مَنازلَهُم، وبأرخَصِ ثمَن، في حيّ

"المَلاّح"، ويَرْحَلُونَ إلى فلسِطين..
- شيءٌ ما أصبحَ غيرَ طبيعِي في مدينةِ "مَكناس"..
ولا أحدَ يدرِي ما يقعُ في الخَفاء..
وانتَهت زياراتُ "مَكناس"، برُفقَةِ أبِي..
امتَطَينَا الحافلة.. وقبل أن تنطلق، صَعِدَ بائعُ الحلوَى وهو يُردّد: "هذه حُلوَة وطَرِيّة"..
عجِبتُ للمَدينة..
لم يسبِق أن رأيتُ مَدينةً غيرَ مكناس..
ثمّ صَعِدَ شيخٌ يَقُودُهُ طِفل: "احِنُّوا عليّ، اللهُ يَحِنُّ عليكُم"!
البُؤسُ مَوجُودٌ حتّى في مَكناس...
وصَلنا إلى "رأسِ جِيرِّي"..
هذه القريةُ أجمَلُ حتى منَ المدينة.. فيها مُتّسَعٌ من الحَركة.. الحياةُ فيهَا حَمِيميّة..
والناسُ تتَعارَف..
وتُسلّمُ على بعضِها.. وتتَكلّم.. وتضحَك..
أمّا في هذه المدينة، فكُلٌّ مع نفسِه، ولِنَفسِه..
وأنا بطبعِي مُنعزِل.. قلّما أخالطُ الناس.. أنا كثيرُ الكلامِ مع نفسي، لا مع الغير..
مَيّالٌ إلى العُزلة..
وأُدَوّنُ ما يَخطُر بِبالِي..

الشّاعرُ الثّقِيل!

في الطفولة، كان بعض التلاميذ يتهكَّمون مني. إنني أقرأ لهم آخر ما كتبت في الشعر، وهم يُلقبونني بالشاعر الثقيل.

ولكنهم يصابون بخيبة الأمل، فأنا لا أغضب بسهولة.. أواجه الإزعاج بالضحك..

وجماعة نضحك بسبب.. وبدون سبب.

ثم أقرأ لهم بعض آخر كلماتي.. وأواصل المشوار..

أكتب كل يوم ما أحسبه شعرا.. أكتب وأمزق..

وفي أعماقي أنا مرتاح.. لقد قلتُ ما أردتُ قوله!

وعندما أُعيد قراءتها، أُحس أنها تُعبّر عني.. هكذا هو أنا!

وأُحس أن نُموا فكريا يُواكب في داخلي القراءة والكتابة.. وأن المسافة بيني وبين طفولتي لا تتسع بقدر ما تتقارب.

وليَقُولُوا ما شاؤوا.. فالمهمّ هو أني مجتهد وفي الصفوف الأولى..

وعندما أراجع ما قد كتبت، لَعلِّي وحدي أفهم المعنى..

أزعم لنفسي أن المعنى قد يسبق التعبير.

والكلمات التي كتبتُها.. أنا تروقني.. أراها مُقَفَّاة.. وأُسمّيها شعرا.. وبها أُوهِم نفسي أنني شاعر، حتى ولو كان التلاميذ يَحسبونني شاعرا ثقيلا!

وفي هذا السياق، يجب الِإعتراف بأن التلاميذ في قسمي، ليسُوا كلهم على منوال واحد، توجد أستثناءات منها الصّديق "إدريس دنواج" الذي كان يتتبع كتاباتي باهتمام..

فبعد سنوات، وأنا اشتغل بجريدة "L'opinion" بالرباط، فُوجئت بزيارته.. وكان أول سؤال له : "أين وصلَت بك أشعارك؟"

ثم قرأ لي أبياتا من أشعاري القديمة.. أجبتُه: "أنا الآن في عالم الصحافة."

أُصيب صديقي بخيبة الأمل: "كنتُ أحسبك شاعرا.. لماذا لم تَبْق في الشعر؟"

ثم صمتَ... لقد أَسَال إدريسُ دُموعي.. ورفض دعوتي له إلى منزلي..

وإلى الآن، لم أَلتَقِه رغم محاولات متعددة للبحث عنه.

إنه قارئ واحد لم يتهكَّم مني.. ولم يضحك من أشعاري.. ولم يصِفْني بالشاعر الثقيل.

الطفل الساكن في داخلي

ما زلتُ، وأنا بعدَ السّبعِين، أشعرُ أن الطّفولةَ المتحرّكةَ تُرافقُني..
وما زالت حتى وقد مَضَى هذا العُمرُ الجَسَدِي، حاضِرةً مُؤثّرةً مُتأثّرة.. وأنا معَها أتفاعلُ وأتأَقلَم.. ونحنُ معًا نَقفِزُ حواجزَ الزّمن..
وأُحسّ أن المسافاتِ بينَنا، أنا وطفُولتي، لا تتّسعُ بقدرِ ما تتَقارَب، وكأنَّ رجُلَ اليوم، نفسُ طِفلِ الأمس.. ومعًا، نحنُ الماضي والحاضِر، شرِيكانِ في الزّمانِ والمكان، في مسِيرةٍ واحِدةٍ يُنشّطُها التّفاعُلُ من بعِيد..
إنه زمنُ الخيالِ أستعِيدُه..
وفي الخيالِ كلُّ شيءٍ مُمكِن..
وأحيانًا يَذهبُ بِي هذا الخيالُ إلى القفزِ على المُستحِيل..
وأتصوّرُ أنّني مِن هذا الحاضِرِ السّبعِينِيّ، أستطِيعُ أن أفهمَ وأصحّحَ وأُوَجّهَ كلَّ هذا المَسار..
وهذا مُجرّدُ تصوُّرٍ عبَثِي..
بالخيالِ يُمكنُ القفزُ على الزّمن، والوُصول إلى الماضي، وإدخالُ تعديلاتٍ حتى في المكان..
وعمَليًا، هذا مُستَحيل..
يستحيلُ أن أغيّرَ الأحداثَ في ذات الطّفولة..
وها أنا أدورُ في حلقةٍ مُفرَغة..
وإذن، لماذا كلّ هذا الخيال؟ ماذا تُجدِيني رحلاتُ الخيال؟
وأُسائلُ نفسِي: أليس الخيالُ، ورغمَ كلّ الاستِحالات، عُبُورا في الذاكرةِ إلى الماضي؟
العَودةُ الجسَدِيةُ إلى الطّفولة مُستحِيلة.. مُستحِيلةٌ رغم أنّني كم تمنّيتُها..
وأمْرٌ واحدٌ مُمكِن، هو التّأثُّرَ الحالي بالذكرياتِ الطفولية..
أنا مَسكونٌ بذكرياتِ الطّفولة.. الطفولةُ صديقتِي.. رفيقتِي من المهد إلى اللّحد..
وما زِلتُ طِفلاً حتى وأنا بعدَ السّبعِين..
وحتى أفكاري الحالية، فيها صُورٌ طفوليةٌ لا تُغادِرُني..

ما زلتُ أزورُ طفُولتِي!
طفلٌ كبيرٌ يَتفَقّدُ أيّامَ الصِّبَا..
أقطعُ مسافاتٍ زمنيةً إلى طفُولتي المَنحوتةِ في كياني.. إنها زياراتٌ استِطلاعيةٌ ظَرفية.. ولكنّ الدائمَ هو أنّ الطّفلَ - الذي هو أنا - لا يُغادرُني..
ومِن هذا العُمرِ الزّمنِي، أفهمُ وأتفَهمُ جوانبَ من طُفُولتي القديمة.. وأتصالحُ مع نفسِي.. أتصالحُ مع الطفلِ الذي كنتُ وما زِلتُ، حتى خارجَ مقايِيسِ العُمر..
هذا سبعِينيٌّ مُحكُومٌ بطفولةٍ مُؤثّرةٍ مُتأثّرة..
وهذه عاداتٌ تُرافقُني منذ الطّفولة: أُجالسُ نفسي كثيرًا..
أعذَبُ الأوقاتِ لا أقضِيها إلا مع نفسِي..
في طفُولتي، كنتُ أقرأ وأكتُب..
أكتُبُ كلامًا.. وبعدَ الكلامِ كلامًا..
وليقُولُوا ما شاؤوا..
وأنا أقولُ كلِماتِي، وأمشِي، كما قال الحَكِيم..
وأقولُ في نفسِي: "لعَلِّي أنا وَحدِي أفهمُ ما قد كتَبتُ"..
وكنتُ أيضا أرسُم.. ولا أعرِفُ ما أرسُم..
أرسُمُ ما لا أعرِف.. حتى اللاّمفهُومَ واللاّمَعنَى..
وتتَواردُ مَعانِي الألوان، وتبحثُ لها، بمزيدٍ من الكِتابات، عن تعابيرَ تُنسّقُ بين جُملةٍ سابقة وأخرى لاحِقة..
ثم تعلّمتُ كتابةَ اسمِي واسمَ أبي واسمَ جَدّي..
وعَلّمتُ نفسِي كيف أستَخدِمُ هذا الاسمَ الثُّلاثي للتّوقيع..
لعلّي كنتُ مُتأكّدًا أن عليّ ضبطَ نفسِي من خلال رُموزٍ لَفظِية..
عاداتٌ رافَقَتنِي منذ الطفولة..
وفهِمتُ أن المعنَى قد يسبقُ التّعبِير..
وفي أحيانٍ أخرى، يَحدُث العَكس: أبدأ بالتّعبِير، وأبحثُ عن المَعنَى..
ولم أتوقّف عن هذه الرياضةِ التّعبيريّة، إلى الآن..
عاداتٌ طفوليةٌ ما زالَت تُرافِقُني..
ولعلّها تُرافقُ الكثيرَ من الأطفال..
وبإيجاز: أنا أجِدُ نفسِي.. مع نفسِي..

كنتُ أعيشُ كما أنا، بدُون تَصنُّع..
طبيعيٌّ لأقصَى الحدود.. بإيجابياتي وسلبيّاتي..
وليس في حياتي ما يُخجِلُني..
عِشتُ طفُولة مُتوازنة.. وفي أغلبِ الأحيانِ سعيدة.. نفسيًّا كانت حياتي سعيدة..
لقد لعِبنا كثيرا، أنا ومن في سِنّي..
اللعبُ القَروِي قد لعِبنَاه، أنا والجيلُ الذي في سِنّي..
وعَرفنا أنواعًا وأشكالاً من اللعب..
وعَرفنا معنى الفَقر.. وفي نفسِ الوقت: عَرفنا فقرَ السعادة، وسعادةَ الفقر.. عَرفنا سعادةَ الطفولة..
ونقاشاتِ الأطفال.. ومع أفرادِ الأسرة..
ونقاشاتٍ حول الحاضر والقادِم.. ونقاشاتِ الغَيبيّات.. وحولَ الدنيا والآخرة..
لقد كنتُ أشعرُ أنّني أكبرُ من عُمري.. وأكبرُ من غيرِي..
كان لديّ هذا الإحساس.. إحساسٌ بالمسؤولية عن الغير.. أنا مَسؤولٌ عن كل أفرادِ أُسرتي.. مَسؤولٌ عن غيري..
أدافعُ عن الآخر.. أحمِي أبي وأمّي وإخوتي..
وأحس بدافع قوي لمساعدة كل من يلتمس مني مساعدة..
دائمًا رهنَ الإشارة.. ولا أتردّد..
إنّنا في قرية التَّعاوُن والتآزُر والتّعايُش..
نَشَأنا على التّنوّعِ البَشرِي..
ومن هذا الفضاء البَدوِي، المحيطِ بجماليةِ الطبيعة، نستَمتعٌ مع بعض، بجماليةِ الحياة.. وبالإيمانِ بصفاءِ الحياة..
لقد عِشنا مع بَعض.. وكأننا أسرةٌ واحدة..
وتعلّمنا كيف نَتعاونُ في أوقاتِ الشّدّة..
وكيف نَتقاسَمُ خَيراتِ الأرض، وأحلامَ السماء..

الحِصانُ الأبيَض!

رَأَتنِي أُمّي في المَنام..
قالت لي: "رأيتُكَ راكبًا على حِصَانٍ أبيَض"..
أُمّي سَعِيدة جدّا.. وهذه رُؤيا لا تعنِي إلاّ الخير..
وأُمّي تَفخَرُ أنّ ابنَها سيكُونُ ذا شأن..
وتَسألُها الجاراتُ عن دليل، فترُدُّ عليهِنّ، وباعتِزاز: لقد رأيتُ "أحمد" راكبًا على حِصَانٍ أبيَض..
وصارت تقولُ لي: "إنّ أحلامِي لا تُخطِئ.. سيكُونُ لكَ شأنٌ في مُستَقبلِ أيّامِك"..
ومن جِهتِي، أنا حَلُمتُ كثيرا..
وكنتُ أفسّرُ الأحلام، على غرار بناتِ وأبناءِ قريتِنا، برَمزيةِ الخير والشّرّ..
هكذا كانت ثقافةُ الأحلامِ في كُوخِنا..
وحَكَت أُمّي مَنامَها لأبي..
وصارَ أبي أكثرَ اهتمامًا بي..
وقال أحدُ فُهَماءِ القريةِ لأبي: "أحمد" سيكُونُ شيخَ القبِيلة.. وهذا معنَى الحِصَان..
سيكُونُ من وُجهاء قريتِنا.. وهذا هو معنَى "بيَاضِ الحِصَان".. إنه يَعنِي أنّ مَن يكُونُ معَه، هو مَحظُوظ..
وبَدأَتِ التّفسِيراتُ تدُورُ بينَ الأهلِ والجِيرَان..
التّفسيراتُ تختَلِف..
والأيامُ تَدُورُ وتَدُور..
وتنسَى أُمّي أحلامَها الجميلة..
وفجأةً تَقفِزُ من حالةٍ لأُخرَى مُضادّة.. مُعاكِسة..
إنّ أُمّي - هذه المرة - غاضِبة.. تغضِبُ مِنّي، وأنا طِفل.. يا ربِّ ماذا فعَلتُ؟ أنا لم أنتَبِه لأيّ خطأ.. ولا أدرِي ما وَقَع.. لماذا هي غاضِبة؟
لعلّ شيئا ما - مُعاكِسًا - سوف يأتِي..
وعَلِمتُ في اليومِ التالي، أنَّ أُمّي اشتَكَتنِي إلى مُعلّمِ اللّغةِ الفَرنسيّة.

قضيبُ الزّيـتُون

عندَ نهايةِ حِصّةِ اللّغة الفَرنسيّة، والتلاميذُ يَتأهّبُون لمُغادرةِ المَدرسة، أمَرَني المُعلّمُ ألاّ أخرُج..
وأمرَ "بنعِيسَى" أن يأتيهِ بقَضِيبِ الزّيتُون، هناك إلى جِوارِ الحائِط.. ثمّ خاطبَنِي أمامَ التّلاميذ: "الجنّةُ تحتَ أقدامِ الأُمّهات.. هل فهِمتَ؟"..
أنا لم أفهَم.. واستَطرَدَ قائلاً: "أَسَأتَ إلَى والدَتِك.. وسَأُعاقبُك أمامَ التّلاميذ، ليكُون هذا تأديبًا لك، ولكلّ مَن في هذا القِسم.. اِخلَعْ حِذاءَكَ أيُّها العاقّ!"..
ولاحَظَ المُعلّمُ أنّني حافِي القَدَمَيْن..
وأمرَ التّلميذَ "بنعِيسَى" أن يَرفعَ قَدَمَيّ إلى أعلَى..
ثُمّ انهالَ على قَدَمَيّ ضربًا عنيفًا، بقضيبِ الزّيتون..
ولم يَنفَع الصُّراخُ ولا الرّجاء..
وكُلّما ازدَدتُ صُراخا، ازدادَ المُعلّمُ عُنفًا وإصرارًا..
ويَرفعُ صَوتَه: "الجنّةُ تحتَ أقدامِ الأمّهات!"..
ولم يتَوقّف إلاّ عندَما لاحَظَ أنّني أكادُ أنهَار..
ولم أصِلْ إلى المَنزِل إلاّ وأنا في حالةٍ يُرثَى لها..
سَألتنِي أمّي: ماذا وقعَ لك؟ لماذا تَبكِي؟
قُلتُ: ضرَبِنِي المُعَلّمُ على قدَمَيّ!
بَدَت على أمّي حالةُ تأثُّر..
وَواضِحٌ أنها نادِمةٌ على أن اشتَكَتنِي إلى المُعلّم..
وأنا لا أعرفُ السّبَب.. وماذا فعلتُ حتى أستحقَّ كُلَّ هذا العِقاب؟
ولدَى عَودةِ أبي، سألَها: أرَى أن "أحمد" ليس في حالةٍ عاديّة.. ماذا وقَع؟
أجابت: ضرَبَهُ المُعلّمُ على قدَمَيْه..
نَظَرَ إليّ أبي.. وأنا في حالةِ ألَم.. ولا أُجِيب..
بقيتُ ساكِتًا.. ثم انتَقلَ الحديثُ إلى مَوضُوعٍ آخَر..
وبعدئذٍ قالت لي والِدَتي: "لا تُغضِبْنِي بعدَ الآن.. وإذا وقَعَ خِلافٌ بينِي وبينَ أبيك، وهذا طبيعي، فليس من حقّ الابنِ أن يَتدَخّل، فأحرَى أن يكُونَ مع طَرَف، على

حِسابِ الطرف الآخر"..
ولم أُعَقّب.. وقَبّلَتنِي الوَالِدَة.. وقبّلتُ يدَها..
وانتهَى المُشكِل..
وبصَراحة، لا أصعبَ من إغضَابِ الوالِدة..
سأبذُلُ لإرضائها كلّ ما أستَطِيع..
هي عندِي غالية.. وليسَت هي وحدَها.. هِيّ ووَالدِي.. هُما معًا في أعماقِ قلبي..
وبقِيّ الوالِدانِ معي، إلى أن أخذَهُما اللهُ إليه.. أبي في "سَلاَ".. وأمّي في "طَنجة"..

"د. عبد السّلام تشَاح" و "د. علاّل الصّدّيق الغازِي": أخَوَانِ من أعزّ أعزّائِي في "رأس جيرّي": أُستَاذَانِ في الجامعةِ المغربية.. د. علال الغازِي حائزٌ على جائزة الدولة المغربية، عن تقديمِه وتَحقِيقِه لِكتاب "المَنزَع البَديع" للسّجِلماسِي.. كانت لي بهِ علاقةٌ حمِيميّة.. درَّسَ في الجامعة المغربية، وفي دُول عربيّة.. وهو شجّعَنِي، فيما بَعد، على مُواصلة الكتابةِ في الخيالِ العِلمِي، وأَعَدّ تقديمًا لمَجمُوعتِي القصَصيةِ الأولى "غدًا".. عندما نلتقي، نتَكلَّمُ في مَواضيعَ أدبية.. وفي الحركةِ الثقافية.. وقدّمَ لي مشكُورًا نصائحَ ثمينة..
وذاتَ صباح، اتّصلَ بِي أخُوهُ الأستاذُ الباحِث "د. عبد السّلام تشاح"، وأخبَرنِي أنّ "السّي علاّل" قد فارقَ الحياة.. نزلَ عليّ الخبرُ كالصّاعِقة.. كيف؟ ومتَى؟ قال: تُوفِّيّ "السّي علاّل" في حادثةِ سيْرٍ في "مَسقَط"، بدولة عُمَان".. ثم نُقِلَ إلى المَغرب، ودُفِنَ جُثمانُه بمَقبرةِ الشُّهداءِ بالرّباط.. وهناك نعَاهُ د. عباس الجيراري، مُستشارُ جلالة المَلك، بكلمةٍ مُؤثِّرة.. إنّ الراحلَ العزيز أديبٌ كبير.. له عدةُ كتُب.. ودراسات.. وهو أستاذُ الأجيال، دَرّسَ بعددٍ من الجامعات.. يَحظَى بتَقدير خاصّ، في الساحة الأدبية.. ولهُ مَسارٌ مِهنِي وأدَبِي رَفيع.. لقد فَقَدَت قريتُنا أدِيبًا كبيرًا.. ورَحلَ عنّا أُستاذُ الأجيَال..
"د. عبد السّلام تشَاح" أستاذٌ خَبِير في البِيئةِ الطّبِيعيّة، بجامعةِ الدارِ البيضاء، قد التَحَقَ بأخِيه الأستاذ الأديب، "د. علاّل الصّدّيق الغازِي"، إلى دارِ البقاء.. وتنقُلُنِي الصّدمَةُ إلى سنواتٍ قدِيمَةٍ مع العزيز الراحِل "د. عبد السّلام تشَاح".. علاقاتُنا مُوغِلةٌ في الطّفُولة.. لقد شاءَ القَدَرُ أن نتَعلّمَ في مَدرسةِ المَغاربة، ثُم في المَدرسةِ الثانيةِ التي كانت تابِعةً للمُعمِّرين.. وفي أوقاتِ العُطَل المَدرَسيّة، نشتَغِلُ معًا في قطفِ الفَواكِه.. وكان هُو شديدَ الاهتمامِ بكُلّ ما هو اخْضِرار، وأنا مِن جهتِي أهتمُّ بحَركاتِ النّجومِ والشمسِ والقَمَرِ في السّماء.. وبعد سنوات، يَمتَهِنُ الأستاذُ التعليمَ الثانوي، ثم الجامِعِي، ولا يَنقطعُ التّواصلُ بينَنا.. إنه أُستاذُ الجغرافية، باحثٌ في عِلمِ النّبات.. ومن كُتُبِه "جغرافية النّبات" الذي يُعتَبَرُ من المَراجِع المُهمّة في الجغرافيةِ الحَيويّة (البيُولوجيا).. كِتابُه هذا ذُو قيمة عِلميّة، يَتطرّقُ فيهِ إلى تَفاصِيلَ دقيقةٍ في "المُجتمَع النّباتِي".. أَمضَينا معًا طفُولةً ذاتَ ذكرياتٍ لا تُنسَى.. وكانت لنا نِقاشاتٌ في التّنوّع النباتِي، وفي جاذبيةِ الطبيعة.. وبقِينا على تَواصُلِ بالزياراتِ والهاتف، إلى أن أخَذَه اللهُ إليه..

كُنّا نتَأهّبُ لتأسيسِ جمعية، كِي تكونَ فِي خدمةِ قَريتِنا الجميلة.. ومنَ الأسماءِ المتحمّسة: "أحمد الفاضِلي" - ولد السّي إبراهيم - وأسماءُ أخرى...
ثمّ وقَعَت مفاجأةٌ إيجابيّة..
قريةُ "رأس جِيرّي" أصبحَ لها وزيرٌ غيرُ مُتحزّب.. إنهُ "د. إدريس أوعْوِيشَة"، من أبناء التعليمِ العُمومي لهذه المِنطَقَة.. كُنَّا معا فِي قسم واحد.. له تكوينٌ على أعلَى مُستوَى، عميدٌ للجامعة فِي مكناس، ثُمّ عُيّنَ رئيسًا لجامعة الأَخَوَيْن...
إنه من أكبرِ كفاءاتِ مَدرسَةِ "رأسِ جِيرّي"، خُصوصًا، والباديةِ المغربية بصفةٍ عامّة..
وقائمةُ المَهاراتِ فِي قَريَتِنا تَكبُرُ وتتّسِع.. ومعَها يَكبُرُ حُلمُ التّنمِيّة..

قَطفُ العِنَب!

كُلَّ عُطلةِ صَيف بقريتنا، نكُونُ على مَوعِدٍ مع ضَيعاتِ العِنَب..
العِنَبُ المغربِي في صِيانةٍ وتدبيرٍ منَ المُعمّرين الفرنسيّين.. وبعدَ رحيلِ المُعمّرين، سُلّمَت تلك الضّيعاتُ لمغاربة في سياق المَغْرَبَة..
في زمن الاستعمار، كانت الضّيعاتُ تُشغّلُ آلافَ العُمالِ المَوسِميّين، نساءًا ورِجالاً.. وبعد أن تسَلّمَها مَسؤولون مَغاربة، أصبَحَت لا تُشغّلُ إلا كَمشةً من الناس..
انتهَى التشغيل، وبدأت مَرحلةُ الصّيد..
انتهى تشغيلُ الآلاف في كل ضيعةٍ موسمية، وبدأ استغلالُ تلك الضيعات، من قبلِ وُجهاءِ البلد..
وأكثرُ الضّيعات مُنغلِقةٌ على نفسِها..
الاستعمارُ لم يكُن يخدمُ بلدَنا..
ومن أخذُوا مكانَه، هُم أيضا لم يخدموا هذا البلد، بل يخدمُون أنفُسَهم .المعمرون الفرنسيون استولوا على الأراضي الفلاحية، استغلّوها، ولكن شَغّلُوا الناس..
وفي مَوسِمِ جَني العِنَب، كان الجميعُ يَشتَغلُون..
يستفيدُون بالتّغذيةِ من حُبوب العِنب، ومن قُضبان العِنَب "الدّاليّة"، قصدَ التّدفئةِ واستخدامِها في الطبخِ بأفرانِنا التّقليدية..
وأنا وأخِي حَمّادِي، نتفَرّغُ للعَمل..
نشتغل مقابل درهمين في اليوم..
نحنُ في سباقٍ مع مَن يَشتَغلون أحسَن..
واكتَسبتُ درايةً في كيفية قطفِ العِنَب وتجميعِه..
وهذا الصّيف، عيّنونِي في مَصنَع الخمُور بضَيعَةِ "خْوَان"..
ومُهمتِي أنا و"ولد بن علاّل": تَصفيةُ عصيرِ العِنَب، وإيصالِ العصيرِ عبر قناةٍ إلى حوضٍ فيه تُوضَعُ بَعضُ الموادّ، ويصيرُ خَمرًا..
وهذا العمل، ونحن من الأطفال، يَجعلُنا آخرَ من يُغادرُ مَصنَع الخُمور..
وقبل أن نغسِلَ يديْنا ونَهُمُّ بالمُغادرة، كُنّا معا - ونحن طِفلان - نتَبَوّلُ على قناةِ عصيرِ العِنَب..

كان ذلك أُسلُوبَنا في التّعبيرِ عن رفضِ الخَمر، ومن يَصنَعُونه، ومن يُوزّعونه، ومن يَبِعُيونه، ومَن يَشرَبُونه...
وهذا ما سمِعناهُ من فقيهِ مَسجِدِ "رأس جِيرّي"..
وكان يُردّدُ أن ما يقولُ هو الإسلامُ الصّحيح.. ونحنُ أطفالٌ لا نُفرّق بين الصّحيحِ والخطأ..
لقد كُنّا في حالةِ الضرورة..
مُضطرّينَ للعَملِ في العِنُب، وحتى في تَعصيرِ العِنَب..
بهذا العمل، حتى ونحن أطفال، نَحصلُ على بعضِ المال، ونُساهمُ في تسديدِ العجزِ في ميزانيةِ الأسرة..
كنتُ أكرهُ هذا العمل، ولكن، ما حيلتِي؟ وأنا مُجبَرٌ على النّهوضِ فجرًا، ومُرافقةِ أبناءِ الجيران، لكِي نتوَجّه مَعًا إلى إحدى الضّيعات الفرنسية للعملِ في قَطفِ العِنَب..
وللعِنَبِ نُكهةٌ خاصةٌ في هذه المِنطقة.. إنه أهمُّ منتُوج فلاحِي هناك، تَستفيدُ منْهُ كلُّ الأُسَر..
وفي نهاية النهار، يَغضّ المُعمِّرُون أبصارَهُم عن العاملاتِ والعاملينَ وهُم يأخذُون معهُم إلى بيُوتِهم كمياتٍ من العِنب، من أجل التّغذية..
ويعُودون غدا إلى العمل..
والعملُ تنظيم: اثنان في كلّ خطّ..
وينطلقُ قطفُ العِنَب..
والشاحناتُ تتناوَبُ على نقل العِنَبِ إلى مَعمَلِ "آيَت سْوَالاَ"، بضاحيةِ مَكناس، لصناعة الخُمُور..
وتطُولُ الساعات..
وأنا مع طِفل آخَر، نُشكّلُ اثنيْنِ في الخَطّ..
وعلى العموم، نتَنافَسُ، كلٌّ من جانبِه: شُجَيْرةٌ يقطِفُها هُو.. وشُجَيْرةٌ أقطِفُها أنا..
والطريقةُ هكذا: أحدُنا يقطفُ شُجَيْرةً، ويقفزُ على أخرى..
كلٌّ وحَظّه.. قد يجدُ أحدُنا شُجَيْرةً ملآنة، وبعدَها أخرى خفيفة..
وهكذا أقطفُ أنا - مثلاً - الواحدة والثالثة والخامسة..
وهو يقطفُ الثانية والرابعة والسادسة، وهكذا...
إنهُ العدلُ: اقتسامُ التّعَب بالتّساوِي.. فإذا كان خطُّ العِنبِ فيه ألفانِ من الأشجار،

فإنّ كلّ واحدٍ منّا يَقطفُ عناقِدَ ألفٍ فقط..
وكلُّ الشُّجَيْرات تَدخُلُ الحساب، حتى تلك التي ليس فيها عِنَب..
ويا فرحةَ من يَسبقُ إلى نهايةِ الصّفّ... إنهً يَفُوزُ بدَقائقَ للاستِراحة، بانتظار أن يلتحقَ به مُنافسُه..
إنه يستريـحُ قبلَ أن يُواصلَ العَملَ في خطّ مُوَالٍ....
ومَن لا يستطيعُ المُنافَسة، بهذه الطريقة، قد يفقدُ عمَلَه.. إنه مَبدأٌ معروفٌ في ضيعاتِ "رأس جِيرّي"..
وقد كنتُ أتحمّلُ مَشقّةَ هذا العمل بصُعوبة..
لكنّني حاولتُ دائمًا تَحاشِي ارتِكابِ ما قد يُسبّبُ طردي من العمل..
ولم يكُن الطردُ في حدّ ذاتِه يُقلقُني..
ما كان يُقلقُنِي، بل ويُخيفُني، هو أن يُقالَ إنّ ابنَ فُلان قد طُردَ من العَمل، وأصبحَ أُضحوكةً من قِبَلِ أقرانِه في قريةِ "رأس جِيرّي"..

تلميذٌ وزِير

هذا فَصلُ الصيف..
فصلُ الأعراسِ والسّهرات..
جاءَ عِندَنا "مَغدَاد".. هو ابنُ صهرِ "عمّي عبد الله" الذي داسَهُ مُعَمِّرٌ فرنسِي بجِوارِ المدرسة..
عريسٌ من الأُسرَة، طلبَ منّي أن أكُونَ وزيرَه..
قبِلتُ أن أكُونَ وزيرًا في عُرسٍ عائلي..
وقِيلَ لي، وأنا تِلميذ: "دَورِي هو أن أساعِدَ العَرِيس، وأكُونَ إلى جوارِه في تحرُّكاته من مكانٍ لآخَر، أثناءَ حفلِ العُرس..
وفي مَورُوثِنا التّقليدي ، لكُلّ عريسٍ وَزير..
- وفيما بَعد، فهِمتُ أن الوزير في أعراسِنا، نُسخةٌ مُصغّرةٌ من الوزيرِ في عالَمِ الكِبار..
وعندما كَبُرتُ، سمِعتُ من أشخاصٍ في عالمِ السِياسة بطنجة، أنّه تمّ اختيارِي لأكُونَ - عام 1998 - وزيرًا للإعلام..
ولا آخذُ هذا الخبرَ مأخذَ الجِد..
كلامٌ كثيرٌ يتردّد، وبعشوائيةٍ ولامَسؤولية..
لا أراها إلاّ إشاعةً كاذِبة..
والمُهمّ ليس الخبَر في حدّ ذاتِه، بل استِخدامُ تعبيرِ "الوزير"، لكي يُرافِقَ المُواطِنَ من الطّفولَة، وفي الأعراس، إلى مسؤوليةٍ تدبيريةٍ فيما بَعد..
وكانت الأعراسُ في قريتِنا مَدرسةً لتعليمِ الناشئةِ كيفيةَ التّدرُّج إلى أعلى، وتحديدًا إلى مُستوَياتِ المسؤولية الانتخابية..
وفي مِخيالنا الاجتِماعي، وحِكاياتِنا الشّعبية، وأَحاجِينا، تعابيرُ تُرافِقُ العُمرَ من الطفولةِ إلى استِخدامٍ فِعلَي، في إدارةِ شُؤونِ الأسرة..
إنه الوعيُ المِخيالي يتَدرّجُ في العُمر، من اللُّعبَةِ الطّفوليةِ إلى النُّضجِ وتحمُّلِ المسؤولية..
وهذا دورُ تربيّتِنا المُجتَمعية التي كان هدفُها: التّنشئة على المسؤولية ..
وهذه قراءتي لطفولةِ الأعراس..

وكان يستهويني حضورُ الأعراس القريبةِ من كُوخنا، مع بعضِ رفاقِي التلاميذ.. هذه مُناسبةٌ لتَفسِيرِ الأعراسِ بطريقةِ الأطفال..
والعُرسُ يَمتدُّ طيلةَ الليلةِ الأخِيرة: ليلةِ زفِّ العَرُوسِ إلى العَرِيس..
ليلةٌ زاخِرةٌ بالأهازيـج والرّقصَاتِ الشّعبيّة..
ليلة من الفرَح.. ويَنتهِي العُرس..
وتَبدأ المسؤولية..

سَهرَاتُ التِّبْن

الصّيفُ لا يخلُو من سَهراتٍ مع بعضِ التّلاميذ، وخاصّةً في الليالِي المُقمِرة..
نلتَقِي عند "ولد أوكَنزَة"، ومَنزلُه بجِوارِ كُوخِنا، ونَذهَبُ سَوِيّةً إلى ما يُسمَّى "النّادَر" بالدّارِجة، أو "أَثمُون" بالرّيفيّة، وهو ما تمّ تجفِيفُه وتجمِيعُه ودَرسُه مِن سِيقانِ القَمحِ والشّعير، ثُمّ تَخزِينُه في كُتلةٍ تَبنِيّةٍ واحِدة، بجِوارِ المَنزِل، من أجلِ أعلافٍ خاصةٍ بالماشيّة..
وأغلبُ سُكان القرية يأتون بالتِّبنِ من حقُولِ الحبُوب التي يكونُ المُعمِّرُون قد حَصَدُوها بآلاتِهِم.. ويأتُون بالتِّبنِ لاستِخدامِها أعلافًا للمَواشي..
وسُكّانٌ آخَرُون يُفضّلون تجميعَ أغصان شُجَيراتِ العِنب، من أجلِ الطّبخ..
وطيلةَ الليل، وتحت أضواء القَمَر، نَتبادلُ نحنُ التلاميذُ الجيران، آخِرَ الأخبَارِ والمَعلُوماتِ والأَحَاجِي..
وأحيانًا يطُولُ السّهَر..
ويَنامُ كلُّ واحدٍ مِنّا في مَكانِه على التّبن..
وعندما نَستَيقظُ، نجدُ الصباحَ قد طلَع..
وأبِي يَعرفُ مَكانِي.. فيُنادِيني..
ويقولُ لِي بصوتٍ مُرتفِع: لقد طَلعَ الفَجر.. لا تنسَ مَوعدَك اليومي مع الجَامِع.. ولا تنسَ "الأربَعِيّةَ" للفقِيه..
فأتَسلّلُ من التِّبْن، وأدخُلُ لكُوخِنا، وأصَلّي بسُرعة، ثمّ أذهَبُ إلى المَسجِد..
وفي المسجد نلتقي.. جُلُّ أبناءِ قريَتِنا مُواظِبُون على المَسجِد..
كلّ يومٍ يحفَظُون جُزءًا من القرآن..
وكلّ أربعاء، نتَناوَبُ على طَرقِ أبوابِ سُكّان القرية، طالِبينَ صدقةً للفقِيه، تُسمَّى عندنا "الأربَعيّة"..
ونُقدّمُ للفقيهِ حصيلةَ يومِ الأربعاء..
ثم ننطلقُ إلى المَدرَسة..
وعلاقتُنا بالمَسجدِ لا تنتَهي.. على مَدارِ السّنة، هي هكذا كلَّ يوم: المَسجِدُ ثم المَدرسة ثم الكوخ، والمُراجَعة..

وفي رَمضان، تبلغُ هذه العَلاقةُ أوجَها، وخاصّةً في "ليلةِ القَدر".. وهذه نُسمِّيها "ليلة 27"..
وطالما اعتَقَدنا أن في هذه الليلة بالذات، تُستَجابُ كلُّ الدّعوات: أبوابُ السماء تَنفتِح، فاطلُبْ ما شئتَ من "ربّ العالِمين"!
كان الآباءُ يأتُون بالعشاء، ويقضُون الليلةَ في الصّلاةِ بالمَسجِد.. ولكُلٍّ مِنهُم طَلباتُه..
ونحنُ التلاميذُ لنا طلباتُنا..
وفي كل مَوعدٍ مع السّماء، كنا نطلبُ ما نَتمنّى..
وقالَ لنا فقيهٌ ذات مرّة: "إنّ طلباتِ الأطفالِ مُستَجابة.. فلا تنسَوا أن تطلبُوا لي، أنا أيضًا، كُلَّ الخَير"!

الوشم

أختِي "ميمُونة" أكبرُ منّي سِنًا..

وقَبلَ أن أدخُلَ المَدرَسة، وتُقاربَ هِيَّ مَرحلةَ الخُطوبة، أخذَتنِي من يَدِي، ورافَقتُها إلى بابِ المَدرَسَة، قُبالةَ كُوخِنا..

هُناكَ كان شخصٌ يَضعُ وُشُومًا على وُجوهِ الطّفلات، مَشيًا على عادةِ الأمازيغ، في قريةِ "رأس جِيرّي.."

وأرسلَت الأمّهاتُ بناتِهنّ للتّناوُب على وَشمِ طِفلاتِهِنّ من قِبَلِ هذا الشخص.. وبعدَ الوَشم ببِضعةِ أشهُر، جاءت خاطبةُ أختِي لابنِها "مَزيان.."

المَعرُوفُ أنّ الوَشمَ إشارةٌ إلى بيتِ الزّواج!

والوشمُ عند الأمازيغِ رمزٌ للجمالِ والحِكمة، تَنقلُهُ الجدّاتُ لبناتِهِنّ جيلاً بعد آخر..

وإلى الآن، أختِي تَحمِلُ رسمَيْن وَشمِيّيْن في وجهِها، أحَدُهُما في جبهَتِها، بين عَينيْها، والآخَرُ في ذِقنِها..

الوَشمُ عند الأمازِيغ، رُسُومٌ تَزيِينيّة، وهُويّةٌ جماليةٌ مُتداوَلةٌ منذ قرُون في المغرب، وهِي اليوم في طريقِ الاندِثار.. الوَشمُ يتَراجعُ ليس فقط في المَغرب، بل في مُختلفِ دُولِ شمالِ إفريقيا..

محمد الخامس

20 غشت 1953: كنتُ في سِنّ الطفولة.. تلميذًا بِمدرسةِ "رأس جِيرّي" التي سَاهمَ والدِي في بنائها، قُبالةَ الكُوخِ الذي وُلِدتُ فيه أنا وإخوَتِي..

وأتذكّرُ الصّرخةَ الكُبرى، من أجلِ السّلطان محمد الخامس.. وفي المَساء، دَعاني والدي إلى مَجلسٍ للجِيران..
كلُّ الحاضِرين رِجال، وطفلٌ واحدٌ بينَهُم، هو أنا..
وأُطلِقَ الرّاديو: جِهازٌ صغير يُسمّونهُ "تْرانزِسْتُور"..
ومع هذه المجمُوعةِ من كبارِ قريتِنا، استَمَعتُ إلى "نِداءِ القاهِرة"، للزعِيم "عَلاّل الفاسِي"..
كنتُ صَغيرًا.. طِفلٌ يُركّزُ على حَدَثٍ كبير..
كلُّ الحُضُور في حالةِ توتّرٍ شديد..
وفي طريقِ العَودة، سألتُ والِدي: مَن هو مُحمد الخامس؟
قال: إنهُ مَلِكُنا...
وَشرحَ لي ما قال الزعيمُ المغربي على أمواجِ إذاعة "صوتِ العَرب" منَ القاهرة..
وفي الغد، كانت كُلُّ قريَتِنا في حالة اهتِزاز.. غاضِبة.. شديدة التّوتُّر..
ولم يَذهب والدِي كالعادةِ إلى السُّوق..
ولا حديثَ للنّاس إلاّ عن الجريمةِ الفرنسية.. جريمةِ نَفيِ السّلطانِ وأُسرتِه إلى جزيرة "مَدَغَشقَر"..
اقتَرَفَتها فرنسا، ونصّبَت "بَن عَرفة" على عرشِ المَملَكة..
وتَحرّك الجَيشُ الفَرَنسِي، في كلّ مكان..
ودَعَتني أُمّي للدّخولِ إلى كُوخِنا.. وقالت: العَسكرُ - وبلا شكّ - سوف يأتي إلى هُنا..
وهل نسيتَ يا بُنَيّ ذلك العَسكريَّ الفَرنسي الذي هدّدكَ ببُندُقيّتهِ في وقتٍ سابق؟
أجبتُها: لم أنسَ يا أمّي.. وقد فتّشَني.. فتّشَ حتى ما بداخلِ "قشّابتِي"..
واستَكمَلنا الحديثَ داخِلَ كُوخِنا..
وسألتُ أمّي: هل "محمد الخامس" هو ملكُنا نحنُ فقط؟
وابتَسَمَت: واللهِ يا ابنِي لا أفهَمُ ما تقُول..
وقُلتُ لأمّي: هل يُوجدُ الناسُ فقط عندَناَ، هُنا وفي مَكناس؟ أم هناك مكانٌ آخَر؟
وأُناسٌ آخَرُون؟ هل الملكُ هُو لنا وحدَنا، هُنا في "رأس جِيرّي"؟
وابتسَمَت أُمّي: واللهِ لا أفهَمُك..
وجاءَ صديقي "أحمد ولد السّي ابراهيم"، ونَحنُ أيضا لا كلامَ لنا إلاّ عن بَطلِنا محمد الخامس..

وأخبرَني أنّنا سنذهبُ غدا إلى المَدرسة..
وفي الغَد، كُنّا بجِوارِ المَدرسة..
وشخصٌ مَجهُولٌ أحاطَ نفسَهُ بمجموعةٍ من التلاميذ، ويَحكِي لهُم أنّ الطائرة التي نقَلت السّلطان، كانت ستَسقُط من السّماء، ولكنّ السلطانَ وَضعَ ببَرَكتِه مِنديلَه على الخَزّانِ، ففاضَ الخَزّانُ بالبترُول، وتمّ إنقاذُ الطائرة.. وقال صديقِي: هذه مُعجزة!
وبدأ الناسُ يَتدَاولُون بُطولةَ السُّلطانِ المَنفِيّ، مع وليِّ عهدِه وأفرادِ أُسرتِه، إلى جزِيرة "مَدَغَشقَر"..

السُّلطانُ في القَمَر

ما زلتُ صغِيرًا، ولكنّ الحَدثَ كبِير..
ذهبتُ إلى البَقّال "مُوحَا أوكَنزَة"، واشتَريتُ صُورةَ محمد الخامس، لكي أراهُ أنا والأسرةُ على سَطحِ القَمر..
كان في الصّورةِ لونٌ أحمَر..
وعندما كبُرتُ، عرفتُ أنّ الأحمرَ لا يَختفِي بمُجردِ رؤيتِه.. إنه يبقَى مُسجّلاً في الذّاكرةِ لبضعِ ثَوانٍ.. وهذه الثواني كافيةٌ لأن أرَى الصورةَ التي اشتريتُها.. ومُباشرةً بعد الرُّؤية، أرفعُ بصَرِي إلى القمَر في ليلةِ كمَالِه، فتَنتَقلُ الصّورةُ من ذِهنِي، وتظهرُ لي صورةُ محمد الخامس، مُنعَكِسةً على سَطح القمر..
كنتُ من تلاميذِ "رأسِ جيرّي" الذين شاهدُوا صورةَ السّلطان، مُنعكِسةً مِنَ الذّهنِ على البَدرِ المُكتمِل..
وعرَفتُ عندما كبُرتُ أنّ الصّورةَ خُدعةٌ بصَريّةٌ مُمتِعة، اقتنَع بها الناسُ لدرجة أنّ الفرنسيّين أنفُسَهُم تساءلوا إن كانت الصّورةُ حقيقةً أم إشاعة..
والجميعُ في قريَتِنا يَجِدُون في صُورةِ القَمر انعِكاسًا لمدَى التّشبّثِ الوطني بالسّلطانِ الذي يَحظَى بإجماعٍ شعبي، ويرى فيه الناسُ رمزًا فعّالاً للتّضحيةِ والفِداء، من أجلِ سلامةِ واستقلالِ المَغرب..
ودخلَت هذه الصورةُ السُّلطانيةُ التاريخَ الوَطنِي المُقاومِ للاستِعمار..
إنها فكرةٌ تبنّتها المُقاوَمةُ المَغربية، وحقّقت بها في كلّ البلادِ مزيدًا من الحماسِ الشعبيّ، في الكفاحِ مِنْ أجلِ الحُرّيةِ والاستِقلال..
وبعد المَنفَى، عادَت الأُسرةُ المَلكيّة، وعلى رأسِها السّلطانُ الشّرعِي محمد الخامِس إلى المَغربِ عودةَ الأبطال..

"عَمّي عبد الله"

كان "عَمِّي عبد الله" من رِجَالِ المُقاوَمة.. كان حارِسًا في ضَيعةِ "جانُو"..
الظروفُ كانت متوتّرة.. والمقاومة ضدّ الاستعمار قد بلغَت أوجَها.. فكَم من الضّيعاتِ أحرقها الوَطنيّون.. وكم مُعَمّرًا هُوجِمَ في عُقرِ دارِهِ وتمّ الاستيلاءُ على سِلاحِه..
وفي تلك الأيّامِ هُوجِمَت ضيعةُ "جانُو"، وكانَت لعمّي يدٌ في العمليّة..
وأقسمَ "جانُو" أن يَنتَقِمَ من "عَمِّي عبد الله".. في ذلك الوقت، كان عمّي يشتغلُ في ضيعة "خْوان"، بعدَ خُرُوجِه من ضَيعةِ "جانُو"..
وفي يومٍ صيفِيّ، خرَجنا من بابِ المَدرسة، فوَجَدنا عَمّي جُثّةً هامِدةً على حافة الطريق، وبجوارِها الدرّاجةُ التي يَركبُها عمّي إلى عمَلِه..
من قتَلَ "عَمِّي عبد الله"؟
يَحكِي شهودُ عيان أن القاتلَ هو صَهرُ "جانُو"، وقد داسَ عمّي بالشّاحنة، وأسقَطَهُ أرضًا، ثم عادَ بنفس الشاحِنة، فداسَهُ للمرّة الثانية، ولاذَ بالفِرار..
لقد كان مُديرُ مَدرَسَتِنا، الأستاذ الودغيري، قادمًا بسيارته، فتعَقّبَ أثَرَ سائقِ الشاحنة، وأوقفَه على بُعد بضعِ كيلومترات..
مات عَمِّي، وترك أثرًا كبيرا في نفسِي.. كانت الأيامُ مُكهرَبةً مُضطرِبة.. وأبي كجميعِ سُكّان "جِيرّي" لم يَشتَرِ كبشَ "عيد الأضحى"..
واشتَدّت المُقاومةُ المغربية..
وذاتَ يوم، كنّا نحنُ مَجموعةُ تلاميذ.. وفُوجِئْتُ بوَحَدةٍ عسكريةٍ تُوجّهُ صَوبَنا فَوهاتِ بنادِقِها..
أمَرَنا العَساكرُ برفعِ أيدِينا إلى فوقِ رؤُوسِنا..
رفَعنا الأيدِي.. وبدأ عسكريٌّ فرنسيّ يُفتّشُنا واحدًا واحِدًا..
ثمّ انصرَفَ العساكر.. ووَلّت الوَحَدَةُ من حيثُ أتَت..
ما زلتُ أحبّ عمّي كثيرًا..
فقد عاش معَنا.. وأتذَكّرُ يوم زفافِه..
وترَك طفليْنِ هاجرا فيما بعد إلى بلجيكا..

الاستِقلال والشُّورَى

1958: ما زِلتُ طفلاً..
والحِزبُ يَطرُقُ الأبوَاب..
السياسةُ تطغَى على قريتِنا..
ابنُ الجيران سلّمني وَرقة: "منَ الآن أنتَ عُضوٌ في "حزبِ الاستقلال".. لا أعرفُ إلاّ "الزعيم علال الفاسي" الذي شاهَدتُه في "سُوق سَبت جَحجُوح" على بُعد 9 كيلُومترات من قريتِنا، وقد كُنّا نَقطعُها مَشيًا على الأقدَام..
جمهورٌ فقير يُصفّق للزعيم..
وأتَذكّرُ أنّني صفّقتُ أيضًا..
وأحيانًا، أُبادرُ بالتّصفيق، فيَتبَعُني الناس..
لماذا يَتبَعُ الناسُ طفلاً يُصفّق..
وأنا بصراحة، كنتُ أصفّق، ولا أعرفُ السّبَب..
ولكنّني لم أنسَ للزّعيمِ "نداءَ القاهِرة" على أمواج "إذاعة صوتِ العرب"..
لم أنسَ له مَوقفًا إيجابيًّا، ضِدّ نَفيِ السّلطان محمد الخامس..
هذا مَوقفٌ تاريخي..
كان الناسُ يُطلقُون على الزّعيم: "علاّل الفاسي.. زعيمُنا سيّاسِي"..
وكان بجِوارنا مُحلّلٌ واحدٌ للأخبار: "مُوحْ تْرِيسِنْتِي" هو يَشرحُ لوالدِي، على مَائدة العَشاء، رأيَهُ في ما يَحدُث..
وعلى العُمومِ يكُونُ برُفقةِ زوجتِه "مَغنِيّة".. وهي ابنةُ خالةِ والدتِي.. كانتا تُعِدّان ما يُشرَبُ ويُؤكل..
و"مُوحْ تْرِيسِنْتِي" يَتكلّم مع أبي، ونحنُ الأطفالُ نَسمَع..
وعندما أسمَعُه، يبدُو لي - وأنا طفل - أنه على عِلمٍ تامّ بخَلفيّاتِ الأحداث، وكأنه هو قد حضرَ وشاركَ في الصّراعاتِ الخَفِيّة التي كانت تَحدُث..كنتُ أتصوّرُه من العفاريت.. ولا أعرفُ أنه بالعقل يستطيعُ فهمَ ما يقعُ في الخَفاء..
وفيما بعد، عندما دخلتُ عالمَ الصحافة، أدركتُ أن الأخبارَ تُفسَّر بالوقائع، وبالمَعلُومات.. وبالعقلِ والتّراكُم المَعرِفِي تُعطاها أبعادٌ قد لا تكونُ في مُتناول

الجميع..
إنّ جارَنا "مُوحْ تْرِيسِنْتِي" كان سابقًا لوَقتِه.. عَبقريّا في قراءةِ ما كان يقعُ حتى خلفَ الأخبارِ المُتداوَلة..
وكنتُ أرى فيه نمُوذجًا للدماغِ الفريدِ من نوعه..
إنه يُحدّثنا حتى عن الأسباب التي أحدَثت الوقائعَ التي كنّا نعِيشُها..
هذا المغربي الأمّي البسِيط، العامِل الفِلاحِي، كان عقلاً سياسيّا مُتحرّرًا نابضًا بالمَعرفة، قبلَ وبعدَ استِقلال المَغرب..
وكثيرًا ما كان يُنادِيني أنا وأخي "حمّادي" للاشتِغالِ معهُ في حُقولِ البطّيخِ والدّلاّح..
وما زِلنا نحنُ ذلك الجِيل، نَستَحضِرُ خُلاصةَ الصّراعاتِ التي وقعت عام 1958..
هذا تاريخٌ مَفصَلِيّ في مَطلعِ الاستِقلال:
وعدّةُ أحداث تتزاحَمُ في الذّاكِرة: "أُوفقِير" يُهاجِم الرّيف.. اختِطافاتٌ واعتِقالات وتعذيباتٌ في "دار المُقرِي" بالرباط و"دار بريشة" بتِطوان..
"حزبُ الإستقلال" يقُولُ بعد أكثرَ من 60 عامًا إنه برِيئ من أحداث الريف : 1958 وما بعدَها..
وأنا كنتُ طفلا، وأشاهِد في قريتي "رأس جِيرّي" كيف كان هذا الحزبُ يُلاحِقُ "حزبَ الشّورى والاستِقلال".. وكانت شِعاراتُ الاتّهام تتَردّد: "شُورِي! شُورِي!"..
ولا أعرفُ معنى كلمة "شُورِي"..
لقد كنتُ طفلاً.. لكنّني أعرفُ أنّ الاعتقالَ مَصيرُ كلّ مَن يُقالُ فيه إنه "شُورِي"..
كانت الاعتِقالاتُ كثيرةً في قَريَتِنا..
و"مُفتِينا" الوحيدُ هو "مُوحْ تْرِيسِنْتِي"..
والناسُ يَتبادَلون الأخبارَ سِرّا: من أُذُنٍ لأُذُن.. ومن أُسرةٍ لأُسرة.. وكلُّ القريةِ تتَسيّس..
ونحنُ لا نعرفُ الحَقائق، لكن الاختطافات قد وقَعَت.. وفي جيرانِنا من تمّ اختطافُهم ثم اعتقالُهم..
وكُنّا نحنُ التلاميذ نُفسّرَ الغَليانَ في "رأس جِيرّي" باعتبارِه ذا مَصدَرٍ واحِد: "فرنسا الاستِعمارية"..
لم نكُن نَفهَمُ في السياسة، لا من قريبٍ ولا بعيد، ولكنّ الواضِحَ أن صِراعًا علَنيًّا قد نشَبَ بين حِزبيْن: "الاستقلال" للزعيم "علال الفاسي".. و"الشُّورَى" لزعيمِه

"بلحَسَن الوزّاني"..
والحَساسِياتُ بين الطرَفيْن لم تتَوقّف إلى الآن..
والمؤرّخُون لهُم شُروحاتٌ حولَ أحداثِ بدايةِ الاستقلال.. أحداثٌ أثّرَت على مَسارِ مَغربِ الاستِقلال..
وزَرعَت بَذرةَ الشّقاقِ والانشِقاق..

إلى مَدرَسةِ المُعمّرّين!

رِحلتُنا نحنُ التلاميذُ كُنّا نتصوّرُها رحلةً للاستِقلال.. رحلةً لتحريرِ "مَدرَسةِ المُعمّرّين".. المَدرسةُ الفرنسيةُ ستكُون مَغربية..
غدًا نقطعُ الواد.. إلى مَدرَسةِ المُعمّرّين..
هذه الرّحلةُ لم تكُن تُشبِهُها إلاّ رحلةٌ إلى الاستِقلال..
هذه كانت رِحلتُنا من مَدرسة القرية إلى مدرسة الفرنسيين، ويَفصِلُ بينَهُما واحد.. وادٌ قد أعطَى اسمَه لأحدِ السكّأن.. اسمُهُ "حَضّاي الواد".. إنه حارسُ الواد.. يسكنُ بجواره، ويُطلّ عليه، ويعرفُ الصغيرةَ والكبيرةَ..
إنسانٌ مُحترَم، وابنُه الذي يَدرُسُ معنا اسمُه: "مُحمد بن مُحمّد"..
غدا نقطعُ الواد إلى مَدرَسةِ المُعمّرّين..
رحلةُ الاستقلال: هذا هو التّصوُّرُ المَحفورُ في ذاكرتِنا نحن تلاميذُ ذلك الوقت، في ذلك المكان..
هي المَدرسةُ الأولى والأكبرُ في "رأس جِيرّي"..
كانت تقفُ بجانبِها الدّبّاباتُ الفرنسيةُ لحِمايتِها..
تقعُ في أرضٍ شاسِعة، ولها الماءُ والكهرباءُ والمَراحيضُ العَصرية.. وفيها الأشجارُ والوُرودُ وكلُّ مظاهرِ الحداثة..
ووحدَهم التلاميذُ الفرنسيون يدرُسون بها، وإلى جانبِهِم أبناءُ العُملاءِ والشيوخ والمُقرّبين من السّلطات الفرنسية..
وهي مَحمِيّةٌ بالليلِ والنّهار..
أخبَرَنا المُعلّمُ أنَنا راحِلُونَ غدًا من مَدرَستِنا هذه، للانتِقالِ إلى المَدرسة الفرنسيةِ الكُبرى، هناك في طَلعةِ الطريق، عند مُفتَرَقِ الطُّرُق..
المُعّمّرُون لم يتَحمّلُوا أعمالَ المُقاومة، من تصفياتٍ وحرائقَ وأعمالٍ أخرى من الشّغَب، في "رأس جِيرّي"..
فقَرّرُوا ترحيلَ أطفالِهم إلى مَدينةِ مَكناس، بانتِظار ما ستؤولُ إليه الأحداث..
لقد أفرَغَ الفرنسيُّون مَدرَسَتَهُم، وسنكُونُ على مقاعِدِها بِدايةً من الغد..
أخبَرتُ أبي وأمّي..

وكِلاهُما عقّبا على الخبر، بأنّ هذا انهِزامٌ لفرنسا، وانتِصارٌ للمَغرب، وبأنّ في الأفُق أخبارًا أُخرَى مُهِمّة..
وفي الوقتِ المُحدّد، وقفَ التلاميذُ في الصّفّ، لاَبسِينَ أحسنَ ما عِندَهُم، ونَنتَظِرُ أن يُعطيّ مُعلّمُنا الانطلاقة..
وأنا لابسٌ قشّابتِي البيضاء، ولِي حِذاءٌ مطّاطيّ..
ومعنا في الصفّ كلُّ التلاميذ.. كلُّهم في حالةِ سرور..منهُم من أتوا من سُوق السبت، ومنهم أبناءُ ضيعة "خْوَان"، ومن جاؤوا من ضيعاتٍ أخرى بطريق مكناس، ومن أتوا من "سيدي بوعْمَر"، ومن جاؤوا من ضيعة "Dupont"، وآخرون من سوق الأحَد..
ونحن، أنا وأحمد "ولد السّي إبراهيم"، وبنعيسى، ووَلد "مُوحَا أوكَنزَة"، وبنت عبّاس، و"حمُّو عسُّو" ومامّا غنّو، لا نبعُدُ عن مدرسة الفرنسيّين التي سنَنتَقل إليها إلا بحوالي 10 دقائق، مشيًا عل الأقدام..
وباقي التلاميذ يَبعُدُون عنها بمسافة كيلومتر واحد إلى 10 كيلومترات..
كان في الصفّ أيضا إدريس دَنوَاج، وهو أستاذ، وعبد السلام تشاح، وهو أُستَاذ جامِعي، وأسماءُ أخرى منها خبيرٌ مالي، وضابِطٌ رفيع، وكفاءاتٌ أُخرى عاليّة...
ومن خِرّيجِي مَدرسةِ "رأس جِيرّي"، "إدريس أُوعْوِيشَة" الذي أصبح وزيرا.
وَصَلَ مُعلّمُنا، وأعطَى للصّفّ الانطِلاقة..
تَحرّكنا باتّجاهِ مَدرسةِ المُعمِّرِينَ الفِرنسيّين..
بعد 10 دقائق، سنكُون هناك..
ونؤدّي نشيد: "مَغربُنا وطَنُنا رُوحِي فِداهُ"....
ونحنُ الآنَ في الطريق..
نُحسّ نحنُ التلاميذ، أنّنا انتَصَرنا على الاستِعمار..
وفي حماسٍ وَطني، كانت طلعتُنا إلى المَدرسةِ الجديدة..
وجميعُنا في فرحةٍ كُبرى..
كأنّ هذا يومُ عيد.. عيدُ الانتقال من مدرسة الفُقراء إلى مَدرسة المُعمّرينَ الفرنسيّين..
وها نحنُ نقتَرب من مَدرسةِ الفرنسيّين.. إنها هناك.. هي تَنتظِرُنا.. ودُخولُنا إليها له مَعنًى..

والمعنُى هو أن المغاربة قد انتصرُوا في معركةِ الاستقلال..
وقال المُعلّم: "في المَدرسةِ الجديدة، ستَتَعلّمُون الأناشِيدَ الوطنيّة"..
وها هيّ المَدرسةُ الفرنسيّة..
مَدرسةٌ واسعة، مُحاطةٌ ببُستانٍ وأشجَار..
وفي الحديقة مراحيضُ للبَنات، وأخرى للأولاد.. وبُستانٌ فسيحٌ للمُدير، الأستاذ الوَدغيري..
ولأول مرة نرى مِرحاضًا عَصريّا..
كلّنا أبناءُ الخَلاء، البادية الشاسعة، ومَن أراد أن يَقضِي أغراضَه، فالأرضُ واسِعة..
والأمرُ يَختلفُ بمَدرسة الفَرنسيّين..
ويَسبقُنا المُعلّمُ إلى القِسم، ثم يُعطينا إشارةَ الدُخول..
وها نحنُ في المدرسة الجديدة.. هذه مدرسةٌ حقيقية..
مَدرسةٌ بكُلّ المقاييس..
ومنذ ذلك الوقت، ونحنُ مواظبون على الأناشيدِ الوطنية.. أناشيدُ نُلقيها جماعةً في السّاحة، واقِفين باحترام...
هذا كلّ يوم.. كلّ يومٍ حصةٌ للأناشيد..
وقد حَفظنا أناشيدَ كثيرةً تُمجّد هَيبةَ "المملكة المغربية"..
وهكذا، نشعرُ بالرّوح الوطنية.. وبأنّنا جزءٌ فعالٌ في هذا الوَطن..

فَيَضانُ قريـة "كَرّامَان"

الطّريقُ مَقطُوعة.. أبي حاصَرتهُ الأمطارُ في قرية "كَرّامَان"، لدى عَودتِه من سُوقِها الأسبُوعي: "اثنيْن عَيْن عَزْمَا" الذي تَغيّرَ اسمُهُ إلى "خمِيس الصّفاصِف.."

فيضانُ الواد مَنَعَ أبي من مُواصلةِ طريقِ العودة إلى مَسْكَنِنَا في "رأس جِيرّي.."

وبِسبَبِ الفَيضَان، يستحيلُ المُرُورُ من "كَرّامَان" باتّجاهِ "رأس جِيرّي".. وقرّرَ ألاّ يَستكمِلَ الطريق.. أَوقَفَ أبِي حِمارَه.. وأنزَلَ الحُمُولة..

ثُمّ نصَبَ "قَيْطُونَه"، وهذا يعنِي بالعامّيّةِ المَغربية: خَيْمَةً صغيرةً بيضاء..

وقرّر أن يَبِيتَ هُنا.. في الخَلاء..

أشعَلَ قِنديلَ الكَبرِيت، وبدأ يستعِدُّ للنّوم..

وما هي إلا لحظات، حتى تَوقّفَ عندَه أحدُ سُكّانِ القرية.. الرّجُل تعرّفَ على أبي.. يعرفُه بحِمارِه وقَيْطُونِه: "مساءُ الخَير يا الْمَعَلَّم! ماذا تَفعلُ هُنا؟.."

أبي مَعرُوفٌ في كلّ الأسواقِ المُحاذيةِ لقريةِ "رأس جِيرّي".. إنّهُ لَحّام - بالعَربية - أو "كَوّايْ" - بالعامّية المغربية.. يقومُ بإصلاح الأواني المنزلية، بكَيِّهَا بِمادَّةٍ مَعدِنيّةٍ مُذابَةٍ تُسمَّى "اللّدُون" أو الرّصاص، حسب التعبير العامّي..

أَخبَرَهُ أبي أنّ الوادَ يَمنَعُه من مُواصلةِ طريقِ العَودة...

فانصرَفَ الرّجُل.. وبعدَ حوالي ساعة، عادَ مُحَمّلاً بوَجبةِ عَشاء..

رحّبَ الرّجُلُ من جديد بوالِدي..

وتحتَ أضواءِ القِنديل، تبادلاَ التّحيّةَ والتّقديرَ من جديد..

وأخذَ والدِي وجبةَ العشاء، وهي أُكلةٌ ساخنةٌ كان أحوجَ إليها في هذا الوقتِ الشّتوِيّ البارِد..

وشكَرَ الرَّجُلَ على كرَمِ الضيافة..

وفي الصباح، وبعد أن انتَهى فيضانُ الواد، استأنفَ أبِي طريقَه..

هذه الواقعةُ حكاها لي زوجُ أختي، وهو من أبناءِ "كَرّامَان".. وقالَ لي: "هكذا كان الناس يتعاونُون ويُساعِدُون بعضَهُم في أوقاتِ الشّدة.. إن الكرمَ جزءٌ أساسي من سلوكيات البادية."

وفي السّوقِ المُقبِل، التَقَى أبِي بنفسِ الشخص الكريم، وشاءت الأقدارُ أن تتَوَطّدَ العلاقاتُ بين أبِي وهذا الرّجُل، ويُعلِنَ أبِي - فيما بعد - تزويـجَ أُختي "ميمُونة" إلى "مَزيَان" ابنِ "كَرّامَان" ثم زواجَ شقيقِ زوجتِي من إحدى بناتِ هذه القَريَة..

ومِن هذه المُصاهَرة بين قريتيْ "كَرّامَان" و"رأس جِيرّي"، تمّ إنجابُ أجيالٍ من الشبابِ الأكفاءِ في داخلِ البلادِ وخارِجِها..

وبعدَها، رحلَت أُختِي مع زوجها إلى مدينة مَكناس..

وشاءت الأقدارُ أن تكون أُختي "ميمُونة" وزوجُها "مَزيَان" أكبر مُعينٍ لي في وقتٍ لاحِقٍ بهذه المدينة..

إنهُ القَدَرُ يُهيّئُ مُلتقياتٍ وظُرُوفًا للتّعارُف والتّقارُبِ والتّصاهُر وإنتاجِ ظُرُوفِ حياةٍ جديدة..

الحَصِير!

منذُ فتَحنا أعيُنَنا، أنا وإخوتي، ونحنُ لا ننَامُ إلاّ علَى الحَصِير..
ونحنُ مثلَ بناتِ وأبناءِ "رأس جِيرّي"، كلُّنا لم ننَم ولم نَستيقظ إلاّ على حَصير..
الحصيرُ هو تاريخُنا الطفُولي...وعليه سَهَرنا، تحتَ أضواءِ الشّمعِ والكَبريت..
وعليه قرأنا، وحَفظنا الدّروس..
وجَداولَ الحِساب..
وسَمِعنا كثيرًا من الأحاجِي..
وإخوَتِي يَتبَادلُون على هذا الحصيرِ أخبارَ القرية..
كلُّ المعلُومات تُحكَى هُنا على الحَصير..
وإذا كان لأحدِنا شِكاية، فهي الأُخرى هُنا، تُحكَى على الحصير..
أمّا لُعَبُ القَفْزِ والضّرب والرّكلِ والتّنكِيتِ على الحَصير، فحَدّث ولا حرَج..
لقد شبِعنا اللّعِبَ على الحَصير..
ولُعبةُ الورَق، كنّا نلعبُها مع بناتِ وأبناء الأخوَالِ والأعوام، أمامَ أنظار أمّي وضَيفاتِها، وبحُضورِ كؤُوس الشّاي..
ولم نَعرِف على الحَصِير إلاّ المُراجعةَ واللّعب..
ولم يكُن اللعبُ الحَصِيري مَضيعةً للوَقت..
وعندما كبُرنا، أدرَكنا أنّ اللعبَ على الحصير، له فوائدُ كثيرة، منها حُسنُ نُمُوّ الطّفل، وجَعله يُحرّك عَضلاته، ويَقومُ بتنشيطِ قُدُراتِه الإدراكية، وكذا البَصريّة، والحركاتِ المُختلِفة التي تَمنحُ الطّفل، حتى في مرحلة الرّضاعة، تحفيزاتٍ بصريةً وصوتيّة، إضافةً إلى التّسلية..
لقد علّمني الحَصِيرُ كيف أتفاعَل حتى مع خُشونةِ الحصير، وهو من ضروريات الحياةِ اليومية..
وبفضلِه فهِمتُ كيف أتعاملُ مع حركاتي وسَكناتِي، فوقَ الحَصير..
إنه خَشِن، ولكنه مُفيدٌ جدّا..

جلساتٌ مع نفسي

أقربُ ما إلى نفسِي هي نفسِي..
وكثيرا ما أجالسُها، أو أمشِي برُفقتِها.. أو أشكُو إلى نفسي.. ونفسي دومًا معي صريحة..
تقولُ لي كلَّ ما يجبُ أن يُقال..
لا التِفافٌ ولا افتِراء.. الحقيقةُ كما هي..
وكُلَّ يومٍ أجِدُني في نقاشٍ مع نفسِي..
أُناقشُ نفسِي حولَ نَفسِي.. وحَولَ الطبيعةِ والحياةِ ومُستقبَلِ الإنسانِ والحَيوَان، والنّحلِ والطيُور.. وأيُّ دورٍ للأرضِ والسماء؟
وهل الغَدُ نُسخةٌ من الحاضِر؟ وهل اليومُ من الغَد؟ وماذا بعد الحياة؟ وما هي الآخرة؟ هل نحنُ خالِدُون في طريقٍ مَحدُودةٍ بين المَوتِ والحياة؟
أفكارٌ كبيرةٌ يُناقشُها طفلٌ صغِير..
ولا تَستَطيعُ هذه الأفكارُ أن تتَحرّر أكثَر، مع مَسجدٍ مَحدُودٍ في الحلالِ والحرام، وفي مُدرسَة محدُودةٍ لا تفسحُ مجالاتِ ما فوقَها وما بعدَها..
وكانَ أبي يشتَري لي بعضَ الكُتُبِ الصغيرة..
كنتُ أبحثُ في تطوِيرِ نفسِي.. وتطويرِ ذاتِي..
ومع أُولَى القراءات، أُحاوِلُ أن أفهَم..
وكان المُعلّمُ يقُول: الفَهمُ لا يأتِي مِن تلقاءِ نفسِه.. يأتِي بعدَ القراءة.. لا قبلَ القراءة.. اِقرأْ أوّلاً، ثم ابحثْ عن الفَهم..
هذا رأيُ المُعلّم.. ولكن عندما أجلسُ إلى نفسي، أقُول: "الفَهمُ قد يأتِي قبلَ القِراءة.. فما هي القراءة؟
هي الاطّلاعُ على ما فهِمَه الآخَر..
وهذا منَ المَواضيع التي كانت تَستَهوِيني، وأنا طِفل..
لقد كنتُ واعيا منذ هذه الطفولة المُبكّرة أنّني أنا وأُسرتِي نَختلفُ عن غيرِنا من الناس..
وفي الشّكل: هؤلاء أغنيّاء، ونحنُ فُقرَاء..

وهؤلاء في الضّيعاتِ الفرنسية يَملكون من المال ما لا يُعدّ ولا يُحصَى..
لكنّ أمّي تُنَبّهُنِي إلى أنّنا نحنُ أبناءُ الجَنّة، وهُم ذاهبُون إلى النّار..
ولم أفهَم بدِقّة..
وبينَ الحينِ والآخر، تُنادِينِي أُمّي: "النّصارَى لهُم أموالُ الدّنيا، ونِيرانُ الآخِرة.. ونحنُ لنا حِرمانُ الدّنيا، ونِعمةُ الآخِرة"..
وأحيانا أُصدّقُ أمّي.. وأخرى لا أعرف..
هي تَعرفُ أنّ النّصارَى خُلقُوا لكي يكُونُوا أسيادَ الدّنيا، ونحنُ مَخلُوقُون كي نكُونَ في رياضِ الآخرة، في جَنّاتِ النّعيم..
وعندما أخلُو إلى نفسِي، تكُونُ إشكاليّة..
لا أجدُ ما يُقنِعُني بأنّ الدُّنيا لهُم، والآخرةَ لنا.. لماذا؟ وكيف تكُونُ الدّنيا لهُم؟
أسئلةٌ تتناسلُ ولا تتَوقّف...
وتُرافِقُني طيلةَ العُمر..
ولا تتَخلّى عن مُلاحقَتِي إلى أن أقتَنِع..
وآمَنتُ بالحياةِ بعد المَوت..
وإلى الآن، لا أجدُ ما يَنفِي استِمراريةَ الحياة، حتى بعدَ نهايةِ الجسَد..

زمنُ اللَّعب

من الابتِدائي أصعَدُ إلى الثّانوي..
وأكُونُ ثاني فوجٍ في "رأس جِيرّي" يحصُلُ على الشهادة الابتِدائية، ويَصِلُ إلى الثّانوي..
ولم أُكرّر أيةَ سَنة..
وقد قرأتُ كثيرا..وكتبتُ كثيرا.. ومزّقتُ كثير.. وضاعَ منّي الكثير..
ولَعِبتُ كثيرا..
وما مَلَكتُ من طاقةٍ بَدَنِيّة، بذلتُه قبلَ "عامِ الشهادة"..
ولولاَ مُتعةُ اللّعب، لنَشَأنا - أنا وإخوتِي - على طُفولةٍ غيرِ سويّة.. ولكنّ التّوازُن قد تَأكّد، بفضلِ تدَخّلِ اللعبِ المُنعِشِ في حياتي اليّومية..
وكلّ اللُّعَبِ البسِيطةِ التقليدية، من قفزٍ وسباقٍ ولَهوٍ ورياضات وغيرها، قد لَعِبنَاها فُرادَى وجماعاتٍ في "رأس جِيرّي".. لقد لَعِبنَا في الليلِ والنّهار، ونحنُ نمشِي ونركُضُ ونَسبَح...
وقد سبَحنا بمُتعةٍ في الواد..
أنا لم أُشاهدِ البحرَ إلاّ بعد سنوات.. عندما هاجرتُ إلى الرباط..
أما في "رأس جِيرّي" فلا وُجودَ إلاّ للوَاد.. وفي الوادِ نَسبَح.. وعندَ الاكتظاظ، نتَناوَبُ على السّباحة..
والسباحةُ للذّكورِ فقط.. لا للإناث..
الذكورُ وحدَهُم لهُم حقُّ السباحة..
والسباحةُ في "رأس جِيرّي" ذاتُ نُكهةٍ خاصّة، وتكُونُ أمام أنظارِ شخصٍ أطلقَ عليه السّكّانُ لقبَ "حَضّايْ الواد"، أي حارِس الواد..
هو يسكنُ بمُحاذاةٍ مع الواد، ويعرفُ كلّ شيءٍ عن الواد.. وعن حركةِ السّباحة..
وهذا الوادُ ما زال نشيطًا كما كان من قديم، ويحتفظُ ببصماتِ تاريخِ الهيَجان..
إنه ذاكرةُ "رأس جِيرّي"..
وفي تاريخه ذكرياتٌ مع الناس..
عندما يكونُ الوادُ هادئا، يتقاسمُ الهدُوءَ مع السّابِحين والمُتفرّجين..

وفي حالةِ الغَضب، يَجُرُّ معَهُ كلَّ مُعتَرِض..
وقد شاهدتُ في طفولتي بعضَ حالاتِ الغضب..
ولنا مع الوادِ ذكرياتٌ ثُنائيةٌ وجَماعية..
وأحيانًا نبيتُ عند بعضِنا، ونتبادلُ النُّكتَ والأحاجي، وأخبارَ فُلانةٍ وفُلان..
ونُغنّي، ونُردّد الأناشيد..
لم نُحرَم من حقّنا في اللعبِ الطّفولي..
ونشأنا نشاةً طبيعيّة..
وتَغلّبنا على تعقيداتِ الحياة..
ولا نأكلُ إلاّ عندما نجُوع.. عندما تدُقّ ساعةُ الأمعاء.. وقد علمتُ - فيما بعد - أنّ للبطنِ ذاكرة..
وتعلّمنا نحنُ الأطفالُ أن نصُومَ قبلَ الأوَان..
ونقضي ليلةَ القَدر ساهرينَ مع السماء..
ونحلُم بما قد تجودُ به أضواءُ السماء..

الشهادة الابتدائية

كان لي حماسٌ لمُراجعة الدروس..
أخبرتُ أبي وأمّي بعَدمِ الاشتغالِ في قَطفِ العِنَب، سوف أتَفرّغُ في الصيف لمُراجعة الدروس..

ووصَلَ الصيف.. هذه هي العُطلة..
نَنهضُ باكرا أنا وأخي حمّادي، ونتأبّطُ مِحفظَتيْنا، وفي كل مِحفظةٍ خبزٌ وقارُورةُ الشّاي، ثم نأخذُ الطريق..
"بَن عَلاّ" يَسكنُ خلفَ ضيعةِ "دِيبُو"، بعيدًا عنّا بحوالي 6 كيلومترات..
هذه المسافةُ نقطعُها برُفقةِ تلميذيْن..
وبهذا العدد، لم نكُن نخاف أن تَعترضَ طريقَنا الكلابُ الضّالّة..
وعندما كُنّا نمرّ بضيعةِ "دِيبُو"، نستغلّ الفُرصةَ لأخذِ بعض عناقيدِ العِنَب، لكي نلتَهِمَها قبلَ أن يظهرَ حارسُ العِنَب..
كان لا بُدَّ من اتّقاء شرِّ الحارِس.. فهو يتأبّط دائمًا هراوة.. وإذا ألقى القبضَ على شخصٍ في حالةِ تَلَبُّس، يذهبُ بهِ إلى "دِيبُو" الذي ينادي رجالَ الدّرَك، وهؤلاء يُدخِلونه إلى السّجن..
وهكذا كان القانونُ في ذلك الوقت: السجنُ لمن يسرِقُون العِنَب..
ولكنّنا نحنُ نعرفُ أنّ "دِيبُو" لا يفعلُ هذا، وخاصةً مع التلاميذ..
ومع ذلك، كنّا نأخذُ الحيطةَ والحذَر: نقطفُ العُنقُودَ بسُرعة، ونجعلُه مُباشرةً يستقيمُ بين أسنانِنا..
إنه استِهلاكٌ سريع..
من شجرةِ العِنَبِ إلى الفَمِ مُباشَرَةً وبلا تضييعٍ للوقت..
ولم يسبق أن باغَتَنا الحارِس..
ولستُ أنسَى عِنَبَ "دِيبُو".. إنه من النوعِ المُمتاز.. ولم نكُن نُفرّقُ في التهامه بين الصباحِ والمساء.. المُهمُّ هو أن تصلَ إليه أيدينا بسُرعة، وأن يصلَ العنقودُ إلى بطونِنا الفارغة، بأسرع ما يُمكن..
ولدَى وُصولنا إلى دار "بَن عَلاّ"، يَخرجُ "مُعلّمُنا التلميذُ" مُتحمّسًا، وتبدأ حصّةُ الدّرس..

خلال العُطلة الصيفية، درستُ مُقرّرَ الشهادةِ الابتِدائي..
وبدَأَت السنةُ الدراسيةُ الجديدة..
أبدى المُعلّمُ ارتياحَهُ لمُواظبتِنا على المُراجعةِ الصّيفية..
في قسمِ "الشهادةِ الابتِدائية" كُنا 7 تلاميذ وبِنتيْن.. المجمُوع: 9 تلاميذ في القِسم..
كلّ التلميذات والتلاميذ مواظبون على حُضورِ الدّروس.. حماسُ التلاميذ يَكتملُ بحماسِ مُعلّمِ العربية، ومُعلّم الفرنسية..
والمُنافسةُ في "رأس جِيرّي" قويةٌ بين تلاميذِ الشهادة الابتدائية..
هذا ثاني فوجٍ يتخرّجُ ابتِدائيًّا في عهد الاستِقلال، بهذه القرية الجميلة..
نَجَحتُ والتَحقتُ بثَانويةِ مَولاَي إسماعيل، بمدينة مَكناس..
لتَبدأُ مَرحلةٌ جديدة..

ثانويـةُ مَـكـناس!

حان وقتُ الرّحِيل..
وعليّ أن أُغادرَ "رأس جِيرّي" وأعِيشَ في مدينة "مكناس".. والمُقامُ هناك يتطلّبُ مَصاريفَ إضافيةً لا يتَحمّلُها أبي..
أبي لا يتحمّلُ مصاريفَ فتح منزلٍ آخر..
نحنُ أسرة بسيطةٌ محدُودةُ الدّخل..
في مطلعِ الستّينات 1960 : أنا مُسجّلٌ في "ثانوية مولاي إسماعيل"، أكبرِ ثانوية بالقارّة الإفريقية، ثانويةٌ فاخِرة.. فيها كلُّ مُقوّماتِ التعليمِ العصري..
يَدرس بها المَغاربة من كل الطّبقاتِ الاجتِماعية.. مسلمون ويهُود.. وأيضا فرنسيّون وجِنسياتٌ أُخرى..
ثانويةٌ عندما دَخلتُها شَعرتُ بالفارِق بين حالتِي الاجتماعيةِ البسيطة، وحالةِ بنات وأبناء الفرنسيّين ووُجهاءَ مغاربة...
رفيقُنا "حمّو عَسّو" مَحظُوظ.. حَصلَ على غُرفةٍ في داخليّةِ الثانوية.. وتمَكّنَ من مُتَابعةِ الدّروس في ظروفٍ عادية..
وأنا، لا داخِليّة.. ولا مَوارِد..
وأبي لا قُدرةَ له على توزيـع مَدخولِه البسيط بين كُوخنا في "رأس جيرّي"، وبيتٍ في المدينة..
هذه عرقلةٌ ماليةٌ في طريقِ أبي، ولا يَستطيع تجاوُزَها..
وتَستحِيلُ الدّراسةُ في هذه الظّروف الصّعبة..
أخذَني والدي إلى واحدٍ من أقاربِنا في "بُرج مولاي عُمَر"، وهو حيٌّ صَفِيحِي بمدينةِ مكناس.. لكن ظُروفَه لم تَسمَح باستضافتِي خلال الدراسة الثانوية..
وها أنا منذ الانطلاقةِ أمام بابٍ مَسدُود..
وتستحيلُ الدراسةُ في هذه الظروفِ البئيسة..
ثم أخَذني أبي إلى سيّدةٍ عجُوزٍ من العائلة، في نفس الحيّ الصّفيحِي..وهذه السيّدةُ كانت مَعنا في كُوخِنا بقريةِ "رأس جِيرّي"، هي وابنتُها، لمُدّة عام، حيث كانتَا تَشتَغِلان بضَيعةٍ فرنسية، في مَوسمِ قطفِ العِنَب..

قَبِلَتني هذا السيدةُ الطيّبةُ هي وابنتُها المُسِنّةُ في كوخِها الصّفيحِي، لكي تَرُدّ بذلك جميلاً سابقًا إلى أبي وأمّي..
أمضَيتُ هناك حَوالي ثلاثة أشهُر..
لا ضَوء.. لا ماء.. لا نظافة.. لا تغذية كافيّة.. لا تبدِيل للّباس.. إنه البؤسُ الشديد..
ولدَى الدّخول إلى القِسم، في حِصّةِ أستاذةِ الجغرافيّة، نظرَت إليّ الأستاذةُ باشمِئزاز، وهي تَستَطلعُ حالتِي المَظهَريّة.. وحِذائي المُتّسِخ المَثقُوب..
وبعدَ "دقيقةِ صَمت"، والتّلاميذُ يَنظُرُون إليّ، وأنا صامِت، ويَنتَظِرُون..
خاطَبَتني الأستاذةُ جَهرًا، وبصَرامة: "لا تَعُد إلى هذا القِسم، إلاّ بحِذاءٍ جديد"..
جُملةٌ قصيرةٌ تَختَزلُ المسافةَ بيني وبين بقيةِ التلاميذ.. واضِحٌ أن الأستاذة لم تُشاهد تلميذا يَنتمِي لأزمنةٍ غابِرة، وأنها هي ليست مُرتاحةً لوُجودي في هذا القسم..
وقُلتُ في نفسي: "حتى أنا لستُ مُرتاحا هُنا.. وهذا ليس مكاني"..
وخرَجتُ من القِسم، مُطأطَأً الرّأس، وكأنّني اقتَرفتُ جريمةَ الانتماءِ إلى فئة مُعوِزة، ثم واصَلت الأستاذةُ حِصّتَها مع بقيّةِ التّلاميذ..
كنتُ الوحيدَ الذي أَوقَفتهُ الأستاذةُ بسببِ الحِذاءِ العَفِنِ المَثقُوب.. حذاءٌ ليس لائقًا للدراسةِ في ثانويةٍ مُعَدّةٍ أساسًا لطبقةٍ عالية..
ومنذ ذلك الوقت، لم ألتَقِ تلك الأستاذة..
وقد كنتُ أتمنّى أن ألتَقِيها، لعلّها تَرى فيّ ما لا تَرَى في حِذائي..
لكنّ الحِذاءَ المَثقُوبَ قد انتَصَر..
كرّرتُ السنةَ الدراسية.. وفي العام الثاني، نقلُونِي إلى ثانوية "بْوِيمِيرُو"، ونجَحتُ بصُعوبة..
ثمّ سَقَطتُ في السّنة الموالية.. وكرّرتُ السّنة..
وبصُعُوبة، وَصَلتُ إلى شَهادة "Brevet"..
وقد تنقّلتُ بين أربعِ ثانويّات قبلَ أن أصِلَ إلى مُستوَى   "Brevet"..
ويا عجَبًا! في "رأس جِيرّي" كنتُ من ألمَعِ التّلاميذ.. ومِن أسعَدِهم.. أما هُنا، فأنا مِن مُتخَلّفيهِم، وأردئِهم !

أختِـي "ميمُونةَ"

تزوجت أختِي "ميمُونة" بالرَّجُل الطيّبُ الخَلُوق "مَزيان".. إنهُ يَشتَغلُ في مَعملِ "مولاي مسعُود" بحيّ "سيدِي سعيد"، في مدينة مكناس..
أُختِي تَسكُنُ بِجوارِ ذلك الحَيّ، هي وزَوجُها وبناتُها وأبناؤُها..
مَشاعرُ الأُختِ مِن مَشاعِرِ الأمُومة..
ويوميّا، مِن مَنزِلها أخرُج.. وإلى مَنزِلها أعُود..
وأمُرُّ من شارع "برِّيمَة"، وأنا ماشٍ على قَدمَيّ باتّجاه الخِزانة العامّة، مُتأبّطًا كتُبًا، واعودُ في المساءِ مُتأبّطًا كُتُبًا أخرى علَيّ أن أقرأَها في وقتٍ لاحِق.. وأتهيّأ لمُواجهةِ عالَمِي الخاصّ الذي أقَمتُه لنفسِي..
وأُختِي أكبرَ مُشجّعٍ لِي على القِراءة..
وهِي نفسُها لم تتَعلّم القِراءةَ والكِتابةَ إلاّ بعدَ أن أصبحَت جَدّة..
وأنشَأَت أُسرَةً صالِحة..
وَصارَت تَحكِي لِي ما هيّ تَقرَأ..
وتُعلّمُ أحفادَها القِراءة، وتقُولُ إنّ المَعرِفَةَ طريقٌ إلى النّجاح..
ورغمَ مُعاناتِي، لم أُطلِعْها على حِدّةِ ما أُعانِي..
وما زالَت أختِي "مَيمُونَة" إلى الآن مَهوُوسةً بالقِراءة..
وبَيتُ أختِي مَفتُوحٌ لكلّ أفرادِ الأُسرة..
لقد تعلّمتُ من أبِي وأمّي، وأيضًا من "عمّتي فاطِمة"، ومِن أختِي وزَوجِها، ثمّ من شريكةِ حياتِي، كيف يكُونُ التّعاوُنُ والتّآزُر.. وكيفَ تَكُونُ العلاقاتُ الصادِقةُ مَصدرًا للأمانةِ المُثمِرة..
وها هو الصّيفُ يَقتَرب..
ولا يُمكِنُ أن أبقَى بدُونِ شُغل..

التعليمُ الذاتي

اقتَنعتُ أنّني لم أُولَد لهذا التّعليمِ الطّبَقِي..
أخبَرتُ والدِي بما حَصَل..
وماذا بحوزتِه غيرَ أن يَتَألّم؟
وقرّرتُ أن أعلّمَ نفسِي بنَفسِي..
وأتَظاهَرُ بالذّهابِ إلى الثّانوية، لكنّني آخُذُ طريقًا أُخرَى: "خزانة الجَامعِ الكبير"..
وواظَبتُ على هذه المَكتَبة..
صِرتُ أستَعيرُ كلّ مرّة ثلاثةَ كُتُب.. وأقرأُها، ثم أُعِيدُها.. وأستعِيرُ ثلاثةً أخرى...
عَشراتُ الكتُب قَرَأتُها..
وفي هذا الوقت، كُنّا جماعةً منها "حميد الوالي"، و"إدريس الزمراني"، وأصدقاءُ آخَرون، نذهبُ معًا إلى "خِزانةِ الجَامعِ الكبير"، ونستَعِيرُ الكُتُب، ونقرأُها، ثم نتَحاورُ بشأنِ مَضمُونِ كلّ كتاب..
لقد واظَبْنَا على قراءةِ الكثير من الكُتُب، منها كتبُ "جبران خليل جبران"، و"لُطفِي المَنفَلُوطِي"...
ولا أنسَى مساءَ يومٍ ذهَبنا معًا لحضورِ ندوةٍ ثقافية، في شارع "رْوَامْزِين"، ودَعانِي "حميد" إلى المَنزل، وأَعَدّت لنا والدتُهُ وجبةَ عشاء، ثم سَهِرنا في نقاشاتٍ حول مَضمُونَ النّدوة، وكان يتَمَحوَرُ حولَ "مَكناس المُقاوَمة"..
كانت العاصِمةُ الإسماعيليةُ نمُوذَجا لنهضةٍ ثقافيةٍ وَطنيّة، وأيضًا نمُوذجًا للمُقاومة المغربية ضدّ الاستِعمارِ الفَرنسِي..
انتفاضاتٌ عرفتها المدينةُ ضدّ المُعمّرين الفرنسيّين الذين احتلّوا أراضي الضّواحِي المَكناسية، واستَخرجُوا منها ثرواتٍ كبيرةً لا تَنعكسُ على الحَياةِ اليومية المغربية..
ومِن الأحداث التي عَرفَتها المدينة، في إطارِ نهضتِها الثقافية، ندواتٌ فِكرية، وأنشطةٌ مَسرحيةٌ لمُساندةِ القضيةِ الفلسطِينية.. تُواكبُها أنشِطةٌ تُسانِدُ الجزائر التي كانت تُطالبُ باستِقلالها..
وكان "جبران خليل جبران" هو المُفَضّلُ عندِي، لُغةً وصياغةً وفكرًا..
لقد حَفظتُ بعضَ كُتُبِه.. وحسِبتُ أنّني أُشبِهُهُ نَفسانيّا..
أنا مِثلَه انعِزاليّ، وفي أوقاتٍ أجِدُني أقربَ إلى التّشاؤم.. وعلى العُموم، أكُونُ حزينًا..
حزينٌ وأبتَسمُ لهذه الكُتب..

وبعدَ شهُور، ذهبتُ إلى مُديرِ الثّانوية، الأستاذ "عبد العزيز بن عبد الجليل"، وأخبرتُه بقراري: "أنا مَخلوقٌ لكي أكُونَ كاتِبًا، وبصَراحَة: لا أجِدُ نفسِي في مُتابعةِ الدّراسة.. سوفَ أُدرّسُ نفسِي بنفسِي"..
تأمّلَني المُديرُ باندِهاش: "يا بُنيّ، عُدْ إلى الثّانويّة، ووَاظِبْ على دُروسِك، وسَوف تَنجَح.. أمّا أن تُغادرَ الدّراسة، فأنتَ بهذا تقضِي على مُستَقبَلِك"..
وشَكرتُ المُدير.... وأصرَرتُ على الانسِحاب.. والتفرّغِ للكِتابة..
وهذا المُديرُ هو نفسُه كان أُستَاذِي باللّغةِ العَربية، في "ثانوية مولاي إسماعيل" بمَكناس، خلالَ السّنةِ الأولى..
وقد نَشَرَ عدَداً منَ الكتب والدّراساتِ المُوسِيقيّة.. أحدها نُشر في سلسلة "عالم المعرفة" بعنوان "الموسيقى المغربية الأندلسية."
أستاذ.. مُثقّف.. طيّب.. فنّان..
وشاءَت الأقدارُ بعدَ عَشراتِ السّنين أن نَلتَقِي في مَكتبِ الإعلامي "خالد مشبال"، بإذاعة طنجة..
قدّمَنِي له الأستاذ خالِد..
وصارَ يمتدحُ طريقةَ تقديمِي لنشراتِ إذاعةِ ميدي1..
ثم شاءَت الأقدارُ أن نلتَقي مرةً أخرى في حافِلة مُتّجِهة إلى أكادير.. وجَلَسنا جَنبًا إلى جَنب.. وقال لي: "ما زِلتُ على رأيِي.. وإنّني كما قلتُ لك سابقًا، أرى أنك قد أخطأتَ في قرارِكَ الانسحابَ من الدّراسة"..
وهُنا أفتَحُ قَوسَيْن...
إنّ قرارِي القاضي بمُغادرةِ الدّراسة، قد أدّيتُ ثمنَهُ غاليًا..
كان قرارًا صعبًا، وكنتُ مُضطرّا لاتّخاذِه..
قرارٌ شخصِي لا يَعنِي التحريضَ على "مُغادرةِ الدّراسة"..
هذا غيرُ وارِد.. وأنصحُ كلَّ من يَستطِيعُ مُواجهةَ إشكاليةٍ دراسيّة، أن يُحاولَ عِلاجَها، حتى لا يُقاطِعَ الدّراسة..
وهذا ما حَرَصتُ عليه أثناءَ تَدرِيسِ أبنائي: التّعليمُ العُمومي مُهِمّ، ولكنهُ بحاجةٍ إلى إعادةِ نظَر، لكي يكُونَ مِثلَ القِطار، له سكّتان مُتوازيّتان: الشهادة والمَعرِفة..
ولا أنصحُ بمُقاطعةِ شَهاداتٍ لها قيمتُها ومَكانتُها..
إنّ الهدفَ مُزدَوِج: الشهادةُ مُهِمّة، والمِهنَةُ مُهِمّة..
وأنا اختَرتُ المِهنةَ التي أحبَبتُها.. وهي عندِي أَنسَبُ لظُرُوفِي..

وهذا قرَارِي.. قرارٌ شخصي.. مِنّي وإلِيَّ.. وأنا مَسؤولٌ عن نفسِي..
ومن حقّ أيّ إنسان أن يَختارَ ما يُناسبُه..
وليس ما يُناسبُنِي، يُناسِبُ غيرِي..
إنني أعرِفُ مَهاراتٍ في الدّاخلِ والخَارج، واجَهَت صُعُوبات، ونَجحَت في الحُصُول على شهادات، وعلى مَراتِبَ عُليا..
وفِئاتٌ أخرى قد نجَحَت بالاعتِمادِ على نفسِها، أو بفَضلِ حظٍّ كانَ في صالحِها..
والحُظُوظُ لا يُعتَمَدُ عليها دائمًا..
وأنا لم أعتَمِد على الحَظّ، ولا علَى الظّرُوف.. إنها مثلَ أحوالِ "الطقس" المُتقَلّبة..
ولا اعتمادَ على ما يَتقلّب..

إلى مدرسة الحياة !

يُقال: "سرُّ النّجاح هو الثّباتُ على الهَدف"، أي "استِمراريّة العَمل"، مع "عدمِ الاستِسلام للعراقِيل"..
هكذا يقولُ الفاهِمُون في التّنميةِ البشَرية..
وهكذا أنا أفهَمُها: الهَدَف = العمَل + عدَم الاستِسلام..
وأنا فَعَلتُ هذا بالضّبط: العمل + الإصرار..
ولا توقُّفَ إلاّ بتحقيق النتيجة الإيجابية المطلوبة..
أدركتُ أنّ قرارِي القاضِي بالانسِحابِ من الثانوية، ليس استِسلامًا للخُمُول، أو استجابةً للكَسَل، بل لأنّ الانسِحابَ ليس توقُّفًا تامًّا، بل فيه اختيارٌ آخَر.. التّوَقُّفُ ليس هدَفًا في ذاتِه، بل يَحتضنُ مَسلَكًا بديلاً.. والبديلُ هو استئنافُ الدراسةِ بطريقةٍ أُخرى..
لقد اختَرتُ ما يُعرَفُ بالتّعليمِ الذاتي، وهو أن أعلّمَ نفسِي بنفسِي..
وقد نَجَحتُ في هذا الاختِيار، لأنّني وَضعتُ له خُطّة بسيطةً واضِحة، هي الاشتغالُ لتحقيقِ مَوهِبَتي الصّحافية..
وهذه الرّؤية تعتمدُ ما كان عليه "التكوينُ الصّحافي" سابقًا: التّكوينُ المَيداني، داخِلَ الجرائد، بدَلَ التّعليمِ النّظامِي..
هذا كان قراري: سأتعلّمُ هذه المِهنة داخِلَ المُؤسّسات الصّحافية..
وإلى هذا، لا أستَطِيعُ مُواصَلةَ الدّراسة، لأنها تتَطلبُ إمكانياتٍ ماديةً لا تسمَحُ بها ظرُوفي..
وبمُوازاةٍ مع هذا الواقع، تستَحيلُ الاستِمرارية، لأنّني إذا استَمرَرتُ، لا أتفَوّق، لسبب بسيط هو أنّني غيرُ مُتحمّس.. وإذا تَفوّقتُ فبِمُعجِزَة.. والمُعجِزةُ لا تَخضَع لحِساباتٍ واقِعيّة.. المُعجزةُ حالةٌ يُمكنُ تَصوُّرُها، لا استِحضارُها عمليًّا، في حسابٍ واقِعي..
وهذا بدَا لي بوُضُوح، مِن خلالِ مُقارَنةٍ عمَليّةٍ بين ما هو مُتَاح وما ليس مُتاحًا..
إنّ ظُروفِي لم تكُن تَخضَعُ لتصوُّرٍ خيالي، من قبيلِ الحظّ أو حُدوثِ مُعجِزة، بل هي مُقارَنةٌ عَمليةٌ بينَ ما أستَطِيعُ وما لا أستَطِيع..

وهذا لم يَمنَعنِي منَ التّعامُل مع حالتِي بالوَاقِعيّة، وهي الانطلاقُ من النُّقطةِ التي أنا فيها حاليًّا، وتحدِيدُ الهدفِ الذي يجب أن أصِلَ إليه بناءًا على قُدُراتي..
وأنا اتّخذتُ قرارِي، بِناءًا على المُقارَنة بين المُشكلِ والحلّ..
وتأكدَ لي أنّني سَوفَ أنجَح، إذا حَدّدتُ هدَفِي، والسّقفَ الزمني لتحقيقِه، وما يجِبُ أن أقُوم به، وِفقَ برنامجٍ مضبُوط، وعملٍ دَؤُوبٍ لا يَتوقّف..
هذا هو اختيّارِي.. إنه إثباتُ أنّ نفسَ الهدفِ الذي يُمكنُ تحقيقُه بالتعليمِ النّظامي، يُمكنُ تحقيقُه بالتعليم الذّاتي.. وقد يكُونُ التعليمُ الذاتي أكثرَ تركيزا وجودةً وفَعاليّة.

حفّارُ الآبار

توسّط لي صديقٌ من المُواطِبِين على مَكتَبَةِ "الجامعِ الكبير"، لدى مسؤولٍ في "الأشغال العُمومية" بمدينة مكناس، فوجدَ لي عملاً مع "حفّارِي الآبار" بقرية بين مكناس وفاس..

وفي الغَد، في المَوعدِ المُحدّد، كنتُ راكبًا شاحنةً حدّدَها لي ذلكَ المسؤول، فأوصَلَني إلى وَرشةٍ سيُحفَرَ فيها بئرٌ في قريةٍ بين مكناس وفاس، لفائدةِ الساكنة..

والتقيتُ في الورشةِ شابّا من سنّي، وهو أيضًا من مَجانينِ "الخِزانةِ العامّة".. فضَحِكنا كثيرا.. وقال لي : "ستَكُون هذه تجربةً مُهمّة.. فهل أنتَ على استعدادٍ للعَملِ في حفرِ البئرِ الأول؟

فقُلتُ: "لم يسبق أن حَفرتُ بئرًا.. وهذه المرة، منكُم نَستفيد.."

وانطلَقنا نحفرُ بالمِعوَل..

وفي تلك الورشةِ حوالي 10 عُمّال..

عملي هو الحَفرُ فقط.. ووَضعُ التُّرابِ المَحفُور في إناءٍ فارِغٍ مربوطٍ إلى حبل، ثم إخبارُ شخصٍ في أعلى البِئر، وبصوتٍ مُرتَفِع، لكي يرفَعَ بالحبلِ الإناءَ المَملُوءَ بالتراب.. ثم يربطُ إناءًا فارِغا بنفسِ الحَبل..

وهكذا أشتغلُ طيلة النهار، بين الحبلِ الهابطِ والطّالع.. طالعٌ بالترابِ المحفُور، وهابطٌ بإناءٍ فارِغ..

إنه عَملٌ شاقّ.. لكنها مرحلةٌ مُوقّتة.. ويجبُ أن أتحمّل.. الصبرُ مِفتاحُ الفَرَج ..ثم ظهرَ مَشرُوعُ بئرٍ آخَر، وهذا بجوارِ غابة، على الطريق بين "أكُورَاي والحاجب.."

وبعد البئريْن أتوقّف.. هذا عملٌ مُوقّت.. فقط من أجل كسب بعض المال لكي أُهاجرَ إلى العاصمة..

ومن البئر، أنا مُهاجرٌ إلى مِهنة الصحافة..

لقد قرّرتُ السفَرَ إلى العاصِمة..

سوف أذهبُ إلى الرباط..

قيلِ كلامٌ للمُشرفِ على وَرشة البئر..

يُسمُّونه هُنا "الكَابْرَان.."

وهذا شديدَ المتابعة والمراقبة بعَينيْه..

ويُلاحقُنا أنا وصديقي، خلالَ النهار، وفي الليلِ ونحنُ جميعًا نبِيتُ في "القِيطُون.."

وفي وقتٍ من أوقاتِ العمَل، سألَني: هل جِئْتُمَا للعمَل أم لقراءةِ الكُتُب؟

أجبتُه: للعملِ في وقت العمل، وللقراءةِ خارجَ العمَل..

لم ترُقهُ الإجابة..

وقال: من الآن، ستتَناوَبان على الإتيانِ بالماءِ الشَّرُوب من العَيْن.. وسلّمني إناءا، وأمرَني بالذهابِ إلى العَيْن.. إنها هُناك..

أخذتُ الإناء، واتّجهتُ صوب العَين.. وصرتُ أُوزّعُ الماء على عمّالِ البئر..

وسمعتُ بعضَ الحفّارِين يتضاحَكُون ويقولون: الماءُ أحسنُ من المِعوَل..

إنهُم لا يُدرِكُون مَعنَى القراءة..

ونادَانِي "رئيسُ ورشةِ البئر": "تَعالَ إلى هُنا.."

اقتربتُ منه، ونظر إليّ بغضَب: "قُل بصراحة، هل أنتَ هُنا لكي تتَجسّسَ علينا؟.."

لم أفهَم ما يقُولُ هذا المسؤولُ المُسمُى هُنا "الكَابْرَان.."

ونادَى صديقي: "من أرسلَكُما إلى هُنا؟ ولماذا؟ هل أنتُما فعلاً من العُمّال؟ أنا لا أرى فيكُما إلاّ تلميذيْن.. أحسنُ لكُما أن تَعُودا للمَدرسة.."

ثم سَكت..

وفي اليوم التالي، حضرت سيارة مَخزَنيّة، فيها شخصَان أنيقان..

"رئيسُ البئر" اختَلَى بأحَدِهِما، وتكلَّمَا مع بعضِهما، وهُما يُشيرانِ إليّ وإلى صديقي..

وعندَما هَمّا بالانصِراف، خاطَبَنا "الكَابْرَان" بصوتٍ يسمعُه كلُّ العُمّال: "لم يعُد لكُما مكانٌ هُنا.. وعندَما تكبُران، وتُصبحنا من العُمّال الذين يُمكنُ الاعتمادُ عليهم، مرحبًا! أمّا الآن، فأحسنُ أن تعُودا إلى المدرسة.."

ولا أحدَ منّا أجابَ "الكَابْرَان.."

رِكِبنا خلفَ سيارةِ "المَخزَن"، وصرنَا نتتَبّعُها وهي تعُودُ بنا من حيث أتَت..

وعندما وَصَلت إلى "حَمرِيّة"، أخذَت الطريقَ إلى "الحاجَب.."

وبعدَ حوالي ساعتيْن، كُنا قد تَجاوَزْنا "أكورَاي"، وها نحن نقتربُ من الغابة..

وما هي إلا لحظات، حتى توقفت بنا السيارةُ عندَ بِئرٍ في طُور الحَفر، في بداية الغابة..

خرجَ من "القِيطُون" شخصٌ مُسِنّ.. إنه "الكَابْرَان" الجديد..

وتحدّثَ إليه السائق: "سيشتَغِلان في البئر.."

وتأمّلنا "الكَابْرَان": "إنهُما أصغرُ من البئر.."

وتَرَكَتنا السيارةُ هناك.. نبِيتُ في "القِيطُون".. وفي النهارِ نحفِرُ البئر..

وبعدَ حوالي أسبُوع، تكلّمَ مَعنا "الكَابْرَان": "هذا مكانٌ لا يُناسبُكُما.. وغدًا سيأتي المسؤولُ عن الآبار، ويؤدّي لكُما كلَّ المُستحَقّات.."

وهذا ما حَصَل..

سلّمَ لنا ما نستَحِقّ، ثمّ أخذَنا في السيارةِ إلى مَكناس. وداعًا للآبار!

وقلتُ في نفسِي: "هذه بِدايةُ زمنٍ آخَر.. زمنِ الحَفرِ في العقُول.."

الهِجرة إلى الرباط

بصراحة، ورغمَ كل شيء، لستُ من الجيلِ الضائع.. أنا لم أندَم على مُغادرة الدراسة.. ولا على اتّخاذِ قرارٍ بأن أجنحَ إلى التّعليم الذاتي.. علمتُ نفسِي بنفسِي.. وأديتُ الثمنَ غاليًا.. لقد نِمتُ في الخَلاء.. وأمضيتُ ثلاثةَ أيامٍ مُتتالية، بدُون تغذيّة.. وباقِي أيامِ حياتي كانت مع ضَحكاتِ أصدقائي، أجيالِ الثّرثرة.. أجيال المَجهُول.. ولم أندَم.. لم أنتصرْ على أحَد.. انتصرتُ على نفسي، وهذا كلُّ ما في الأمر..

1 ماي 1965: غادَرتُ قَريتِي العزِيزة..
رِحلتِي إلى الرباط.. العاصمةُ وِجهَتِي..
ذهبتُ إلى بيتِ أُختِي في مَكناس..
هي وَزوجُها لهُما فضلٌ عليّ..
أخذتُ رُكنًا في المَنزل..
أنا سارِحٌ في الأحلام..
أبحثُ في الأفُق..
سأذهبُ إلى الرباط.. هُناك أجِدُ نفسي.. لقد اتّخذتُ قراري.. ولا بُدّ من الرباط..
فيها زماني ومكاني..
هناك أستَقرّ..
وأسرَحُ في الخيال.. وأناقِشُ نفسي..
سأذهبُ إلى الرباط!
وسأنتَصِر.. سأنتَصِرُ على كلّ الصّعوبات..
أنا لستُ عاجزًا..
قويٌّ وسأتصدَى لكلّ الأعاصِير..
وليس غيري أقدرَ منّي..
أنا مُؤهّلٌ لمَعرفة ما لا أعرف.. وإتقانِ ما لا أُتقِن..
والمُؤكّدُ أنّني سأذلّلُ العَقبات..
سأفعلُ هذا بنفسِي.. اعتِمادًا على عقلي.. وعلى قُوّتي الإنسانية..

إنها أفكارٌ تخطُر ببالي، وأنا أتهيّأ للرّحيلِ غدا إلى الرباط، لكي أصافحَ المجهُول..
سأذهبُ إلى الرباط!
غدا، أكونُ في القطار..
غدًا، أنامُ في العاصمة!
هناك، أعرفُ شخصًا مُحترَمًا..
أعرفُه بالاسمِ فقط.. هو الأديبُ الصّحافِي "عبد الجبّار السّحيمي".. يَشتغلُ بجَريدةِ "العلَم"..
أقرأ مَقالاتِه.. تَستَهوِيني كِتاباتُه.. هي عمِيقةُ الفِكر.. عَذبةُ الصياغة.. قويةُ الإقناع..
سأذهبُ إلى جريدةِ "العلَم"، وسأسألُ عنه.. لَعلّهُ يُساعدُني على الدّخولِ لعالَم الصّحافة..
وإذا لم يَفعل، فلا إشكال.. سأتَوكّلُ على الله..
أنا لا أعرِفُ ما يَنتظِرُني، ولكنّني سأبحَث..
لا أعرف، ولكنّني سأنجَح..
فإمّا أن أنجحَ غدًا، أو أنجَح بعد غَد..
ولا خيار إلاّ النّجاح..
لا بُدّ من النّجاح..
مُتأكّدٌ أنّنا سَوفَ نلتَقِي.. أنا وقَدَرِي سوف نلتَقي.. أنا والصحافةُ سوفَ نلتقي..
ونتَعانق.. ونندَمِج..
هذا لا شكّ فيه..
وفي الرباطِ سألتقِي بالقَدَر، وجهًا لوجه، يُوجّهُني إلى العَمل الذي يَنتظِرُني.. الآن لا أعرفُ طبيعةَ هذا العَمل، ولكنّني أُقرّرُ أن يكُونَ عملاً فِكريّا.. له صِلةٌ بالثقافةِ العامّة..
معي درّاجتي الهوائية..
حتى الدّراجة، لا رِجعةَ فيها..
وامتَطيتُها إلى حَديقةِ "لَحبُول"، في مكناس..
هي حديقةٌ تاريخية.. جميلة.. كان فيها مَسرح.. فأين هو مسرحُ "لَحبُول"؟
وفيها عُرُوشٌ تمتَدّ من شِجرٍ شاهِقٍ إلى السماء..
أشجارُ "لَحبُول" شاهقةٌ تُعانقُ السماء..

ومرّ بجانبي مُصوّرٌ مُتجوّل..
أخرجتُ من جيبي درهَمًا، والتَقط لي صورةً تذكاريةً مع درّاجتِي.. وهذه هي صورةُ الغِلاف.. أنا ذاهبٌ إلى الرباط!
فاشْهَدِي يا درّاجتي الهوائية..
الأيامُ تضحكُ اليومَ مِنّي، وغدا أكونُ أنا الضاحِك..
وبرُفقةِ صديقتِي "الدرّاجة"، توجّهتُ إلى محطّةِ القطار..

فإلى هناك ! إلى المحطّة في "حَمريّة"!
وخلفَ طابور الشّبّاك، وقفتُ أنتظرُ دَوري..
أدّيتُ ثمنَ تذكرتِي مع بطاقةِ الدّرّاجة الهوائية، للدرَجةِ الرّابعة..
وبعد لحظات، أخذُوا مني الدراجة.. ودخلتُ إلى مكاني في القطار..
الكراسي خشبيّة.. وكلُّ ما في هذه العَرَبةِ يوحِي بالفَقر.. ولا عجبًا! الفَقرُ يُلاحِقُني حتى إلى الرّباط..
ولا أدري كيف تكونُ أيامي بدون فَقر..
وبفضل هذه الحياة البسيطة، أعيش طبيعيّا، عاديّا، لا أحدَ أهمُّ منِي، ولا أنا أهمُّ من غيري..
وأمامي في العَرَبَة، أزبالٌ مُلقاةٌ هنا وهناك..
والمُسافرُون - نساءًا ورجالاً - لا تبدو عليهم مظاهرُ اليُسر..
وباللباسِ يُعرَفُ الفقير..
سمِعتُ راكبًا بجِوارِي يهمسُ في أُذنِ زوجتِه أن المتسوّل الذي يطلبُ الصدقة، قد يكُون واحدًا من أفراد العصابة التي تَنهبُ المُسافرين..
فأنتَ إذْ تتَصَدّقُ عليه، يستطلعُ بعينيْه ما بداخلِ مِحفَظتِك، ومن خلال المبلغِ الذي تتَصَدّقُ به، يُخمّنُ ما تملكُه من نُقُود..
والقطارُ لا يعبأ.. ها هُو يلتَهمُ السكّةَ الحديدية..
وأنا أتَعَجّبُ من غرابةِ الحياة: لقد كنتُ أعتقدُ أن العالمَ يُختَزَلُ في قريةِ "رأس جِيرّي" ومعهُ مدينةُ "مكناس"، فإذا بالعالمِ أكبرُ وأوسَع.. وها هو الدليلُ الملمُوس: إنّ وراءَ مَكناس توجدُ مناطقُ أخرى.. ها هو العالمُ أمامي يَتمَطّط ويتّسِعُ ويَكبُر..
وما زلتُ أعتقدُ بوجُود علاقةٍ مُباشرةٍ بين كِبَرِ العالم، وكِبَرِ الأفكار.. أجل! كُلّما كبُرَ

العالم، كبُرت الأفكار..
وأتأمّلُ السرعةَ التي تسيرُ بها المناظِرُ الآتية من أمام القِطار، وبسُرعةٍ إلى خلفِ القِطار..
عجيبٌ أمرُ السرعةِ القِطارية..
كلُّ شجَرَة، أو صَخرَة، أو وردة، أو طائر، كلّ هذه وغيرُها مُتحرّكة في الاتجاه المعاكسِ للقطار، والقطارُ يلتَهِمُ المسافات.. ولا يَعبأ..
وفي ذهني تتزاحمُ الأفكار.. يبدُو أنّ القطارَ ما زال بعِيدًا عن الرباط..
إنهُ يَبتلِعُ مَسافاتٍ تِلوَ أخرى..
والطّريقُ طويلة..

ليلة في الخلاء

في حوالي الساعة السابعة مساءً، وَصل القطارُ إلى مَحطةِ "الرباط - المِدِينة"..
استَلَمتُ درّاجتِي الهوائية..
وصِرتُ أجوبُ شوارعَ العاصمة..
أبحثُ عن مكانٍ لقضاءِ الليل..
وبعد حوالي ساعتيْن، وجدتُ نفسِي في حالةِ اكتشافٍ لهذه المدينة.. كنتُ أقربَ إل الخيال من الواقع..
وبينما أنا سارِح، صَدمتُ شخصًا أنيقًا..
اعتذرتُ له، وقلتُ: "يا سيّدي! أرجوك لا تُواخِذني! أنا نازلٌ من القطار، وقد جئتُ من مكناس، وأبحث عن عُنوان.. وأطلبُ منك المُسامَحة!
كان الأنيقُ طيّبًا..
ودعا لي بالتّوفيق..
ثم ركبتُ الدراجة من جديد..
وبعد لحظات صدمتُ شخصًا آخَر..
لقد كنتُ مُضطرِبًا.. مُرتبِكًا.. ولا عُنوانَ لي.. ولا أعرفُ أين أنا ذاهب..
وقد كنتُ في رحلةٍ إلى المجهُول..
وقادتني الرحلةُ الرباطيةُ إلى شارعٍ يُجاورُ مَزرعةً أصبحت اليوم بناياتٍ فخمةً تُسَمّى "مدينة العِرفان"، على مقرُبةٍ من سكّةِ الحديد..
نزلتُ من الدّرّاجة الهَوائية، وصِرتُ أتأمّلُ المِنطقة.. وظهرَ لي قطارٌ قادِم..
اقتَربتُ من سِكّةِ الحديد..
واخترتُ مكانًا بعيدًا - إلى حدّ ما - عن طريقِ المُرور، بالأرضِ الزراعية..
ووضعتُ درّاجتِي بعيدًا عنّي..
ثم ارتَمَيتُ على الأرض..
وبعد حوالي مُنتَصفِ الليل، ظهرَت لي مجموعةٌ من السّكارَى..
اهتزّ قلبي..
ولم أستَعِد هُدُوئِي إلاّ بعد أن اختَفت المجمُوعة..

وأدركتُ أن البحرَ ليس بعيدا عن هذا المكان.. لقد كنتُ أسمعُ الأمواج.. أو هكذا كان يتَهيّأُ لي..
وبعد لحظات، كانت مجموعةٌ أخرى قادمة.. تتَناقشُ بصوتٍ مُرتفِع، تتبادلُ كلماتٍ نابيّة، وهي ماشيةٌ بنفس الطريق الزراعية..
أحسَستُ بالخَوف.. فلو أدارَ أحدُ أفراد الجماعة وجهَه إليّ، لرآني، خاصةً وأن القمرَ مُكتمِل، وقد أصبحَ بَدرًا يُضئُ المِنطقَة..
وكانت هذه الليلةُ القَمَريةُ أولَ وقتٍ أُحسّ فيه بعلاقة مباشرةٍ مع الأمواج.. وأنا قادمٌ من مكناسَ حيث لا وجودَ فيه للبحر..
وأنا عرفتُ البحرَ بالسّمعِ لا بالرُّؤية..
أمضيتُ ساعاتٍ ليليةً غيرَ مُريحة..
وتذكّرتُ ليلةً قضيتُها في الخلاء..
كنتُ في مدينةِ الحاجَب، وكانَ الجوُّ صيفًا، والرياحُ شديدة.. كنتُ أبحثُ عن حافلة باتّجاه مكناس..
ولا وجود لأية حافلة..
والرياحُ قويّة..
أشرتُ لسيّارة، فتوقّفت..
قال السائق إنه في اتجاه "أكوراي"، فقلتُ إنها وِجهَتي.. فردّ أنه سيُنزلُني في منطقة بعيدةٍ عنها بحوالي 10 كيلومترات..
وقبلتُ على مَضَض..
ولمّا أنزلَني، كان شخصٌ مُسِنٌّ راكبًا حمارَه..
فطلبتُ منه الضّيافة: "أنا غريبٌ عن هذه المنطقة، وأطلُب أن أكُونَ ضيفَك"، فرَفَض..
وفهمتُ أنّ هذا الشخص ليست له ثقةٌ في الغُرباء.. ولم أؤاخِذه.. يجبُ أن أتعامل مع الواقع..
فتخيّرتُ مكانًا بعيدا عن الطريق المُعبّدة، والتحفتُ السماءَ وافترَشتُ الأرضَ ثم استسلمت للنوم..
والحقيقة أنّني امضيتُ طيلةَ الليل بين النوم واليقظة..
وفي فجرِ الرباط، أخذتُ درّاجتي، وصِرتُ أجوبُ شوارعَ العاصمة، في استكشافٍ

للناس والمدينة..
وبعد الشرُوق، سألتُ شخصا عن "شارع علال بن عبد الله"..
ولمّا بدأت حركةُ المُرورِ تتَقَوّى، اشتريتُ خُبزًا وحليبًا.. وسألتُ عن حديقةٍ عمومية.. هل هُنا حديقة؟
قيلَ لي إنها قريبة.. هناك، غيرَ بعيد..
وفيها تناولتُ الخُبزَ والحَليب، وبدأتُ أخَطّط لبرنامجِ الصّباح..
وعلى اللهِ أتوكّل!

جريـدةُ "العَلَم

مِن هُنا أنطَلق..
الانطِلاقةُ باتّجاهِ مِهنةِ الصّحافة..
وسوفَ أتعلّمُ الصّحافةَ منَ أساسِها.. في المَيدانِ والمُمارَسة.. إلى جانبِ المِهنيّين..
ولِمَ لا؟ كثيرٌ من المِهَن تُتعلَّم خارجَ المَدارس.. وكثيرٌ من المفكرين والعلماء والأدباء لم يُكملوا الدراسة..
أسماءُ شهيرةٌ منها عباس محمود العقاد.. محمد شُكري.. أكاتا كريستي.. توماس أديسون.. وغيرُ هؤلاء كثيرون...
هذا شارع علال بن عبد الله، بالرباط..
أنا في العُنوان الصّحيح..
أدخُلُ إلى مَقرّ جريدةِ "العَلَم"..
أسألُ عن صَحافيّ كبير اسمُه "عبد الجبّار السّحِيمِي"..
وهذا الصّحافي الأديب، سيَكُونُ له فضلٌ عليّ..
ولا أنساهُ ما حَيِيتُ..
10 صباحًا : أنا بالطابقِ الأولِ لجريدةِ "العَلَم"..
سألتُ الحارس "عبد النّبِي"..
وما هي إلاّ لحظات، حتى وَجَدتُنِي وجهًا لوجهِ مع الصّحافي الكبير..
استَقبَلَني ببشَاشةٍ وطَيبُوبة.. قُلتُ إنّني قادمٌ من مكناس.. ولا أعرفُ أيَّ أحدٍ إلاّ أنت.. أطلبُ منك أن تُساعِدَني للعَمَل..
تأمّلَني.. ثم قال: "عُدْ إليّ غدًا.. هل تُريدُ أن تكُونَ مُعلّمًا؟".. قلتُ: "أريدُ أن أكُون صَحافيّا"..
ابتَسَمَ وأجاب: "انتَظِرني هُنا.. سأعُودُ بعد قليل!"..
وعادَ بعد لحَظات، وسألَنِي: "هل تعرفُ محمد الطّنجَاوِي"؟..
قُلتُ: "لا"..
وقال: إنه مديرُ جريدةِ "الأنباء".. هو بانتِظارِكَ في مقرّ الجريدة.. هل تعرفُ "الأنباء"؟

قُلتُ: "لا"..
وابتسَم: "هي جريدةٌ حُكوميّة.. خُذْ هذا الغِلاف.. وسَلِّمْهُ له.. إنه بانتِظارِك.. عُنوانُ مَكتَبِه مَوجُودٌ في هذا الغِلاف.. اذهَبْ إليه حالاً"..
لم أدرِ كيف أشكُرُه..
الجريدَتان "العَلَم" و"الأنباء" تَقعَانِ في شارعٍ واحد: "علاّل بن عبد الله"..
وما هي إلاّ لحظات، حتى كنتُ ببَابِ جريدةِ "الأنباء".. كان الأستاذ محمد الطّنجَاوِي في انتظارِي.. استَقبَلني بطيبُوبة.. وأطلَعَنِي على "قِسمِ الاستِماع"، و"قسم التّحرير"، وعرّفنِي بأفرادٍ من الطّاقَم...
ثم سألنِي: "هل عِندَك مَبِيت؟".. أجَبتُ: لا..
وسَلّمَنِي 3 دراهم.. وقال: سأُعطِيك مثلَ هذا المبلغ كلّ يوم، بانتظارِ "رأسِ الشّهر".. وسيكُونُ راتِبُك الشّهرِي: 200 درهم..
وسَلّمَني مِفتاحَ مَكتبِ الجريدة..
- مِن اللقاءِ الأوّل، اِئْتَمَنَنِي المُديرُ على المَكتَب..
وانطلقتُ في العمَل..
3 دراهم، هذه مِن جَيبِه.. وبها أقضِي النّهار.. وفي المساء، أبيتُ بمَكتبِ التّحرير..
المَكتبُ الذي به أشتَغِل، هو نفسُه فيه أنام..
مَكتبٌ واحد: فيه أعملُ وفيه أنام..
وهذه هي انطلاقتِي..
كنتُ سعيدا لأني تحرّرتُ من النّومِ في الخَلاء..
فما مَصِيرِي لو لم أجِد هذا الحلّ، وهو العملُ والنّومُ في "قِسمِ التّحرير"؟!
إن الأستاذ عبد الجبّار السّحِيمِي قد فتحَ لي بابَ الصّحافة، والأستاذ محمد الطّنجَاوِي أدخَلَني إلى عَوالمِ الصحافة..
عِملاقان في بدايةِ مِشوارِي المِهني: أحدُهُما فتحَ لي الباب، والآخرُ أدخَلنِي إلى قِسمِ التّحرير..
عِملاقان بكُلّ المَقايِيس..
وأنا مَحظُوظٌ وسَعِيد..
مَحظُوظٌ لأنّ هذا العَمل يُناسبُ نفسيّتِي ومِزاجِي.. وأنا له مُتَحمّس.. وسعيدٌ لأنه العَمل الذي أستطيعُ فيهِ تطويرَ نَفسِي.. وأن أُنَمّي مَوهِبَتِي..

"محمد الطّنجَاوِي" شاعرٌ كبير.. أولُ شاعرٍ من خارجِ مَصر، غنّى له "المُوسيقار محمد عبد الوهاب"..
لقد غنّى لهُ قصيدة "الرّائد الأكبَر"..
أديبٌ كبير وشاعرٌ كبير..
و"عبد الجبّار السّحِيمِي" مِن نفسِ العُنفُوانِ الإبداعِي في الأدبِ والصّحافة..
كِلاهُما صَحافيّان وأدِيبَان..
تَشَرّبَا من الأدب.. وتَعمّقا في الصّحافة.
إن الصحافةَ ابنةُ الأدَب..
الأُدَباءُ هُم أنتَجُوا الصحافة وطوّرُوها ودافعُوا بها عَن حُريةِ الفِكرِ والتّعبير..
كُتّابٌ كبار ساهَموا في بناء حقوقِ الإنسان، وحقوقِ الوطنِ والمُواطن، والحقّ في المَعرِفة... فكانت هذه أساساتٍ لبناءِ دولةِ المُؤسّسات، في مَناطقَ من العالم..
وهذه مَعركتُنا جميعا، أدباءَ وصَحافيّين..
إنها المَعركةُ الكُبرَى من أجل الإنسانِ والإنسانية..
لقد علّمَتني المِهنةُ كيف أكُون أنا، بلا لفّ ولا دَوَران.. وكيف أكونُ إنسانًا، لا شِبهَ إنسان..
وهذه القِيّم أنا مَسكُونٌ بها..
حتى النّخاع..

الخطابات المَلكية

انطلاقتِي الصحافيةُ كانت بجَريدةِ "الأنباء" الحُكومية..
صِرتُ في "الأنباء" أشتِغلُ وأتعَلّم.. المَيدانِي يُعلّم المُبتَدئَ كيف يَتعلّم.. ويَتقدّم..
ويجِدُ حُلولاً للتّعقيداتِ المِهنيةِ الطارئة..
وكيف لا يَظلمُ لا نفسَه ولا غيرَه..
وفي الجريدة تعرّفتُ على مِهنيّين أذكُرُهُم بكلّ اعتزاز..
كفاءاتٌ أدبيةٌ وصَحافيةٌ وتِقنيّة، وصداقة وحمِيميّة..
وكان المُديرُ "محمد الطّنجَاوِي"، وهو أستاذي المَيداني الأول، يَعقِدُ لقاءاتٍ لأفرادِ قِسمِ التحريرِ بين الحينِ والآخَر ..
واللّحظاتُ القويّة التي لا تُنسَى كانَت في أوقاتٍ قليلة، ولكنها مُفِيدة، وتكُونُ أيضا بمُوازاةٍ مع خِطاباتٍ مسائيةٍ لملِك البلاد..

في "الأنباء"، سَهَراتٌ مع الخطاباتِ المَلكية، تكُونُ مُناسبةً لكي أتعلّم.. مُناسباتٌ فيها تميُّز..
وعلى العُموم، تكُونُ خِطاباتٍ مُرتجَلة.. وفي نفسِ الوَقت، هي مُنظّمةُ الأفكار، قويةُ المَعلومات، شدِيدةُ الإقناع..
ونتجمّعُ حولَ الرّاديو..
والمَلِكُ يُلقِي خِطابَهُ إلى الشّعب..
ويتمّ تسجيلُ الخطاب في "قسمِ الإستِماع"..
الملكُ يتكلمُ بالعربيةِ الفُصحَى والدّارِجَة..
إنه مُثقّفٌ كبير.. شديدُ الإقناع..
وكُلّنا حولَ المُديرِ في "قِسمِ الاستِماع"..
الخِطابُ المَلكِي يَستغرقُ ما لا يقلّ عن ساعة، وأحيانًا أكثر، حسبَ الحَدَثِ وضرُوراتِ التّحليل..
وقد تكُونُ الليلةُ طويلةً ولا تتوَقّفُ إلا بعدَ الشّرُوق..
ونكُونُ في العَملِ قبلَ الخِطاب، وفي الليل تكونُ التّعبئةُ الشاملةُ بالجرِيدةِ والمَطبعة..

ولا تكُون الجريدةُ جاهزةً للوُصولِ إلى القارئ في الرباط، إلاّ بعدَ طلوعِ الشّمس..
وهذا هو المُعتادُ مع الخطاباتِ المَلكيّةِ المسائية..
ويفتحُ المُديرُ آلةَ التّسجيل..
ويَنطلقُ في تفريـغِ الخطابِ الملكي المسجَّل، لكي يكُونَ مَكتوبًا على أوراق..
وها هو الخِطابُ الصّوتِي يَتحوّلُ إلى خِطابٍ ورَقِي، ثم إلى خطابٍ مَطبُوعٍ في الجريدة..
ودَورِي هو التّنسِيقُ بين المُدِيرِ والمَطبَعة..
المُديرُ يُسلّمُني الأوراقَ المكتوبة..
وأُوصِلُها بنَفسِي إلى المَطبعة، أوراقًا تلوَ أخرى..
ومِن وَرَقاتٍ لأُخرَى، ثم أخرى، إلى أن أُوصِلَ للمَطبعةِ كلَّ الخِطاب الملكي، مَكتُوبًا بخطّ يدِ الصّحافي الكبير..
وبهذا تتَبّعتُ كيفيّةَ التّفرّيـغ، وكيفيةَ تحويلِ الدّارجةِ إلى عربيةٍ رصِينة، مع عَنوَنَةٍ لمَحَاورِ الخِطاب، وإبرازٍ لفقراتٍ هي الأقوَى...
فقراتٌ يجبُ أن تصلَ إلى القارئ..
وهُنا يجِبُ الحَذَر، والتّأكُّد مِن أنّ المَسمُوعَ بالدّارجة قد تمّت ترجَمةُ مَضمُونِه، وبدِقّة، إلى اللغة العربية..
وبهذا يَصِلَ الخِطابُ الذي يُريدُ المَلكُ إيصالَهُ إلى الشّعب، بدءًا من المُستَمِع، وُصُولاً إلى القارئ..
ويَحضُرُ إلى الجريدة، في هذه الأُمسيةِ الخِطابية، الخَطّاطُ الشّهير "بُوشَعرَة"..
الخَطّاطُ يَكتبُ العَناوينَ بأشكالٍ مُتنوّعة: هذا خطٌّ لعُنوانٍ رئيسِيّ، وآخرُ لعُنوانٍ فَرعِي...
خُطوطُ العَناوينِ تَختَلفُ عن بَعضِها أُفُقيّا وعَمُوديّا، وفي الأنواعِ والأشكالِ والألوان..
وفيها عناوينُ الصفحةِ الأولى.. وهذه سوف تُطبَعُ باللّونِ الأحمَر..
الخَطّاطُ يُضفِي على المَضمُون جماليةً وانجِذابًا..
- ومن التحريرِ إلى المَطبعة..
أوراقُ الخطابِ المَلَكِي أُوصِلُها - يدًا بِيَد - إلى المَطبعة، في الطابقِ السّفلِي لبنايةِ الجَرِيدة.. هُناكَ آلاتٌ رئيسيةٌ منها: اللّينُوتِيب، الطّباعة، التّصوِير...
وتصِلُ الأوراقُ إلى الجالسِ أمام لوحةِ اللّينُوتِيب.. هو يقومُ برَقْنِ أوراقِ الخِطاب..

إنها كتابةُ الخِطاب: تحويلُ الخطاب إلى سُطُورٍ رَصاصيّة..
وهذه تِقنيةٌ تَعلّمتُها فيما بَعد، في مُؤسسةٍ تعليميةٍ ببَلجِيكا.. وحَصَلتُ منها على "جائزةٍ خاصّة"..
ومِن اللّينُوتِيب يمُرّ النصُّ الوَرقي، ويصلُ إلى مُراجعةٍ للمُصحّح، وهذا عَملٌ اشتَغلتُ فيه أيضا، فيما بَعد..

والعملُ في التّصحِيح مُفيدٌ لتطويعِ اللّغة.. وإتقانِ القواعِد..

ومن "الأرشيف" تَصِلُ الصُّورُ المُصاحِبةُ للخِطاب، إلى قِسم التّصوِير، وهذا يُحَوّل الصُّورَ الورقيةَ إلى صُورٍ قابلةٍ للطّباعة، على نفسِ المِساحةِ التي يُحدّدُها تصميمُ نُسخةٍ ورقيةٍ بيضاءَ من حَجمِ الجريدة المطبُوعة..

وهناك أيضا اختِصاصٌ في توضيبِ الصفحاتِ بشكلٍ مُجَسَّم..

وفي النهاية، تصلُ الجريدةُ في شكلٍ مُجسّمٍ إلى آلةِ الطباعة..

وعندَها تنطلقُ آلةُ "الرُّوتاتِيف" الألمانيّة..

وبعدَها يكُون السائقُ جاهزا، هو ومَن معه، لنقلِ الجريدةِ مَطبوعةً من أجلِ تسليمِها إلى شركةِ التّوزيع..

والأسبقيةُ لتوزيعِ بعضِ النُّسخِ على الإدارات والوزارات والمؤسّساتِ المسؤولة...

محمد الطنجاوي

في "الأنباء"، تكونت لي علاقةٌ طيّبةٌ مع المُدير.

اشتَغلتُ مع هذا الصّحافي الأديب الأستاذ محمد الطنجاوي..

وقال لي ذاتَ يوم: إنّ "الطنجاوي" هو اسمِي المُستَعار.. أمّا اسمِي الحقيقي، فهو "محمد بنْيَحْيَ"..

مَسِيرتُه المِهنيّة تُنِمّ عن شخصيةٍ عبقريةٍ مُبدِعة..

بدأ مِشوارَه المِهني بجريدةِ "النّهار"، ثم "الأمة" بتطوان.. واشتغلَ بجريدة "الصّحراء".. وانتقل إلى الإذاعة الوطنية عام 1959، والتَحقَ بجريدة "التحرير".. و عُيّنَ مُديرًا لجريدة "الأنباء "المغربية

وإلى عَملِه الصحافي، هو شاعرٌ من الطراز الرفيع..

بعضُ كبارِ الفنانين، بالدّاخلِ والخارج، تغنّوا بأشعاره، ومِنهُم المُوسيقار "محمد عبد الوهّاب" الذي لحّنَ وغنّى لهُ قصيدة "الرّائد الأكبَر"، وأيضًا عبد الحليم حافظ، وعبد الوهاب الدكالي، وأحمد البيضاوي، وآخَرُون...

كنتُ سعيدا باكتِشافِ صَحافيّ وشاعرٍ كبير..

وعندما يَشتَعِلُ الضوءُ الأحمرُ في بابِ مَكتبِه، فتلكَ إشارةٌ إلى أنّ الأستاذ مُنشغلٌ في الكتابة.. إما يكتبُ قصيدة، أو يكتبُ مَقالاً..

وذاتَ يوم، ناداني إلى مكتبه، وسلّمَنِي ورقتَيْن بخطّ يدِه.. وقال لي: "هذا مقالٌ إلى الإذاعة.. إنه تحليلٌ ستَتِمّ قراءتُه مساءَ اليوم.. سلِّمْه لفُلَان.. ثم أخبِرنِي أنهُ قد تسَلّمَه"..

وهذا ما فعَلتُ..

وكُلّ يوم، فِي نفس الوقت، أقومُ بنفسِ المُهمّة.. وتحاليلُ الأستاذ الطنجاوي أُبلِغُها إلى نفسِ المَسؤولِ بالإذاعةِ الوَطنيّة..

وتَوطّدَت به علاقتِي المِهنيّة..

ويُنادِينِي لحُضورِ جَلساتٍ للتّحرير فِي مَقرّ الجريدة، وأحيانًا خارجَ الجريدة، حيث تكُونُ النّقاشاتُ أكثرَ حماسةً وحميميّة..

وقال لِي: "سوفَ أُرسِلُكَ إلِي تونس، فِي دَورةٍ تَكوينيّة، لكي تتَعلّم مِهنةَ الصّحافة، بقوَاعِدِها"..

ولاحَظَ أن هذا الخبَرَ قد أسعَدَنِي..

وأولُ مَقالٍ كتبتُه للنّشرِ فِي "الأنباء"، عُنوانُه: "لا خوفَ على الكُتُب".. المقالُ منشورٌ فِي مُلحَقِ نفسِ الجريدة، وفِكرتُه تدُورُ حولَ الجرائم التي تَنهَبُ من الناسِ أيَّ شيء، إلا ما هو ثقافِي.. السّرِقاتُ لا تَطالُ الكِتاب.. وعُنوانُه: "لا خوفَ على الكُتُب"..

ووَقّعتُ المقالَ هكذا: "أحمد عَمرو بُوجَمعة".. وهو اسمِي "أحمد"، واسمِ أبِي "عَمرو"، واسمِ جدّي "بوجَمعة"..

وهذا التوقيعُ احتَفظتُ به لسَنوات..

وللأَسَف، "محمد الطّنجاوِي" تمّ نَقلُه إلى مَسؤوليةٍ أخرى بوزارَة الإعلام..

أنا حَزِين..

ذهبَ الطّنجاوِي.. وعُيّنَ مُديرٌ جديد: "محمد المَسفِيوِي"..

هذا كان دبلُوماسِيًّا فِي تونس..

تم تعيينُه مُديرًا مَسؤولاً عن جريدةِ "الأنباء"..

ومع الأيام، تبيّنَ أنه ليسَ قبِيحًا.. الظروفُ هي القبيحة..

دعاني إلى مَكتبِه، وأخبَرَني أنّه قرّرَ أن يُسنِدَ لي مسؤوليةَ إعدادِ صَفحتيْن كلَّ يوم: 3 و 4..

صَفحَتان كلَّ يوم، فيهِما أنشُر مُراسلاتِ وأخبارَ الأقاليم، مع بعضِ الصّور.. وأصبَحَت هذه مُهمّتي..

وقال لي المديرُ الجديد: "سأزيدُ في راتِبِك.. بدَلَ 200 درهم في الشهر، سيكُون راتبُك 300 درهمًا"..

أفرَحَنِي هذا الخَبر..

حيٌّ الصّفِيح

في هذا الوقت، كان بالجريدةِ سائقٌ اسمُه "مُوسَى"..

أخبرتُه أنّني أبحثُ عن سَكَن..

أجابَنِي فورًا: "أنا عندِي السّكَن الذي عنه تَبحَث.. هل تريدُ أن تراه؟"..

اتّفَقنا على مَوعدٍ لمُعاينةِ السّكَن..

- أوصَلَني بسيارةِ "الأنباء"..

السَّكنُ في حيٍّ صَفِيحِي، بجِوارِ "حيّ اليُوسُفِيّة"..

قال: هذا سَكَنٌ فيه "بَرّاكَتَان".. كِرَاءُ السّكَن هو: 100 درهم في الشّهر..

اتّفَقنا.. وسلّمتُه كراءَ شَهر..

وفكّرتُ مليًّا: لقد زِيدَ في مَدخُولِي الشّهري.. راتِبِي الشّهري هو 300 درهم.. وكرائِي هو: 100 درهم..

وسيَبقَى لي شهريّا: 200 درهمًا.. وهذا يكفِي لكي أعيشَ أنا وأمّي وأبِي وإخوَتِي..

تكفِينا 200 درهمًا في الشهر..

لقد تَدَرّبنا على الصّبر.. وشدِّ الحِزام..

وأتَينَا إلى "السكنِ الصّفِيحِي" بما مَعنَا من أثاث.. وَوزّعنا الأثاثَ بين "برّاكتَيْن"..

نأتِي بالماء العُمومي في إناء.. ونحنُ مِثلَ كلّ سُكّانِ الصّفيح..

وكان لي صديقٌ في الجريدة اسمُه "أبو بكر المريني".. هو شاعر وصحافي.. مُثقّف.. كاتِب.. وله كثيرٌ من العلاقاتِ المُتميّزة..

قلتُ له: عندِي أخوانِ صغِيرَان.. أريدُ أن أنقُلَهُما من مكناس إلى "مَدارس محمد الخامس" بالرباط..

قال: "أعرفُ المُديرَ شخصِيّا.. هو الأستاذ جُوريُو"..

وكانت لتدَخُّلهِ نتيجة إيجابية..

وصرتُ أتنقّلُ مَشيًا بين السكنِ والجريدة، ذهابا وإيّابًا.. وكذلك يفعلُ أخوايَ التّلميذَان..

إنّنا شعبُ "المَشيِ على الأقدَام"..

نعرفُ كيف نَتأقلَمُ مع الظّروف..

ونستطيعُ أن نتغلبَ عليها بالمزيد من الصبرِ والعَمَل..

الحياةُ لا تَقبَل إلا مُنتصِرًا واحدًا..

ولا مَفرّ لنا إلاّ أن نكُونَ نحنُ هذا المُنتَصِر..

صحافي وبائعٌ للخُضَر

هكذا سيُصبحُ حالِي.. في سوقٍ قَصديرِي بالرباط، هو سُوق "يَعقوب المَنصُور.."
ارتأى أبِي أن نكتَرِي مَحلاّ لبَيعِ الخُضَر..
أبِي فاهِمٌ في البيعِ والشّراء.. لقد علّمهُ الزّمنُ حتى كيف يبيعُ ويَشتَرِي.. وكيف يكسِبُ قوتَ اليوم.. إنّ هذه التّجارةَ لها دَخلٌ بسِيط، ولكنهُ مَضمُون..
سألني أبِي: ما يومُ عُطلتكَ الأسبوعية؟
قُلتُ: الأحَد..
واقتَرحَ أن يَشتَغِل هو بقيةَ أيام الأسبوع، على أن أتفَرّغَ أنا للأحَد.. وهكذا سيكونُ لنا مَدخولٌ لمَصاريفِ البيت..
راقَتني الفِكرة..
وَصارَ أبِي يُعلّمُني فنَّ البَيع..
وبدأتُ أبيعُ الخُضَر والفَواكهِ في الحانُوتِ القَصدِيرِي..
كلّ أحَد، أنا بائعٌ للخُضَر.. وبقيةَ الأيام، أشتَغلُ في الصّحافة..
وحتى ونحنُ ساكنُون في "برّاكة مُوسَى"، سائق جريدة "الأنباء", لنا مَدخولٌ تكمِيلي بسيط.. ونستطيع به أن نواجهِ بعضَ صعوباتِ الحياة..
والمسألةُ ليست بهذه السذاجة..
إنهُ كَكُلّ الأعمال، يتطلبُ ذكاءًا ومهارة ودرايةً بالسّوق، وتَفَنُّنًا في التواصُل مع المُشتري..
وصِرتُ في الأعماقِ أضحَكُ لنفسي: "ها هو التواصُلُ يُلاحقُني في مِختلف المِهَن.."
وأكتَشفُ أنّ عُقدةَ كلّ المِهَن هي حُسنُ التّواصُل.. فمَن يُتقِنُ التّواصُل، يَستطيعُ جذبَ المُشترِي، وأن يَنجحَ في أيةِ مهنةٍ يُتقِنُ أبَجِديّاتِها..
وقد أمضَيتُ في هذه الازدِواجية - بين الصحافي وبائعِ الخُضرِ - عِدّةَ أشهُر، ولم يُبعِدنِي عنها، إلاّ الرحيلُ إلى "حيّ المَلاّح" بقلبِ الرباط..
والاختِلاطُ بالبَشَر مُفِيد للتّواصُلِ الصحافي، في مِهنةٍ تعتمِدُ التّواصُل..

تدريبٌ وَطنِي للصّحافة

مازلت في حي الصفيح.. ومن هناك أتنقل إلى تدريب وطني للصحافة.

الرباط: 1969 وَافَقَ مُديرُ جريدةِ "الأنباء"، محمد المَسفِيوِي، على أن ..أُشارِكَ في تَدريبٍ وَطني للصحافيّين المغاربة، نساءًا ورجالاً

وفورا بدأت أتنقل على قدمي من حي البراريك إلى تدريب الصحافة..

هذا أولُ تدريبٍ صحافيّ من نوعِه، بإشراف «وزارة الأنباء»، و"وكالةِ المَغربِ العربي للأنباء: MAP"، بشَراكةٍ مع المُؤسّسةِ الألمانيّة "Fondation Friedrich Naumann"..

التّدريبُ مُدّتُهُ 6 أشهُر، بالعربية والفرنسية، ومنهُ انبَثَقَ مِيلادُ "المَعهدِ العالي للصّحافة" في الرباط.. وقد كان تكوينًا وتأطيرًا وتدريبًا، نظريًّا وتطبيقيًّا، مِن زوايا مِهنيّةٍ مُتنوّعة، في مُختلفِ الأجنَاسِ الصّحافية، وفي الإنتَاجاتِ الإخباريةِ والتّحليليّة للجرائد اليوميةِ المَغربية..

كُنّا في "تدريبِ الرباط" حوالي 20 شخصًا.. من مختلف الفئات الاجتماعية.

وأنا أصغرُ المُشارِكِين، وربما أَعْوَزُهُم..
وفي هذه الدّورة التّكوينيّة نُجُومٍ منَ الإذاعةِ والتّلفزة ومَنابرَ أخرى...

أطّرَها أساتِذةٌ مُختصّون من المَغرب، ومُؤطّرٌ من تونس، إضافةً إلى خَبِيرَيْن من ألمانيا..

يوميًّا، يَتسلّم كل مُتدرِبٍ مِلفًّا خاصًا، فيه جرائدُ مَغربية مَجّانية.. وهذه تُشكلُ المادةَ الخام التي نشتغلُ بها، حسبَ برنامجِ التّكوينِ اليومي..

وفي البرنامج: عُروضٌ للمُختصّين.. ومُناقشةٌ للأخبار وكيفيةِ تنظيم الأفكارِ والمعلوماتِ في بناءِ المقالات.. ثُم المرُور إلى حِصّة التّطبيقات، وفيها الرّبطُ بين النّظري والتّطبيقي..

وفِي آخرِ الشهر، يتلقّى كلّ مُتدرّب مِنحةً ماليةً في حدُود 150 درهمًا..

وقد واظَبتُ على الحُضُورِ اليَومِي، خلالَ مُدّةِ التّكوِين..

وهذا التّدريبُ أفادَنِي من حيث تجاوُزُ مرحلةِ التّقليد، والانتقال من التّقليدِ إلى الإنتاج..

وأفادَني في طُرُقِ الصياغة، وأيضًا معرفةِ طبيعةِ عملي في جريدة "الأنباء" الحُكومية، ودورُها توثيقُ الأحداثِ المغربية الرسمية، في ضوءِ الكيفيةِ التي عُولِجَت بها من قِبل الجرائد..

كما أفادني التّدريبُ في كيفيّة العمل، في إطارِ فريق: البحثُ المُشترَك، تبادُلُ المَعلُومات، تحديدُ زوايا المُعالَجة...

كانت هذه محطةً تكوينيّة مُهمّة، شجّعَتني على المشاركة في أيّ تدريب مُمكن، مُتدرّبًا أو مُؤطّرًا..

وحتى عندما أكونُ مُؤطّرا، أكونُ أنا أيضًا أستَفِيد..

المؤطّرُ يُعطِي مَعلُومات، ومعها أفكار..

ومن خلالِ التّفاعُل مع الطلبةِ أو المُتدرّبين، تظهرُ أفكارٌ جديدةٌ ربّما لم تَخطُر ببالِ المؤطّر..

وهذه الأفكارُ الجديدة تجعلُ المؤطّرَ مَورِدًا لأفكارٍ أخرى، وتُقوّي مَهاراته التواصُلية..

مُهمّةٌ هي تفاعُلاتُ الأفكار..

إنها تُنتجُ أفكارا أخرى جديدةً ومُفِيدة..

وهذا في مُختلفِ المجالات..

إنّ الصحافةَ إذا مُورِسَت أخلاقيّا وضمِيريّا، وعلى أساسِ تقديمِ الحقيقة، ولا شيءَ سوى الحقيقة، هذا يُفيدُ مُستَهلكَ المادة الصحافية والإعلامية، الذي يجدُ في هذا المِهَنِي الصّادقِ قُدوةً لنفسِه ولغيره، وخادِما للمُجتمَعِ والبلادِ والمُواطِنِ وكُلِّ ما هو مُواطَنَةٌ وإنسانية..

وصرتُ أردّدُ لكلّ من يحضُرُ دوراتي التّكوينية أنّ "رئيسَ التّحريرِ" الحقيقي هو الضّمِير..

انتَهى تدريبُنا في الرباط..

الصّحافةُ مَدرَسَة!

منذُ تكوينِ الرباط، وإلى الآن، وأنا قد تجاوَزتُ السّبعين، لا أتردّدُ في حضُور أي تَدريبٍ مُمكِن، مُؤَطِّرًا أو مُؤَطَّرا في الصّحافة.. أحرِصُ على أن أكونَ حاضِرًا..

ولقد تأكّد لي أنّ التّكوينَ المُستمِرّ مُهمّ جدّا، يُمَكّن الصّحافي من فهمٍ أعمقَ لهذه المِهنة.. كما تأكّد لي أن الأجناسَ الصّحافية، وهي قواعدُ المِهنة، ليست قارّةً ولا جامِدةً، بل هي نشيطةٌ مُتَحرّكة.. وفيها يستطيعُ الصحافي أن يَرتَقِي ويَتَرَقَّ في هذه المِهنة، من خلالِ تناوُلِ الأخبارِ والمقالاتِ وغيرِها، مِن زوايا متنَوّعة..

وهذا الفنّ استَوعبتُه لاحِقًا، وطبّقتُه، في الموادّ التي صرتُ أُعِدُّها للصّحافة المكتُوبة ثمّ الإذاعيّة:

زوايا المُعالجة يجِبُ أن تَتنوّع..

تَعلُّمُ الاستِقصَاء : وهو تحقيقٌ مَيداني يُبرز تأثير الأخبار على حياة الناس، وهذا يستغرقُ مُدّةً طويلة، ويُشكلُ مَصدَرًا رئيسيًا للمعلُومات

خُذ وقتَك الكافِي، وحتى مُدّة طويلة، أكيدًا ستَحصُلُ على "خَبطةٍ صَحافيّة".. وتكُونُ مَرجِعا في معلُوماتك واستِنتاجِك..

إنّ الصحافي كلّما ازدادَ إتقانًا لهذه المِهنة، تكوّنت له طريقةٌ شخصية للكتابة والإلقاء وغيرِهِما

وكنتُ أقتَرِحُ أن يُدرَّسَ فنُّ الاتّصال بمُختلفِ مَراحِل التعليمِ العمُومي.. إنه يُعَلّم النّاشئةَ كيف تَندمجُ التّقنياتُ مع الأخلاقيات، ومَجالاتٍ مَعرفيةٍ أخرى، لتَنشئةٍ أجيال تُحسِنُ التّواصُلَ والاندماجَ والتعايُش، اعتبارًا لكَون هذه المِهنة تُشكّلُ مَجالاً خِصبًا للإطلال على مجالاتٍ أخرى..

وهذا ما يُخوّلُ البحثَ والكِتابةَ في حُقولٍ مُتَنوّعة...

إلى تطوان!

أخبرَنا المَسؤولُ الألماني - عن تدريبِ الصّحافيّين في الرباط - أنّ لنا رحلةً جماعيةً إلى تطوان..

ويجِب أن نلتقيّ هُنا يومَ كذا، في ساعةِ كذا..

وسوف نَعُودُ في اليومِ التالي في ساعةٍ مُتأخّرةٍ من الليل..

وفعلا، التقَينا.. وكانت حافلةٌ بانتِظارِنا..

وجلسَ إلى جانبِ مقعَدي مُديرُ الدورةِ التكوينيّة، وهو ألماني..

لقد كانت رحلةً طويلة..

وفي البرنامجِ وقفةُ سِباحةٍ في شاطِئ "رِيستِينكا"..

وهناكَ كنتُ أنا وأحدَ المتدربين، مُعرّضَيْنِ للغرَق.. لقد جذَبَتنا الأمواجُ بعيدًا عن الشاطئ..

وتدَخّلَ المُديرُ الألماني مع نائبه، وهُما سبّاحان ماهِران، ونُوديّ على زَورقٍ كان غيرَ بعيدٍ منَ المَكان، وتمّ إنقاذُنا..

الرّحلةُ لم تَرُقني..

تُشبهُ ما أنا فيه من مدّ وجَزر..

وعادَت الحياةُ إلى ما كانت عليه ..

والأحداثُ فيها تتوالَى..

صديقٌ مُصحّحٌ أخبرَني أنّ عليّ بالحذَرِ من "فُلان"، اليدِ اليُمنَى للمُدير: "لقد حَضرتُ مناقشةً بينَهُما.. سألهُ المُديرُ عن فكرة تُراوِدُهُ بشأني، وهي الرّفعُ من راتِبِي.. قال عنّي: إنه شابٌّ مُهذّب، طَمُوح، وفيٌّ في عمَلِه، ويَستحقّ كلَّ تشجيع"..

أجابهُ نائبُه: "إذا زِدتَهُ في الأَجر، فإنه سيتكاسَلُ ويعتبرُ نفسَهُ ذا أهمّيةٍ كُبرى.. دَعهُ يَحلُمُ ويَعمَل.. يقُول المثَل: جَوِّعْ كَلبَكَ، يَتبَعُك"..

ثم أخبرَني صديقي أن عائقي الأول في "الأنباء" هو نائبُ المدير..

ومع ذلك زادني المُديرُ 50 درهمًا..

وأصبح راتِبي 350 درهمًا في الشهر..

وقد تأكّدتُ من مكِيدةِ نائبِ المُدير حتى قبل أن أسمع هذا.. أنا أُدركُ أنه لن يترُكني أتقدّم.. وأكثرَ من ذلك، سيعملُ على استِنزاف وتطويقِ مَوهِبتي.. ففي تلك الجريدة، يجبُ ألاّ يبرُزَ أحدٌ سواه..

وعُدتُ إلى عملي السابق، وهو إنجاز الصّفحَتَين 3و4 كل يوم، ثم أُعَنْوِنُ كلَّ خبَرٍ وكلَّ مراسلة.. وأرسُم لكل صفحة تصميمًا فيها مكانُ كل مادّةٍ صحافية..

وبعدَها أسَلّمّ الصفحتين، تصميمًا ومضمونًا، لنائبِ المُدير.. وهو يُسلمُهما للمطبعة..

وكنتُ أقوم بعملٍ آخَر، بدايةً من الساعة 11 صباحا، وهو مع مُحرّر الشؤون الدولية..

إنه يُملِي عليّ مَقالاتِه..

كان يقرأ تحليلاتِ وكالةِ الأنباءِ الفرنسية (AFP)، ثمّ يُملِي عليّ أحداثَ العالَم..

كان هذا العملُ يَستنزِفُ طاقتِي، ويَقتُل مَوهِبتي..

واقتَنعتُ أنّني لن أخرجَ عن دائرةِ الصحافي الهامشِيّ، ما دُمتُ في هذا الوَسط..

وقرّرتُ أن أكتُبَ بنفسِي..

وحَلّت ذكرَى "وَعد بِلفُور".. مُناسبةٌ لإبداء رأيي في القضيةِ الفلسطينية..

كتبتُ مقالاً ذيّلتُه بتوقيعي، وسلّمتُه مُباشرةً للمُدِير..

وفي صباحِ الغد، كان مقالِي منشُورًا..

النائبُ اختلَى بالمُدير..

وبعد الظُّهرِ دعاني المُديرُ إلى مكتَبِه.. وقال لي: "تَعلَمُ أنّني أُقدّرُ مَجهوداتِك، وأعتمِدُ عليك، وسأعتمِدُ عليك أكثر في العمل الجديد الذي سأُسنِدهُ إليك، وهو عملٌ مُهمّ: التّصحيح.. وابتداءًا من الغَد، سيكونُ عملُك في المطبعة مع المُصحّحين.. وسأزيدُ في راتبك الشهري 50 درهما"..

شكرتُ المُدير.. وأصبحتُ مُصحّحًا، بعد أن كنتُ مُحرّرًا..

ولا إشكال.. أدرَكتُ أن نائبَ المُدير هو من قَذَفَ هذه الكُرةَ الكريهة..

ولا مكانَ في هذه الجريدة إلاُ لهُ ولمُقرَّبيه..

- هذه مِهنةُ المَتاعب..

رصَاص المطبعة!

هي حُرُوفُ الرّصاص.. لي معها واقعةٌ غريبة..

لقد تأخّرتُ في العَمل، بمَطبعةِ جريدةِ "الأنباء"..

كنتُ أُصحّحُ مَوادَّ الجريدةِ قبلَ طِباعتِها..

والعَملُ في التّصحِيحِ هذه المرة قد تأخّر، لأنّ التّصحيحَ ليس مُستقِلاًّ بذاتِه..

هو مُرتبطٌ بمَراحِلَ سابِقةٍ ولاحِقَة..

هي سِلسلةُ مَراحِلَ تمُرُّ مِنها الجريدةُ قبلَ أن تصِلَ إلى القارئ..

تبدأُ بإعدادِ كِتاباتِ التّحرير، وتصِلُ إلى آلةِ الرّقانة: اللّينُوتِيب، وبعدها يأتي التّصحِيح، ثم التّصوير، والتّوضِيب، فالطباعة، وتجميعُ النُّسَخ المطبُوعة، ثم نقلُها في سيارةِ التوزيـع..

هكذا كان تنظيمُ الطباعةِ التقليدية..

إصدارَ الجريدة يُشبه مَحطاتِ القِطار.. فإذا وقعَ تأخيرٌ في محطة، فإنّ التأخير يطالُ المحطات القادمة.. وقد يبلغُ التأخيرُ عدّةَ ساعات..

وتلكَ الليلة بالذات، تأخّرَ تصحيحُ الجريدة بسببِ تأخيرِ الأخبار التي كان ضروريّا إدراجُها في عددِ الغد..

لكنّ الوقتَ هذه الليلَة يقترِبُ من مُنتصَفِ الليل..

وعليَ بتصحِيحِ ما تبَقّى من موادّ الجريدة..

وذهبَ تفكيري إلى بُعدِ المسافةِ بين مكانِ العَمل، والمكانِ الذي أسكُنُ فيه، وهو حيٌّ صَفِيحِي، بجِوارِ "حيّ اليُوسُفِيّة" بالرباط..

وإذا أخذتُ تاكسي إلى "حيّ اليُوسُفِيّة"، فمِن هناك يجب أن أتوجّهَ إلى الحيّ الصّفيحِي الذي أسكُنه، مشيًا على القدمَين.. إنها مسيرةٌ ما لا يقلّ عن نصف الساعة، في جُنحِ الظلام، تحت عَواءِ الكلابِ الضّالّة..

ولكي أحمِيَ نفسي من أية كلابٍ مُهاجِمة، أحتاجُ إلى حِجارة.. ومن أين لي بالحجارةِ في جُنحِ الظلام؟

فكّرتُ في تلك الليلة المُتأخّرة بالتّسلُّح بسُطُورٍ رَصاصيّة تُستَعملُ في الطباعة..

ذهبت عَيناكِيَ إلى أربعةِ سُطور رَصاصيّة مُلقاةٍ على الأرض، فوَضَعتُها في جَيبِي، لكي أتسلّح بها في حالةِ ما إذا هاجَمَني كلبٌ من الكلاب..

وبعدَ بِضع ساعاتٍ أخرى، انتَهى عمَلي التّصحِيحِي، وبدَأ الاستِعدادُ لتحريكِ آلةِ الطّباعة..

وبينما أنا أتأهّبُ للخُروجِ من المَطبعة، أوقَفَنِي أحدُ عُمّالِ المَطبعة: "قِفْ أيها اللّصّ! أنتَ تَسرقُ سُطُورَ المَطبعة.. اخْرِجْ من جَيبِك السُّطُورَ الرّصاصِية التي سرِقتَها!"..

كانت السّطُورُ الأربعة في جَيْبِي..

وفي الغد، نادَانِي المُدِير..

وسألَني عن السُطُورِ المَسرُوقة..

حَكيتُ له قصةَ الخوفِ في ليلةِ الكِلاب.. وقلتُ: "إنِي أسكُنُ في حيٍّ صفِيحي، لا ضوءَ فيه ولا أمان.. وأخذتُ 4 سُطور رَصاصية، لكِي أحمِيّ بها نفسي، في حالة ما إذا هاجمَتني الكِلاب.. وهذا هو الحاصِل"..

ابتَسمَ المُديرُ وقال: "لا تعبَأ.. أنا أعرفُ نزاهتَك.. ولا تقلق.. ومنَ الغَد، ستشتغلُ خلالَ النهار، وفي قسمِ التّحرير"..

شكرتُ المُدير..

وصرتُ أشتغلُ في النّهار..

وبهذا يَنتهي كابوسُ الليل..

وقلتُ في لحظة مِزاحٍ مع نفسِي: "النهارُ لِبَني آدم، واللّيلُ للكِلاب"..

وتَركَتِ الوِشايةُ في قلبِي جُرحًا عميقًا ..

لقد مرّ عليها أكثر من نصف قرن.. وما زلتُ أتألّمُ لذِكرِها..

أحمد الأخضر غزال

حُلمٌ يُراودُني مِن أيامي الأولَى بمطبعة "الأنباء".. سألتُ تِقنيًّا من مدينة "سَلاَ"، يشتغلُ في هذه المطبعة: "بماذا تُوحِي إليكَ المَطبَعة؟.."
أجاب: "إنها عِشقِي.. المَطبَعةُ حُلمِي.."
راقَنِي الجواب.. هذا نفسُ ما أتَمَنّى.. أنا أيضا أحلُمُ بأن تكُونَ لي مطبعة..
ضحك التّقني: "حتى أنا.. المَطبعةُ لها في نفسِيّتي سِحرٌ خاصّ.. جاذبيةٌ تُوحِي بنَوعٍ منَ العلاقات.. إنّ خلفَ الحُروفِ التي يشتغلُ بها المَطبَعيّون تَكمُنُ الرّوحُ الثقافية، وتَسكنُ الأفكار، وينمُو الإبداعُ ويتطوّر..
- أتمنّى أن تكُون لِي مَطبَعة .. وليس كلُّ ما يتَمَنّى المرءُ يُدركُهُ..
ومع ذلك، شاءت الأقدارُ أن أعملَ في مَطبعة، وأن أتعَلّمَ في مَطبَعة.. وأن أكتُبَ وأنا في مَطبعة.. وأن أناقشَ مُهندِسًا ألمانيًّا حول مُستقبلِ المَطبعَة، على أساس تغيِيرِ حُروفِ المطبَعة ..ولستُ أدري كيف فَلَتَ من لِساني هذا السّؤال: "هل نَشتَرِكُ في إقامةِ مَطبَعة؟.."
فورًا، ودون تَرَدُّدٍ أجاب: "أنا مُوافِق.. نكُونُ شريكيْن.."
وها نحنُ نتّفقُ على مشروع مَطبَعةٍ حتى دُون رأسمال..
وسألتُه: "ما رأسُمالِ المطبعة؟.."
أجاب: "حوالي 70 عامِلاً.. وهذا العددُ يَكشِف المَبلغَ المالي المطلوب.."
قُلتُ: "ما نستطيعُه الآن، هو أن نَحلُمَ بإنشاءِ مَطبعةٍ في الخيال.. هذا في المَرحلةِ الحاليّة.."
وأَكملَ التّقنِي: كثيرٌ من المشاريـعِ تَبدَأُ في الخيال.. وعندما تتَهيّأ الإمكانيّات، نُطبّقُ ما في الخيالِ على أرضِ الواقِع..
وأَضَفتُ: "سنَبدَأُ من الآن.. من الخيال.. ولا مُستحيلَ في الخيال..
وها هو مشروعُ المطبعة قد أصبحَ ساكِنًا في خيالِي.. وفي أعماقِي، صارت المَطبَعةُ تَكبُر.. إنّني أُفكّرُ جِدّيًّا في "مَطبعةِ المُستقبَل"، تلكَ التي تَحَدّثَ لي عنها صديقي المُهندِسُ الألماني الذي جاء إلى الرّباط، للإشرافِ على تركيبِ آلةِ "الرُّوتاتِيف" التي اشتَرَتها مطبعةُ "الأنباء" من ألمانيا..
ويا عَجَبًا! التقَيتُه - فيما بعد - صُدفةً بشارع محمد الخامس.. ودعاني إلى كأسِ شايٍ في مقهَى "بالِيمَا"، قُبالةَ البرلمان..

كُنتُ سعيدًا بهذه الجَلسة ..حَدّثتُهُ عن عالِمٍ مَغرِبِي اسمُه "أحمد الأخضَر غَزَال"..
لقد قَطعَ أشواطًا في أبحاثهِ الهادفة لإقامة مَطبعةِ المُستقبَل..
ويشاءُ القَدَرُ أن ألتَقيَّ هذا العالِمَ بعد سنوات، وأُجرِيَّ معهُ ثلاثَة حِواراتٍ صُحُفيةٍ بجريدةِ "الخضراء الجديدة.."
كما يشاءُ القَدَرُ أن ألتقيّ هذا العالِم، أحمد الأخضر غزال، وأنا على رأسِ هذه الجريدة بطنجة (الأعداد: 224 و225 و226) - ماي ويونيُه 1997..
ثُم يشاءُ نفسُ القَدَر أن أعيشَ - بنَفسِي - عصرَ المَطبَعة، وهي مُختزَلَةٌ في جهازٍ إلِكترُوني أسماه عالِمُنا الكبيرُ "الحاسُوب" الذي يقُومُ بكُلّ تِقنيّاتِ المَطبعة..
لقد وَصَلَت إلى وقتِنا الرّاهنِ "مَطبَعةُ المُستَقبَل.."
وأنا على مَوعدٍ آخرَ مع نفسِ القَدر.. وهذه المَرّة قد أراد أن تكُون لي هذه المطبعة في طنجة: "مَطبعةُ إفزارن" التي يُديرُها ابنِي "نبيل .."كما تمنّيتُ أن ألتقيّ من جديدٍ بصديقي المُهندِس الألماني، لكي أضبطَ معهُ لقاءًا مُباشِرًا مع "الأخضَر غزال": "خبيرِ الحَرفِ العَرَبِي".. لكن هَيهات! لقد رحلَ العالِمُ المغربِي الكبير إلى دار البقاء..
ولم تَبقَ من ذِكراهُ إلاّ أنهُ ذُو براءاتِ اختراع، بحُكمِ أنهُ هُو اشتَغلَ لمُدّةِ عُقُودٍ من الزّمَن في تطويرِ الحرفِ العَرَبِي.. وبفضلِه يَتبَوّءُ الحرفُ العربي مكانةً فاعِلةً في عصرِ العُلومِ والتّقنيّات..
لهُ قواميسُ ومَعاجِم.. وأعَدَّ حُلُولا تِقنيّةً لمشاكلِ الكتابة العربية..
وفي مَطلع استقلال المغرب، عيّنهُ السُّلطانُ محمد الخامس مُديرًا للحَملةِ المغربيةِ لمُكافحة الأُمّيّة.. وبفضلِ حملةِ مُحاربة الأميّة، بإشراف السّلطان، وهي حملةٌ فريدةٌ من نوعِها في العالَم، تمّ في المغرب رفعُ الأمّيّة عن حوالي مليون مغربيةٍ ومغربِي بين 1957 و1958.. وكان هذا برنامجًا يَخُصُّ كلَّ مُواطنٍ لا يتَعدَّى 40 سنة من عُمره..
لقد تعلَّمَ كثيرٌ من المغاربة، ومنهُم من أصبحوا موظّفين، ومِنهُم الكاتبُ المغربِي الشهير "محمد شُكرِي"، صاحبُ السّيرة الذاتية المُترجمة إلى عدة لغات: "الخبزُ الحافِي"..

أم كلثُوم

في "الأنباء"، حدَثت لي صَدمَتان: إحداهُما في وزارة الشبيبة والرياضة، والثانية: أثناء مَجِئ أمّ كلثوم إلى الرباط (مسرح محمد الخامس، 1968).

طلبتُ من المدير "محمد المسفيوي" أن أُجرِيّ حوارا مع وزير الشباب المغربي.. فقَبِل المدير..

-وتَوجّهتُ إلى الوِزارة.. استَقبَلَنِي الكاتبُ العام.. وشَرَحتُ له الهدفَ من الحِوار، وهو "الحالة الرياضية" في المغرب..

تأمّلَني الكاتبُ العامّ من قَدَميّ إلى رأسي..

وفهمتُ أنّ الموضوعَ كبير، والصحافي صغير.. لقد كان الكاتبُ العامّ يُركزُ نظراته على حذائي..

وتذكّرتُ أستاذة التاريخِ والجغرافية في ثانوية مولاي إسماعيل بمكناس.. تذكّرتُ أنها أخرَجَتني من القسم، وقالت : "لا تَعُد إلى هُنا، إلاّ وفي قدَمِك حذاءٌ جديد"..

وما زال الكاتبُ العام يُفكّر، ولا يدري كيف يُجيب..

ولكنه في الأخير أجاب.. لقد طلب مني اسم مدير الجريدة التي أشتغل بها، والعنوانَ والهاتف، واسمي الشخصي والعائلي..

سجّلَ هذه المعلومات في ورقةِ بمكتبه، وقال: سأبحثُ مسألةَ الحوار مع السيد الوزير، ثم أُجيبُك..

شكرتُه وخرجتُ..

ولم يأتِني أيُّ جَواب..

كانت هذه الخيبةُ الأولى..

وفي "الأنباء" أيضًا، خيبةٌ ثانية: حوارٌ غيرُ مُمكِن مع سُلطانة الطربِ العربِي السيدة أم كلثُوم

لقد حضَرَتْ إلى الرباط عام 1968، لإحياء سهرة في مسرح محمد الخامس..

والرباط مهزُوزةٌ عن آخِرها..

أرسلني المديرُ إلى الفنان أحمد البيضاوي..

استَقبلني في مَكتبِه بالإذاعة، ومعه مجموعة من الفنانين المَغاربة المعرُوفِين.. وأخبرتهُ أني أَوَدُّ إجراء حوارٍ مع أمّ كلثوم..

وغضبَ من طلبي.. كيف يتَجرَأُ هذا المبتدئ في الصحافة على إجراء حوارٍ مع أمّ كلثوم؟

كان غضبُه شديدا..

وأنا لم أفهَم.. هل في المسألة، هذه المرة أيضًا، مُشكلُ حِذاء؟

وعندما خرجتُ من مَكتبه بالإذاعة، تفَقّدتُ حذائي، اقتَنعتُ أن الأستاذ أحمد البيضاوي قد رأى في حِذائي ما غاب عني..

ولعنتُ حِذائي، ثم عُدتُ إلى الجريدة خاوِي الوِفاض..

وطمْأنتُ نفسِي، في حالة هُدوء: "الحوارُ إذا لم يتَيسّر هذه المرّة، فسوف يتَيسّرُ في وقتٍ آخر، مع شخصيةٍ أخرى، وحتى مع شخصياتٍ كثيرات..

رُبّما عندِي تقديرٌ غيرُ سليم.. إنّني أتصوّر الحياةَ بسيطة.. وهي ليست كذلك.. إنها لا تخلُو من تعقيدات.. ويجبُ أن أعيدَ النظر.. إن المعرفةَ وحدَها لا تكفي.. لا بُدّ أن تكُونَ المَعرفةُ مُعزّزةً بمَظهرٍ لائق..

فمتى يكونُ مَظهَرِي لائقًا؟ لا جواب!

وأدركتُ أن القضية، جُملةً وتَفصيلاً، هي قضيّةُ "حِذاءٍ جَديد.."

وأمامَ "الحِذاءِ الغائب"، تَكَسّرَت كثيرٌ من الأحلام..

وأدركتُ أنّني ما زلتُ رهينًا لعقليةِ المظاهر!

وما زالت نفسُ العَقلية سائدةً إلى الآن، وأنا أكتبُ هذه "المُذكّرات.."

ما زالت المَظاهرُ هي السّائدة.. فكُنْ مَن شِئتَ، إنكَ لن تتَقَدّمَ بدُون حِذاء!

- وستَجدُ دائمًا في طريقكَ مَن يُذكّرُكَ أنّ أزمتَك الحقيقيّةَ هي "أزمةُ حِذاء!"

انزلاقاتي المهنية

هذه بعضُ انزلاقاتي.. وأُوصِي بتَجَنُّب تِكرارِها..

انزلاقاتٌ وقَعَت لي في مَراحِلَ مُتفاوتةٍ من المُمارسَة.. وبالعودةِ إليها، أقفُ على مَصادِرِها وأسبابِها، وأكتشفُ ما كان يُمكنُ أن يُتجاوزَ ويُنسَى ويُصحَّح، وما أحدثَ خُدُوشًا في نَفسيّتِي..

ومن انزِلاقاتِي التي تَستَوجبُ التّدارُك:

1- ينتابُني أحيانا، وبشكلٍ لاشُعوري، أنني كثيرُ الانتِباه لدَرجةِ أنّني لا أُخطِئ.. ومع ذلك، الأخطاءُ دائما واردة.. وعليَّ بالانتِباه إلى أنّ مِن الأخطاءِ نَتعلّم.. ضرورةُ الاستِفادةِ من الأخطاء..

2- قد أعتقدُ شُعوريّا أو لاشُعوريّا أنّني أَمهَرُ من غيري.. وهذا أيضًا خطَأ، فهذه المِهنةُ كغيرِها، مُنافسةٌ مُستَمِرّة.. والصحافي في سباقٍ دائمٍ مع نفسِه ومع غيرِه.. إنه في بحثٍ مُستمِرّ عن جديد، وغربلةٍ لا تتَوَقّف، في أجواءِ أفكارٍ مُتلاحِقة، مُتزاحِمة..

3- التّطوُّرُ المِهني هو الآخرُ وارِد.. إنه مُمكِنٌ مع الوقت.. يَحدُثُ مع الزّمن.. مع التّراكُم المَعلوماتي، ومع الحصادِ المَعرِفي.. ويُخطئُ مَن يَحسِبُ أنّ التّطوُّرَ غيرُ مُمكِن..

4-النجاحُ يتحَقّقُ مع الوقت، لا دَفعةً واحدة.. خُذْ وقتًا كافيًا لتحقيقِ نجاحٍ كامِل.. ولا تنسَ العمَل.. ثُمّ العَمَل..

5 -الصحافةُ من المِهَنِ التي قد تُغرِقُ البَعضَ في النّميمَة، والغِشّ، والزّبونية، والانتِهازية.. وجَب الحَذَر.. هذه سلبياتٌ قد تتَحوّلُ إلى عادات..

6- الغُرُورُ من الأخطاءِ السّلُوكيّة في مِهنةٍ تَحكمُها النُّجوميّةُ المَظهَريّة.. الاغتِرارُ مرَضٌ نَفسي..

7- السّرقةُ الأدبية.. هذه أيضًا من المَظاهرِ السّلبية التي يتَوجّبُ التّخلُّصُ منها.. الاعتمادُ على المَجهودِ الشخصي، وعلى البحثِ والتّحرّي والتّدقيق، لتَقديمِ استِنتاجاتٍ مَبنيّةٍ على أساسٍ سليم..

8- الصحافةُ ليست هي اللّغة.. اللُّغةُ أداةُ عمَل.. والصحافةُ مِهنة.. إنها رسالةٌ تَهدِفُ إلى ضبطِ الحقيقة، والحِفاظِ على المِصداقيّة، وإلى حُسنِ توجيهِ الرّأيِ العامّ..

9- أثناءَ المُمارسة: الإجابةُ على الأسئلةِ المِهنية: مَن فَعلَ ماذا؟ متى؟ أين؟ لماذا؟ كيف؟ الإجابةُ السليمةُ تُشكّلُ حِصنًا للوقايةِ الذاتية، ولِحمايةِ "مِهنةِ المَتاعِب.."

الوثيقة المفقودة

في تلك الفترة، التحقَ صحافيٌّ بجريدة "الأنباء"، وأرسلهُ الأستاذ محمد الطنجاوي لتغطيةِ "توقيعِ اتفاقيةٍ مغربيةٍ" مع إحدَى الدول..

الصّحافي أنيق، له طمُوح، وسينجحُ لاحِقًا في المِهنة، وخاصةً في العَملِ الإذاعي..

هو حديثُ العهدِ بالجريدة، وذهبَ إلى عُنوان الاتفاقية..

ثم عادَ إلى الجريدة..

هذه "تغطيةٌ" سريعة..

فماذا حصَل؟

إنّ وثيقةَ الاتفاقية قد اختَفت..

وتحَرّكَت الجهاتُ المَسؤولة، ولم تجِد للاتفاقيةِ أثرا..

وبالرّجوعِ إلى الصُّور، تبيّنَ أن شخصًا غيرَ معرُوف كان منَ الحُضور..

من هو هذا الشخصُ الأنِيق؟

بحثُوا عنه، وتعرّفُوا عليه..

إنه مبعُوثُ جريدة "الأنباء"..

ماذا فعَل؟ بعد التّوقيع، أخذَ الوثِيقة، ووَضعها في جَيْبه..

كان يعتقد أن هذه هي "التّغطية الصحافية"..

وتدخّلَ الأستاذ الطّنجاوي، وتدخّل الوزير.. وتأكدَ للجميع أن هذا الشاب لم يفعل هذا بسوءِ نيّة.. كان يَعتقدُ أنّ مُهمَّتَهُ هي أخذُ الوَثيقة، ووَضعُها في جَيْبه، ثُمّ تسلِيمُها للمُدير..

وبعدَها، أدرَكَ أن دورَه هو إعدادُ مُراسلةٍ قصدَ النشر، وفيها مَعلوماتٌ عن الاتّفاقية..

وهذه الأدواتُ المِهنيّة بحاجةٍ إلى تدريب..

وقد تأكَّد للجميع، أن هذا صحافي مُبتدئ، بحاجة إلى تكوين وتأطير، ومَعرفةٍ بشأنِ عملِ المَبعوثِ الصحافي إلى مَوقعِ الحَدث..

وهذا الشاب الذي انزَلَقَ في عَمله بهذه الطريقة في أيامِه الأُولى، التَحقَ بالإذاعة، فتَعلّمَ المِهنةَ من أساسِها، وأصبحَ من الإذاعيّين المُتألقين..
وهذا نمُوذجٌ للأخطاءِ التي قد يقعُ فيها أيُّ صحافي، خلال بدايةِ المُمارسةِ المِهنية..

- **والحلّ: إجراءُ تدرِيباتٍ تُركّزُ على أسبابِ الأخطاء، وكيفيةِ تجنُّبِها..**
- **المُراسِلُ الصّحافي، ما دَورُه بالضّبط؟ وكيف يُمارسُ عملَهُ الميداني؟**
- **المُراسلةُ ليست كتابةً وصوتًا فقط، بل هي أيضًا انضِباط: أين تَبدَأُ المسؤولية؟ وأينَ تَنتَهِي؟**

جريـدة "الشعب"

صرتُ أتعاوَنُ مع جريدةِ "الشعب" التي كان يُصدرُها الشيخ "المَكّي النّاصري".. هو منَ "الحركةِ الوطنيةِ المَغربية"، وزيرٌ سابِقٌ للأوقافِ والشؤونِ الإسلاميةِ والثّقافة، ورئيسٌ للمَجلسِ العِلمِي بوِلاية الرّباط وسَلا..

مُؤسّسُ "حزبِ الوَحدةِ المَغربية" في1937.. الحزبُ تمّ حَلُّه في 1960..

وقد أجرَى هذا اللقاءَ التّعارُفِي معَه، صديقِي "أبو بكر المريني"، رحمهُ الله..

ذهبنا إلى منزلِ "المَكّي النّاصري"، على مَقرُبةٍ من ثانوية "دِيكارت" بالرباط، وأطلَعَني على طبيعةِ عمَلي المُقبِل: أريدُك أن تُترجِمَ لجَريدَتِي كُلَّ الإعلاناتِ المُبوَّبة التي ترِدُ على الجرِيدة، منَ الفرنسيّة إلى العربية، لكي نقُومَ بنَشرِها.. وسيَكُونُ لك عن هذا العمل، مَدخولٌ شهرِي في حُدُودِ 150 درهما.. وخطرَ ببالي أن هذا مُهِمّ.. عملٌ إضافِيّ سَوفَ أستَعِينُ به..

وصِرتُ أشتَغِلُ بالجَرِيدتيْن معًا: "الأنباء" و"الشّعب"..

وفي جريدةِ "الشعب"، ألتقِي بالإذاعي الأستاذ "محمد الخَضِر الرّيسُوني"، ابنِ تطوان، وهو - رحِمهُ الله - كاتبٌ إذاعي، وله قصصٌ ورِواياتٌ ومَسرحيّات... كلُّ واحدٍ منّا يقومُ بعمَلِه..

ونشتغلُ ونتَحدّثُ في الثقافة ورِسالةِ الصّحافة، وشُؤُون الحياة..

أديبٌ طيّبٌ مُتخَلّق.. أمضَى حوالي 40 سَنة في العَملِ الإذاعِي..

القمّةُ العَربيّة

دجنبر 1969 :انتدَبَتنِي جريدةُ "الشعب "لتغطيةِ أشغالِ مُؤتمرِ القمّةِ العَربِي -

ذهبتُ إلى فُندُق "هِلتُون"، وأخَذتُ مَكاني في الصّالةِ الكُبرَى، بانتِظارِ "الجَلسةِ الافتِتاحِيّة" للقمّةِ العَربيّة..

ووَصلَ إلى المِنَصّةِ الحسنُ الثاني، مَلكُ المغرب..

"المَملكةُ المَغربية" هي الدولةُ المُضِيفة.. وها هو المَلكُ في المِنصّة.. أنيقٌ فَصِيح.. إنه نَجمُ هذه القمّة..

قِمّةٌ حَضرَتها 14 دولَة عربية..

والصّحافيّون يَنتَظرُون أن تُقدّمَ الدّولُ العربيةُ استراتيجِيةً مُشترَكةً لمُواجهةِ إسرائيل بعد إحراقِ "المَسجدِ الأقصى".. لكنّ القادةَ العَرب افتَرَقُوا.. لقد كانت الأولويةُ للخِطابات..

وحَدثَ الفراقُ قبلَ أيّ قرار.. وعادَت الحالةُ العَربيةُ إلى ما كانت عليه..

وها هي القمةُ تنعَقد.. والدّولةُ المُضِيفةُ تقومُ بالواجِب..

وإلى الآن، ما زالَ العربُ في تَشَرذُمٍ واختِلافات..

والجَمِيعُ يتَساءلون.. ويتَبادلونَ نفسَ الأفكار.. بنفسِ الطريقة.. ونفسِ الأسئلةِ القديمة.. وفي هذا، تتَشابهُ المؤتمرات العربيةُ..

يختلطُ فيها ما هو ديني بمَا هو سياسي وما هو ذاتي..

الزّواج

يُونيو 1969، قرّرتُ أن أتزوّج..

ذهبَ والدي إلى مكناس، وبعدَ أيّامٍ عادَ إلى الرباط، لكي نسكُنَ معا.. وقد سعدتُ كثيرًا بالسّكن المشترَك، وأنا مُحاطٌ بأبي وأمّي وإخواني..
قال لي الوالد: لقد خطَبتُ لكَ زوجة.. إنها من اختيار أختك "ميمونة"، وأنتَ تعرفُها.. هي زهور، ابنةُ الجارِ.. سيدي محمد دويرِي..
كدتُ أطيرُ من الفرَح.. وأجبتُ والدي: نِعْمَ الاختيار.. مُوافق.. وعلى بَركةِ الله...
ذهبتُ إلى مكناس، والتقيتُ بوالدِها.. أعرفُه جيّدًا.. هو من أَخْيَرِ الناس.. تاجِرٌ أمين.. لَبِقُ الحديث.. كلّما زُرتُ منزلَ أختي، أذهبُ إليه، ونتبادلُ الحديث، والأخبار، ونتكلمُ في كلّ أمورِ الدّنيا، وقضايا الساعة، والحياة في الرباط...
ويحكي لي بعضَ النُّكتِ القديمة..
ونتبادلُ حتى الحِكَم، والمَقولاتِ التراثيةَ التي ما زالت مُتداولَة..
ويحكي لي عن الحياة في الزمنِ القديم..
وهذه المرة، قلتُ له إنني جئتُ في أمرٍ حَدّثكَ أبي بشأنِه..
ضحكَ الرّجُل: "إنك بمنزلةِ ابني.. ويا مرحبًا.."!
وعُدتُ إلى الرّباط..
وصِرْنا نتبادلُ الرّسائل، أنا والبنت التي ستكونُ أُمًّا لأبنائي: نبيل، عزيز، سمير..
وبفَضلِها تَرَبّوْا أحسنَ تربية، وأحرَزُوا على أعلَى المَرَاتبِ الجامعية..
ومنذ زواجِنا إلى الآن، وهي تقومُ بما اتّفَقنا عليه: البيتُ مسؤوليتُها، والعَمَلُ مسؤوليتي..
والأطفالُ نُربّيهم على العِلْم، والمعرفة، والتّعايُش..
وعلى هذه القِيم، ما زِلْنا مُواظِبين..
وكُلَّ يوم، والدةُ أبنائي على موعد مُحدَّدٍ مع القراءة..
هي تقرأ كل يوم..
وأحسنُ القراءات عندها الأدبية والإنسانية.. تستفيد منها وتستمتع بها ..هذه

مبادئُنا في البيت، وخارجَ البيت، ومع الناسِ جميعًا، بلا استثناء..
وهكذا نُريحُ ونَستريح..
وهكذا أيضا، تكونُ نقاشاتُنا في ما يُفيدُنا ويُفيدُ غيرَنا..
ولقد مرَرْنا بظروفٍ صعبة.. وهي الحياةُ دائما كما هي: حالاتُ مدّ وجزر.. مرَّة لنا، ومرّة علينا.. ونترك العواصفَ تمُرّ، ثم نستعيدُ حياتَنا الطبيعية..
ونعملُ معًا على إتقان لُعبةِ الاختلاف..
وكلٌّ منّا يستوعبُ أن عليه واجبَ عدمِ تحويل الاختلافِ إلى توتير الأعصاب ..وأصبحنا نُتقِنُ تدبيرِ الاختلافات..
ونتغلَّبُ عليها.. ونُحوّلُها إلى ما يفيدُ سلامةَ السّكّة..
وأسعدُ أيامِنا عندما يَحضرُ الأحفاد، وينطلقُ "الشغَبُ الطفولي"..
ونكتشفُ أنّ اختلافًا، بين جيلِنا والجيلِ الصّاعد.. ونقول لهم: هذا الاختلافُ لا يعني الجنوح إلى صراعٍ للأجيال..
ثم نتّفقُ ونَضحك..
ويعودُ التعايُشُ بين جيليْن يَجمعُهما زمنٌ واحد، وتُفرّقُ بين تصوُّراتهما مسافاتٌ في الزمانِ والمكان.. وأيُّ اختلاف بيننا يقودُ حتما إلى مائدةِ الوفاق.. فنضحكُ معا..
ونفرحُ معا.. ونَحلُمُ معًا..
والحياةُ مُستمرّة..

مهاجر إلى "بَلجيكا"

زَوجَتِي حامِل..

اتّفَقنا على ما يلي: هي تَبقَى مع أسرتِها في مَكناس، مع أمّي وأبي، بانتِظارِ مَوعدِ الإنجاب..

كتَبتُ لها ورقةً فيها: إذا كان المَولودُ طفلاً، فاسْمُه هو "نَبِيل"..

هذا مَا اتّفَقنا عليه..

وبعد الإنجَاب، ستَرحلُ زوجتِي ومَولُودُها، مع أبي وأمّي وإخواني، إلى مَنزِلِ والدي في الرّيف، وتحديدًا بِبنِي تُوزِين.. وأنا ألتحِقُ بِهِم هُناك، في نهايةِ السّنة الدّراسية، ثم نَنتَقِلُ إلى الرباط، لكي أستأنفَ عمَلي المُرتَبِطِ بالصّحافة..

هذا هو برنامجُنا القادِم..

والآن، حَان وقتُ سَفري إلى بلجِيكا.. وسنبقَى على اتصالِ بالمُراسَلات..

- 1971: صَديقٌ من الرّباط سَلّمَنِي تَوصيّةً إلى أحَدِ أقاربِهِ في "بلجِيكا"، وفيها عُنوانُه وهاتِفُه، لكَي أتصِلَ به، وهو لن يترَدّدَ عن مُساعَدَتِي، في حَالةِ الاحتِيّاج..

ثم انطَلقنا أنا وصديقي "البِيضَاوِي" من الرباط، باتّجاهِ تطوان..

"البِيضَاوِي" سائقٌ بجريدةِ "الأنباء".. فكّرَ أيضًا في هِجرةٍ إلى الخارج لتحسين ظروفه المعيشية.

وَصَلنا إلى الحُدود المغربيةِ مع "سَبتَة" المُحتَلّة..

وعلى الحُدُود، أثارَ انتباهَ "البِيضَاوِي" شخصٌ على مَتنِ سيارتِه، وهو يقُومُ بإجراءاتِ الدّخولِ إلى سبتَة..

أجابهُ ذلك الشخص: "أنا مُسافرٌ إلى برُوكسيل، ومَرحبًا بكُما إذا تقاسَمتُما معي تكاليفَ السّفر"..

اتّفَقنا معه على مَبلغِ الرحلة..

ولكُلّ واحدٍ منّا حِصّتُه..

رَكِبنا سيّارتَه، وأخَذنا الطريقَ معًا..

وبِتْنا الليلَ في هذه الطّريقِ الإسبانيةِ الطّويلة..

وبعدَما وصَلنا إلى باريس، توقّفَت بنا السيارةُ عندَ "بقّال".. كُنّا بحاجةٍ إلى تغذيةٍ سريعة..

لاحظَ البَقّال أنّنا نتكلمُ "الدّارِجة"، فسألَنا: أنتُم مَغاربة؟

قُلنا "نعَم".. وابتَسَم: "مَرحبًا بكُم.. أنا يهُودي مغربي.. ماذا تُريدُون؟"..

اختَرنا بعضَ الاحتِياجاتِ الغَذائيّة..

ودَعا لنا بالسّلامة.. وقال لنا: "لا تخافُوا من الهِجرة.. الهِجرةُ ليست جديدة.. هي دائما موجُودة.. والعالمُ دائمًا مُهاجِر.. وعلى كلّ إنسان أن ينظَرَ إلى الأمام"..

كلمةٌ من هذا الرّجُل لا أنساها..

ومعهُ الحقّ.. علينا ألا ننظُرَ إلى الوراء.. دائما إلى الأمام..

وتدَخّل فرنسيٌّ كان واقفًا بعَين المكان: "أنا مَن أسّسَ أولَ سِكّةٍ حَدِيديّة عام 1912، بين الرباط والدار البيضاء"..

عجِيب! إن العالَمَ فِعلاً صغير..

وها نحنُ نلتَقِي بأشخاصٍ نَسمعُ منهُم ما يُشجّع..

وتبادَلنا الابتسامة.. والتحيةَ الحارّة.. مع الشّكرِ الجَزِيل..

وانطَلقَت بنا السّيارة..

وبعد ساعاتٍ قليلة وَصَلنا إلى العاصِمة البَلجِيكية..

في بروكسيل، وَقَفنا نَنتظِرُ حظَّنا ..

وشاهدَ "البِيضَاوِي" سيارةً كبيرةً، وقد توقّفَت على مقرُبةٍ منّا..

قال لسائقِها: "إنّنا من المَغرب، ونُريد العَمل"..

أركبَنا السائقُ بجانبِه، وقدّم لنا نفسَه..

أنا المَسؤُولُ الأولُ عن شركةٍ لإنتَاجِ البيوت المتنقلة على عجلات Caravanes Delvaud بضَواحِي مدينة "Namur"..

وفي الطريق، تبادَلنا الآراء بشأن الهِجرة.. وقال: إنه هو شَخصيًا، حتى وهو "الباترُون"، يعمَلُ بيَديْه، ولا يتوقفُ عن الاشتِغال.. ويَكره مَن يغُشُّ في العمَل..

وقال أيضًا: "لا تهُمُّني الدّبلومات، تهمّني المَردُودِيّة.. والعملُ الجادّ.. والضميرُ المِهنِي"..

بِتْنا في غُرفةٍ داخلَ مَعمَلِه..

وفي الصباح، في المَوعدِ المُحدّد لبدايةِ العمَل، وصلَ "الباترُون" والعُمّال، وبدأنا نشتغل..

كان العملُ المُحدَّدُ لي نَقلُ قُضبانٍ حِديديّةٍ من وَسطِ المَعملِ إلى مَكانٍ آخَر..

أنا لستُ من النوع الذي يتَحمّل مشاقَّ العملِ العَضَلِي، ولكنّني سُرعانَ ما صِرتُ أعتاد..

وفي هذه الشّركة، أسكَنَنا الباترُون وشَغّلَنا..

اشتَغلنا عِندَه معَ عُمّالٍ عادِيّين، بِضعَةَ أسابِيع..

والباترُون ليسَ مُرتاحًا لرفيقِي "البِيضاوِي"..

وقالها بصراحة: "أنا قلقٌ منه.. لقد أساءَ التّعبير.. وأساءَ المُعاملةَ داخل المَعمَل"..

واضِحٌ أنهُ سيَطرُدُنا..

اتّصلتُ هاتفيّا بصديقِ صديقي الرّباطي..

وأخبرتُه أنّنِي فُلان.. وتبيّنَ أنّ الشخصَ الذي يُجيبُني هو بلجيكي.. سألني: "أين أنت؟ لقد أوصاني بك صديقٌ من الرباط، وما دُمتَ بحاجةٍ إليّ، فأنا رهنَ إشارتِك.. أين أنت؟ انتظِرنِي هُناك.. سوفَ آتِي إليك.. هل برُفقتِك أحد؟"..

قلتُ: نَعَم!

وبعد حوالِي ساعَة، حَضَرَت سيّارة، وفيها سيّدةٌ اسمها **Odette** وبرفقتها بَلجِيكيّان مُهذّبان.. طيّبان.. وكأنّنِي أعرفُهُما من زمان..

أخذَانِي أنا و"البِيضاوي" إلى مدينةِ "**Namur**"..

"البِيضاوِي" فضّلَ الذهابَ للعَملِ في فرنسا...ولم يُضيّع الوَقت.. أخذَ القِطارَ فورًا..

وفي فرنسا سيَشتغلُ عُقودًا من الزمن..

وأنا رافقتُ الزّائريْنِ البَلجيكيّيْن..

وقدّمَانِي إلى "**André Marcel**" في مدينةِ "**Namur**"..

استَقبَلَنِي "**André**" بحَرارة..

وفيما بعد، سيَحكِي لِي طبيعةَ العلاقةِ المَتِينة التي تَربطُهُ بصدِيقِنا الرّباطِي المُشترَك.. وقال لِي: "أنتُم المغاربةُ كُرماء.. وصديقِي الرباطي قد أكرَمَني عندما كنتُ في زيارةٍ سياحيةٍ للمغرب.. وأصبَحَت تربطُني به علاقةٌ أُسَريّة.. وأنا الآنَ أردّ له الجمِيل، وأُرحّبُ بك.. وأهلاً وسهلاً!

ثم سلّمَنِي مِفتاحَ مَتجَرِه الكبِير الذي فيه يَبيعُ أنواعًا فاخرة من الألبسةِ الجاهِزة..

وفي الطابقِ العُلوِي، تُوجَدُ شُقّة..

وقال لِي: "هذا هو مِفتاحُ المَتجَر.. ستَدخُلُ وتَخرجُ كما تُريد"..

ثُمّ دَعانِي إلى عَشاء..

ورافقتُه إلى مَطعَم..

وحَولَ مائدةِ العشاء، تَكَلّمنا كثيرًا.. وتعارَفْنا جيّدا..

وأمامِي تَحدّثَ في هاتفِه إلى صديقي الرّباطي..

وعَلِمَ منهُ أنّني في بلجيكا لمُدّة عامٍ فقط.. عامٍ دراسي..

وبعدَهُ سوفَ أعودُ إلى أُسرتِي ومِهنَتِي، بالعاصِمةِ المَغربيّة..

وأوصَلَني "André" إلى الشّقّة التي سأنامُ فيها داخلَ مَتجَرِه، على أن نلتقِي صباحَ الغد..

وقال: "إذا احتَجتَني في أي وقت؟ ليلا أو نهارا، فهذا هاتِفي.. رقمُه كذا.. الهاتفُ دائما في هذا المَكان.. وتستطيعُ استِعمالَه للاتّصالِ بي في أيّ وقت.. سأكُونُ هُنا غدًا في الصّباح الباكِر.. انتظِرنِي!"..

ودخلتُ إلى الشقّة..

جميلةٌ مُنظّمة..

ولم أنَم تلكَ الليلة..

أُفكّرُ في زَوجَتِي..

مَعهدُ الفُنونِ التّقنيّة

: 1972

"André Marcel".. أغلقَ مَتجَرَهُ، وأخذنِي في سيارتِه إلى مَعهدٍ معروفٍ في "Namur".. مَعهدٌ مُختصٌّ في الفُنونِ التّقنية.. واسمُهُ الرّسمِي:

Institut d'Enseignement des Arts et Techniques

سألَنِي المُدير: "هل تعرفُ أنّ الدّراسةَ هُنا ليست مَجانيّة؟ وأنك سَوف تُؤدّي..."؟.. قُلتُ: "نعَم"..

وتَسلّمَ منّي جَواز السّفَر..

وأعطاهُ صديقي "André Marcel" عُنواني.. وقال: "هذا الطالبُ مُقيمٌ عندِي، وهو حَسَنُ السّلوك.. وأنا أضمَنُه.. وهذه بِطاقتِي.. وهذا عَملِي.. أنا مسؤولٌ عن شركةٍ للألبِسة، وهي مَعرُوفةٌ في هذه المدينة"..

وبهذه الضّمانة، لم تَعُد المُؤسسةُ التّعليميةُ تُكلّمُني عن الأداء..

وسَألنِي مُديرُ المُؤسسة: "أنتَ صَحافِي.. وهذا مُسجلٌ في جوازِك.. فلماذا تُريدُ أن تتَعلمَ فُنونَ التّقنيّاتِ المَطبعيّة؟

قلتُ: "إنّني اشتَغلتُ في الصّحافة.. وسأعودُ إلى المغرب، لكِي أواصلَ الاشتغالَ في الصّحافة.. والصّحافةُ - كما تَعلَمون - ليست فقط أخبارًا ومقالاتٍ وتحقيقات وغيرها... إنها أيضا طِباعة.. وأتمنّى أن أدرُسَ الطباعة، وأن تكُون لي مَطبَعة"..

ابتسمَ المُديرُ..

وسَجّلَنِي طالبًا في الفُنونِ والتّقنيّات، تَخصُّص: "اللّينُوتِيب والمُونُوتِيب".. وهو التّخصُّصُ الذي سأحصُلُ عليه في نهاية الدراسة، على مِيزة "Prix Spécial"، والتّميُّز "Distinction".. مع شهادةٍ تُفيدُ أن الطالبَ مُتميّزٌ في عملِه وسُلُوكِه..

كان لي حُلمُ أن تكُونَ لي مَطبَعة..

وبعد سَنواتٍ قادِمة، سيَتَحقّقُ لي هذا الحُلم، بفضلِ مَجهُوداتٍ وتضحيّات..

وحُلمٌ من هذا الوَزن، يَستَحِقّ كثيرا من الصبرِ والتّضحِيّة..

ومن أجلِ هذا الحُلم جئتُ إلى بلجيكا..

ولو كنتُ أريدُ الإقامة، فأنا قد حصلتُ على "حقّ الإقامة"..

لكنّ ما يهُمّني هو أن أتعلّم ما أُرِيد..

وعليّ باستِكمالِ الدّراسةِ التّقنيةِ بتَدريبٍ في إحدى دُورِ النّشر..

وقبِلَتنِي للعمَل دارُ النّشر "Denis Bodden" في برُوكسيل..

اشتغلتُ هناك على آلةِ "اللّينُوتِيب"، وهي خاصةٌ بالتّصفِيف.. تُحوّلُ الحُرُوفَ النّحاسيةَ إلى حروفٍ رَصاصيةٍ بارِزة..

واطّلعتُ على تطوُّرِ الطّباعة، مُقارَنَةً مع ما هي عليهِ عِندَنا..

وتَبيّنَ لي أنّ النّشرَ مُقبِلٌ على ثَورةٍ تقنيةٍ أخرى، وتَطوُّرٍ في نشر المَعرفةِ العالمية..

كما تَبيّنَ أن الطّباعةَ تتَطوّرُ على نسَقٍ سريع، مُقارنةً مع الطّباعةِ التّقليديّة..

المَطبعةُ الجديدةُ تُسابِقُ الوَقت، والتّكلُفة، والجَودة..

ولا تُسيءُ للبِيئةِ الطبيعيّة..

ولا تُنافِسُها إلاّ الطّباعةُ الرّقمية..

وستظهرُ أنماطٌ أخرى من الطّباعة..

لم يطُل عملي في دار النشر البلجيكية..

ذهبتُ إلى المُدير.. وطلبتُ أن يَعذِرَني..

لقد علِمتُ أنّني أصبحتُ والِدًا..

زَوجَتِي أخبرَتني أنها قد أنجبَت طِفلاً..

ويجِبُ أن ألتحِقَ بها في المغرب..

وطَلبتُ من المُدير السّماحَ لي بالمُغادرة..

قال: كنتُ أتمنّى أن تبقَى معنَا.. نحنُ مُرتاحُون لعَملِك.. ونحتَرِمُك ونُقدّرك.. وسيكُونُ لك معَنا مُستقبلٌ جيّد.. إذا تيَسّرَ لك أن تبقَى معَنا، فهذا يُسعِدُنا..

واعتذَرتُ لسيادةِ المُدير.. وشكرتُه..

وسَلّمَنَي كُلّ مُستَحقّاتي..

وبحَثتُ في "ميزانيةِ العودة"، فوجَدتُها بحاجةٍ إلى مَزيد.. الميزانيةُ التي بحَوزَتِي لا تَكفِي..

وذهبتُ إلى محطّةٍ للوَقود، في مدينةِ "Namur"..

ومن الكلماتِ الأولَى، قبِلت رئيسةُ المَحطّةِ بتَشغِيلي..

أمضيتُ هُناك بضعةَ أسابِيع..

وتحَسّنَت المِيزانية.. وأصبحَ بإمكاني أن أُسافِر..

- عُدتُ إلى صديقي "André Marcel"..

كان في المَتجَر.. وتَحدَّثنا طويلاً..

وشاءت الأقدارُ أن أزُورَه بعد بِضعِ سِنين، وتحديدًا عام 1980، عندما أُرسِلتُ من قِبَلِ جريدة "L'Opinion" بالرباط، إلى تدريبٍ في "قسمِ الأرشيف" بجريدة "Le Monde" بباريس..

وبَقِينا على اتّصال بالمُراسَلة..

ونِقاشاتُنا دائمًا تَدُورُ حولَ قضايا الإنسان، في خضمّ التّناقُضاتِ الحَضارية..

لكنّ المُراسَلات تَوقفَت فجأةً مع صديقي "André Marcel".. ولم يعُد له أيُّ خَبر..

وما زلتُ أحتفِظُ، لهذا الصّديقِ البلجيكي الطّيب، بكُلّ مَعزّةٍ واحتِرامٍ وتقدِير..

في عُمقِه إنسانٌ وإنسانيّة..

وهذا قاسَمُنا المُشتَرَك..

إنهُ لا يُفرّق بين البشر..

كُلّ الناسِ عندَهُ إخوَة..

لا فرقَ بين واحدٍ وآخَر، في العِرقِ واللّونِ والجِنس..

العَودةُ إلى البلد

عائدٌ إلى المغرب..

وأصعبُ ودَاعٍ إنساني كان توديع "André Marcel"..

لقد سَالت الدّموعُ من عينيّ، عندَما خاطَبَتني السيدة حرَمُه: "أحمد! سَلّمْ على زَوجتِك.. وسنَكُون سَعيديْن باستِضافَتِكُما في مَنزِلِنا عندَما تأتيان عندَنا"..

سَقَطتْ منّي الدّموع..

هذه السيدةُ وهذا السيّد، فَضْلُهُما عليّ كبِير..

لا أنسَاهُما ما حَيِيتُ..

وبقِينا على اتّصَال..

وبعثَا لي، عندما وَصلتُ إلى المغرب، لِباسًا جميلاً، هديّةً منهُما، لأحدِ أبنائي.. وما زِلنا نحتفظُ به إلى الآن..

وأخذتُ الطريقَ مِن "Namur" إلى المغرب..

الطريقُ طويلةٌ شاقّةٌ في القطار.. يَومَانِ مُتتَاليانِ بينَ الوُقُوفِ والجُلوس..

وأحيانًا أنا جالِسٌ أو نائِمٌ على حقيبتِي..

تكدُّسٌ بَشرِيّ لم أرَ مِثلَهُ من قَبل..

واكتظاظٌ في هذا القطار الزاحفِ بنا من باريس إلى ما بعدَ مَدريد..

أنا ذاهبٌ إلى طنجة، ومنها آخُذُ حافلةَ المَساء، في اتّجاهِ "ثُلاثاء أزلاَف"، ومِنهُ في سيارةِ أُجرةٍ إلى جبَل "إكادُوحَن"..

هُناك مَنزلُ أبي..

ونحنُ في القطارِ فُرَادَى وجماعات، مُتكَدّسُون..

الناسُ هُنا من كلّ مكان..

والاكتظاظُ شدِيد..

وأنا لا أستَطِيعُ أن أقِف، أو أجلِس، ولا حتى أن أنام..

وبين الحين والآخَر، تخُونُني رُكبَتَايَ..

ومرّاتٍ سقَطتُ على حقِيبتي، في المَمَرّ..

وغَمَضاتٌ قد تُعِيدُني إلى اليَقظة..

وأتذَكّرُ أن حَقيبتِي فيها أغلَى ما جئتُ به: شهادةُ "الكفاءةِ المِهَنِيّة"..

وأتَنبّه.. وأعودُ إلى اليَقظة.. وأقولُ في نفسي إنّني أستطيعُ أن أقاوِمَ النّوم..

وتقُودُني الأحلامُ إلى المَطبعة..

إنّني أستَطِيعُ أن أشتَغلَ في مَطبعة، لكي أضبِطَ مِهنةَ التّصفيفِ على آلةِ اللّينُوتِيب..

أتصوّرُ أنّني أحملُ كنزًا في أصابِعِي..

ولأولِ مرّةٍ أُدركُ أن الدّرايةَ ليست فقط في ذهني.. الذهنُ وحدَه لا يكفي.. المِهنةُ تَرابُطٌ بين اليَديْن والذّهن..

والإتقانُ هو المَطلوبُ بعدَ هذه الدّراسَة..

ولن أطلُب في البدايةِ راتِبًا مُرتفِعا..

سأطلبُ عملاً في اللّينُوتِيب.. عملاً فقط.. بالعربية أو الفرنسية..

وهو يُخوّلُني تطويرَ العمل.. وإتقانَه.. والسّرعةَ في الإنتاج.. السّرعة مع الجَودة..

هذا ما أطلبُه..

أطلبُ العملَ في مِهنةِ اللّينُوتِيب..

أنا أُتقِن.. إذن، أنا مُقتَدِر.. وبالتالي مَقبُول..

والطّريق طوِيلةٌ جدا..

وأنا ما زلتُ أُخطّطُ لمُستَقبَلي المِهنِي..

إنّ الصحافةَ لا تُطعِمُ الخُبز..

وليست وحدَها كافيّة..

الحاجةُ إلى مِهنةٍ مُكمّلة، مثلَ التّصوير، والتّصفِيف، والإخراج، والتّقنيّات الرقمية، والمِهنِ المُوازية، مِثلَ التّرجمة، والأَرشَفَة...

المِهنُ التكميليةُ كثيرة، ويستطيع الصحافي أن يُتقِن إحداها، حتى لا يكونَ الاعتمادُ فقط على التحرير..

وأنا الآن أتقِنُ مِهنةً مُكمّلة، وهي في الطّباعة..

وقلتُ في نفسي: "لن أشتغلَ في البداية إلاّ في "اللّينُوتِيب" بالعربيةِ والفَرنسيّة.. وفيها سيكُونُ لي راتبٌ مُحترَم..

وبعدَ إتقانِها وإتقانِ إصلاحِ الأساسياتِ في هذه الآلة، والعملِ بضعَ سنِين، سأُقرّرُ ما أفعَل..

وفي ذِهنِي أمُورٌ أستَطِيعُ تَطوِيعَها..

وهذه معركةٌ أواجِهُها بإتقانِها، والاشتغالِ فيها، إلى أن تتحَسنَ أحوالي..

ولا مَضيَعة للوقت..

- لقد أصبَحتُ أنا وزوجَتِي أبًا وأُمًّا..

ابنُنا "نبيلُ" مَولودٌ في مدينةِ "مَكناس".. وأمضَى أُولَى شهُورِهِ في أحضَانِ أُمّه، بين أمّي وأبي وإخوتي في الرّيف، بانتِظارِ عَودتِي من بلجيكا..

وبدأَ "نَبِيلُ" يَنمُو..
وأمامَنا في المنزلِ يَكبُر.. ومَطالبُه تَكبُر.. ويُصِرُّ على مُرافَقَتِي إلى خارجِ البيت .. يُريدُ أن يَكتَشِفَ ما يَحدُثُ في الشارِع..
الطفلُ الأوّلُ في بَيْتِ الأُسرَة، له مكانَةٌ خاصةٌ..
وهذا السّن، هو في مَرحلةِ الاكتِشاف..
ورُوَيْدً رُوَيْدًا، آخُذُهُ في يَدِي..
وخارجَ المنزل، ألتَقِي أشخاصًا أعرِفُهُم..
وأوّلُ هدِيّةٍ كانت في اسمِ ابنِي "نَبِيل"، جاءَت من مدينةِ Namur.. ملابس طفل رضيع أرسَلَها إليّ الصديقُ البَلجيكِي العزيز André-Marcel الذي أعانَنِي أثناءَ دِراسَتِي في مَعهدِ الفُنُونِ التّقنيّة عام 1972..
وما زلتُ أحتَفِظُ بهذه الهديّة، بفضلِ عِنايةِ زَوجَتِي، ومعًا نعتَبِرُها أثمنَ هديّةٍ على امتِدادِ حياتِنا الزوجيّة..

وبعدَ ابنِنَا "نبيل"، سوف نُرزَقُ في وقتٍ لاحقٍ بابنِنا الثاني "عزيز"، ثم ابنِنا الثالث "سمير".. وكلّهُم جامِعيّون..

- **نَبِيل (ناشِر)**
- **د. عَزِيز (أستاذ باحث في الرّياضيّات، كاتب ومُلَحِّن)**
- **د. سَمِير (مهندس ودكتور في الإعلاَمِيّات)**

والحمدُ لله.. لا أحسنَ مِن تنشئةِ أجيالٍ صالِحَة..

صالِحةٌ لنفسِها.. وصالِحةٌ لغيرِها.. وللبَلَدِ ولكُلّ الإنسانية..

وبانتظارِ الأخبار السارةِ التي سوف تَحدُث، ما زلتُ في الطريقِ أفكّرُ وأخطّطُ وأحلُم..

والحافلةُ تشقُّ طريقَها إلى منزلِنا بالرّيف..

إن مسؤوليةَ الغد، تبدأُ من الحاضِر..

وأولُ ما سوفَ أعملُ عندما أصِلُ إلى منزلِ والدِي في الرّيف، هو الاستِراحةُ ثلاثةَ أيام..

وبعدَها آخذُ زَوجتِي وابنِي "نبِيل" إلى مدينة "سَلاَ".. وهناكَ أبحثُ عن مَنزلٍ للكِراء..

ثمّ أذهَبُ إلى العُنوان الجديد لجريدة "الأنباء" الحكومية، وهو "شارعُ المَدينة".. كلُّ من فيها يعرفُونَني..

وسَأطلُبُ من المُديرِ الجديدِ أن أعملَ في "اللّينُوتِيب"..

وإذا سارت الأمورُ كما أتوقّع، فسَوف أبقَى هناك.. وإلاّ أبحثُ عن مكان آخَر..

وهذه هي خُطّتي..

وسواءٌ هُناك أو في مكانٍ آخَر، العَملُ مطلُوبٌ على آلةِ "اللّينُوتِيب"..

وعليّ بالصّبر.. ثم الصّبر..

لقد كان بإمكاني أن أبقى خارجَ البلد..

الهِجرةُ إلى الخارجِ لم تَستَهوِني..

وأنا اليومَ أقبَلُ الهِجرةَ من الخارجِ إلى الداخِل..

وسواءٌ في مكناسَ أو الرباط أو غيرِهِما، هذه بلَدِي.. إنّني في بلدِي..

وأكيدًا سوفَ أنجَح..

إنّني أُسَيّجُ نفسِي بحَصانةِ الكفاءة.. والإنتاج..

وبهذا السيّاج، أُحصّنُ نفسي، أنا وزوجتي وأبنائي، من صُعوباتِ الحياة..

وفي دماغي سياجٌ آخَر: تحديدُ النّسل.. وهذه مسألةٌ سنَبحثُ فيها، أنا وزَوجتِي..

وأنا أفَضّل ثلاثةَ أطفال فقط..

ثلاثةٌ أصبحَ عندَنا مِنهُم واحِد..

وسيأتِي ما يُريدُه الله..

ولا فرقَ عندِي بين الذّكورِ والإناث..

مَضت الأيامُ الثلاثةُ بعد وُصولِي..

وأخذتُ زوجتي وطفلي "نبيل"، وركِبنا الحافلةَ إلى مدينة "سلا"..

وهناك اكتَريتُ مَسكَنًا من شخصٍ أعرفُه..

ثم ذهبتُ إلى الرباط.. واستقبلَني مُديرٌ جديد..

عالَمُ الطّباعة

بدلَ التحرير، صِرتُ أشتغلُ في مطبعة "الأنباء"، على "اللّينُوتِيب"، تماما كما كنتُ أتخيّل..

تعرّفتُ على خبيرٍ ألماني في هذه المطبعة..

وبدأتُ أشتغِل، وهو يَتتَبّعُني..

ونشَأَت بينَنا علاقةٌ مِهنيةٌ طيّبة..

وفي وقتٍ لاحِق، دَعاني إلى مَنزله للغذاء..

وعندما كنتُ في مَنزِله، كان له ضيفٌ ألماني جاء خِصّيصًا لإجراء اتفاقٍ مع الحُكومةِ المغربية..

اقتَرَح عليّ مسؤوليةَ إدارةِ أكبرِ مطبعةٍ في إفريقيا..

المطبعة ستُنشِئُها ألمانيا في طنجة..

قال لي: اختَلفنا مع الحكومة المغربية في أمرٍ واحد، هو الرّاتب الذي حدّدناه للمُدير المغربي الذي هو أنتَ..

الفريقُ المَغربِي لم يَقبَل..

أصرّ على تحديدِ نفسِ الرّاتبِ الذي يُعطَى للمغاربة، ولا يجُوزُ أن يكُون مغربيٌّ فوق مغاربة..

وأضاف المَسؤولُ الألماني: "قُلنا للمسؤولين المغاربة إن القانُون الألماني لا يَسمحُ إلاّ بِما يَنصُّ عليه قانُونُنا، وهو المَبلغُ الذي اقتَرحناهُ عليكُم"..

ورفضَ المسؤولون المغاربة..

ولم نتَمكّن من إنشاءِ أكبر مطبعةٍ إفريقية في طنجة..

.."بلغَنِي أن "مَطبعةَ الرّسالة "في الرباط بحاجةٍ إلى مُصفّفٍ في اللّينُوتيب وتقدّمتُ، فتمّ قَبُولِي.

الرّاتبُ جيّد.. التّوقيتُ مُناسِب..

وبدأتُ العمَل..

وفي وقتِ الفَراغ، أَدرُسُ "اللّغةَ الإنجليزية"..

وأتعلّمُ "الكاراطِي شُوطُوكَان"..

يَومِي أُقسّمُهُ إلى ثَلاثةِ مَهامّ رئيسيّة: الإنجليزية، العَمل، الرّياضة..

وفي المَنزِل، وكعادتِي: القراءةُ والكتابة..

وهذا برنامجِي اليومي..

اشتَريتُ درّاجةً ناريّةً بالتّقسِيط..

وبهذه الطريقة، تَخلّصتُ مِن انتظاراتِ وسائلِ النّقلِ بين الرباطِ وسَلا..

ووَاظبتُ على هذا البَرنامَج..

وكنتُ سعيدًا بالتّواصُل المُستمرّ مع "عبد الجبار السحيمي" و"العربي المسّاري" وغيرِهما من كبار الصحافيّين في المغرب..

استَفَدتُ من أسرةِ تحريرِ جريدةِ "العَلَم"..

وكانت هذه الجريدة، تحت إدارة الأديب "عبد الكريم غلاّب".

أسعَدَني الاشتغالُ في هذه المَطبَعة، وفيها طوّرتُ ما تعلّمتُه في بلجيكا..

وتدُورُ الأيام، واتّصلَ بِي تِقنِي من "مَطبَعةِ الرّسالة"، واقترحَ عليّ أن نلتَقِي معا بمَسؤولٍ من "مُوريتانيا"..

وفي الوقتِ المُحَدّد، كُنّا معَه حولَ كؤوسِ الشاي، بفُندُقٍ "حَسّان"..

عرضَ عليّ عقدَ عملٍ في "مُوريتانيا".. وفي العقدِ راتبٌ شهرِي مُهمّ، و"فِيلاّ"، وامتيّازاتٍ أخرى.. ومُهمّتِي هي تسيِيرُ مطبعةٍ جديدة، وذاتِ راتبٍ كبير، في "مُوريتانيا"..

فكّرتُ طويلاً.. وماذا أختار؟ هل الراتِب و"الفِيلاّ"؟ أو برنامجِي اليومِي: "القراءة والكتابة"..

اعتذَرتُ وذهبتُ إلى المُؤسّسة التعليمية البريطانية "British Council"، لكي أُوَاصلَ تعلُّمَ الإنجليزيّة..

- وفي ذلك اليوم، كانت لنا عرُوضٌ بالإنجليزية، في إطارِ التّطبيقات..

وقدّمتُ عَرضًا عن المَطبَعة: كيف تَشتَغل؟ ضرورةُ وُجودها؟ الهدفُ من الطباعة..

وقدّمتُ نمُوذجًا للحُروفِ الرّصاصيّة التي تُستعملُ في الطباعة..

وكانت معنَا سيّدة، هي الأخرى تتَعلمُ الإنجليزية..

وعندمَا خرَجنا من الحِصّة، سألَتنِي تلك السيّدة: ما عَملُك؟

- قُلت: أشتغلُ في "مطبعةِ الرّسالة"..

سألتني هذه السيّدة: هل تعرفُ مُديرَ جريدة L'Opinion؟ قلتُ: إنهُ "عبد الحفيظ القادِري"..

وفي حصّة الغد، أخبرَتني أنّ "عبد الحفيظ القادري" هو زَوجُها.. وأضافَت: "هو يَنتظرُك غدا، في الساعة (كذا) بمَكتَبه"..

وفي الوقتِ المُحدّد، استَقبَلنِي الرّجُل، وتعارَفنا.. هو مُتواضِع.. طيّب.. سيتِمّ تعيِينُه لاحِقًا وزيرا للشبيبة والرياضة..

وقال لِي: "أريدُك هُنا، مَعَنا، في جريدة L'Opinion"..

Journal l'Opinion

عيّنَنِي المُديرُ فِي قِسمِ الوثائق ..

وسلّمنِي كتابًا بالفرنسية، لإعدادِ مَقالٍ مُختصَرٍ للنّشر..

وصارَ يُسلّمُنِي كلَّ يومٍ دَعواتٍ ومُقتَطفات، لتَرجَمتِها إلى الفرنسية..

1977: إدارةُ جريدة "العلَم" عبّرَت لي عن رغبتِها فِي أن ألتحِقَ بها.. ولم أتردّد.. إنّها فِي قلبِي..

وبدأتُ أشتَغِلُ مُحررًا بجريدة "العَلَم"..

أرسَلنِي المديرُ "عبد الكريم غلاب"، لاستِطلاعِ واقعِ الشّجرة التي كان يَتردّدُ أنها تبكِي دمًا فِي ساحة (Place Piettri) بالرباط..

ذهبتُ إلى عينِ المكان.. كان الناسُ مُتجَمهِرين.. تأملتُ الشّجرة.. هي عاديةٌ تمامًا.. شجرةٌ بجِوارِ مُؤسسةٍ بَنكيّة..

ونَشَرت الجريدةُ فِي اليومِ التالِي أنّ الأمرَ يتَعلّقُ بإشاعة.. هذه مجردُ إشاعة..

وبعد تعيِين " ذ. العربي المسّاري" مُديرًا للجريدة، انتَدَبَنِي لتَغطيةِ أشغال البَرلمان..

أُسرةُ "العلَم" نَمُوذجٌ لفريقِ عمَلٍ مُتَناسِقٍ مُتَكامِل..

اشتَغلتُ مع مُدِيرَيْن مِن أعلامِ الصّحافة: "عبد الكريم غلاّب" و"العَربِي المسّارِي".. إنّهُما مُتَشبّعان بثقافةٍ عامّةٍ واسِعة، ودِرايةٍ كبيرةٍ بالثّقافة الاستِقلالية..

وكِلاهُما طيّبان، هادئان، ويُدِيرَان الجريدةَ بكفاءةٍ عالية..

كُنتُ مُكلّفًا بتَغطيةِ أشغالِ البرلمان..

وفِي تلك الفترة، كان للحِزبِ برلمانيُّون من الصّحراء المغربية.. وفتحَ لِي المُديرُ "عبد الكريم غلاّب" مَكتبَه لإجراء حوارٍ معَ مجمُوعةٍ من النواب الاستِقلاليّين..

وهي حواراتٌ منشورةٌ في أعدادِ تلك الفترة..

ومن خلالِ تتَبُّعِي لدَوَرات البرلمان، أخذتُ فكرةً عامّة عن المَطبَخِ العُمومي والداخلي لنُوابِ الأمة، وعن الانتِخابات التي أفرَزت مُستَويات مُتفاوتةً من البرلمانيين، لدَرجةِ أنّ هذه البناية في شكلِها برلمان، وفي عُمقِها لا عَلاقةَ لها بالواجبِ النّيابي..

وما كان صَعبًا بالنّسبةِ لي، في هذه التّغطيات، هو كونُ الجلساتِ المسائية أحيانًا تَطُول، وقد لا أجدُ وسيلةَ نقلٍ إلى مَسكَنِي في "حَيّ بَطّانَة" بمدينة "سَلاَ"..

- وفي هذا الوقت، كانَ قد ازدادَ في بيتِنا ابنُنا الثاني "عزيز" الذي سيكونُ أستاذًا جامعيّا في الرّياضيات، ثم ابنُنا الثالث "سمير" الذي سيَكُون مُهندسَ دولةٍ في المعلُوميّات..

ويَلتَحقان بابنِنا الأوّل " نبيل" الذي سيكُونُ ناشِرًا في مؤسسة "إفزارن للطباعة" بطنجة.

- 1978: طُلبَ منّي أن ألتحقَ من جديد، بصَحِيفة "L’Opinion" مَسؤولاً عن "قسمِ الوَثائق"..

وهذه المرة، كان " ذ. عبد الحفيظ القادري" قد عُيّنَ وزيرًا للشبيبةِ والرياضة، وعُيّنَ بَدَلَهُ، على رأسِ"L’Opinion"، محمد الإدريسي القيطوني..

هو أيضًا طيّبٌ وخَلُوق وكفاءة عالية..

تهجيرُ مَغاربةَ الجزائر

1975: كنتُ مَسؤولاً عن "قسمِ الوَثائق"، بجريدة .."L'Opinion" زارَتنِي "السيّدة عَتِيقَة"، وهي مُوظّفةٌ باحِثة، تسألُ عمّا إذا كانت الجريدةُ كتَبت عن المَغاربة الذين قامَ "نظامُ بُومديَن" بتَهجِيرِهِم.. قلتُ: نعم.. لقد نشَرَت الصحيفةُ مقالات..
سَلّمتُها مِلفًّا بهذا الاسم، وأخذَت مَكانَها في قاعةِ الوثائق، وبدَأت تتَصَفّح وتقرأ وتُسجّلُ المَعلومات..
وصارَت تُواظِبُ لعِدّة أسابيع، على البحثِ في نفس المَوضُوع..
وبفَضلِها عرفتُ مَعلُوماتٍ أخرى..
قالت إنها من المَغاربة المَطرُودِين من الجزائر..
وقَع التّهجيرُ صبيحةَ عيد الأضحَى 18 دسمبر 1975، بعدَ مُرورِ شهرٍ على "المَسِيرةِ الخضراء.."
وعرفتُ منها أنها أصبَحت مُوظّفةً بالرباط، وتَسكنُ هي وعائلتُها في "سلا.."
هي أيضًا من ضحايا التّجهير القَسري.. أُخرِجَت من المنزل، هي وكلّ أفرادِ عائلتِها في ما نُعِتَ لاحِقًا بالمَسيرةِ السوداء، وهي عمليةُ تهجِيرٍ جماعي من الجزائر شمَل زُهاءَ 45 ألف عائلة مغربية، وارتفعَ عددُ من تم تهجيرُهم - حسبَ تعبيرِها - إلى حوالي 350 ألفًا، أي نفس عدد الأشخاص الذين شاركُوا في "المَسِيرة الخَضراء.."
لماذا أقدَمَ النظامُ الجزائري على كلّ هذا التّجهير؟
تقول الأخبار: هذا التّهجيرُ الجَماعي كان ردَّ فِعلٍ على مسيرة 1975: "المسيرةِ الخضراء.."
وكانت هذه السيدة، وهي قد أصبحت مُوظفةً بالرباط، تقولُ إنّ عائلتها طُردَت من مَنزِلها بلباسِ النوم..
وكان أبُوها وأفرادٌ من عائلتها قد شاركُوا في حَربِ التحرير الجزائرية..
وعن هذه الوقائع أنجَزَ المُخرجُ السّينمائي المغربي "أحمد قاسم" فيلمًا وثائقيًّا بعُنوَان "مأساةُ الأربعينَ ألفًا" سنة 1980..

جريـدة Le Monde

سنة 1980.. أرسَلَتنِي جريدة "L'Opinion"إلى تدريبٍ على التّوثيقِ بصحِيفة "Le Monde"الفرنسية، وفيها تدرّبتُ على تقنيّاتِ "قسم الوثائق "

وأهمّية التوثيقِ في تدقيقِ المعلوماتِ وإنعاشِ وتطويرِ العَملِ الصحافي

وقد شمَلَ هذا التّدريبُ بعضا من كُبرياتِ المُؤسساتِ الإعلاميةِ في باريس:

- Agence France Presse
- Centre Georges Pompidou
- Documentation Française
- L'Express
- Le Figaro
- Le Nouvel Observateur
- Radio-France

وفي هذا التدريب، برعاية جريدةِ Le Monde الفرنسية، لمُدّة شهريْن، اطّلعتُ على التّقنياتِ التّوثيقيّة، وأهمّيتِها في إنعاشِ وتطويرِ العَملِ الصّحافي..

وسَلّمَتنِي "وِزارةُ الخارِجيةِ الفرنسية" شهادةً تقولُ فيها إنّ المُتّدرّبَ قد أتمّ تَدريبَهُ بتَميُّزٍ من 1 يونيُو 1980 إلى 31 يوليُوز 1980..

ماذا استَفدتُ من تدرِيبِ شَهرَيْن؟

1. جريدة "Le Monde" لها طريقةٌ توثيقية تَعتَمِدُها.. وهي طريقةُ "الكلِمات

المِفتاحيّة": "14 كلمة" تَصنعُ ذاكرةَ هذه الصحِيفة الكبيرة، ذاتِ المِصداقيّة العالميّة..

2. في الوثيقةِ المُرادِ حِفظُها وصيانتُها، تُوضعُ في قمّتِها الكلماتُ المِفتاحيةُ الأساسيةُ لتنظِيمِها، وقد تصِلُ إلى 14 كلمة.

3- يتَحكّم في كلّ ملفٍّ وثائقي صُندُوقٌ صغير.. وهذا هو دِماغُ الوَثائق.. فكلّ مَوضوع له ورقة مُنظمة داخلَ الصّندوق، وفيها كلماتٌ مِفتاحية.. وفي بداية البحث عن مَعلومة، تبحث عنها في وُرَيْقاتِ الصندوق الصغير، وهذا يُرشدُك إلى الوثيقة: ابحثْ عن اسم الملفّ ورقمِ الوثيقة..

4. قوةُ جريدة Le Monde تَكمُنَ في قِسميْن رئيسييْن: التّحرير والتّوثيق.. وعندما استَأنفْتُ عَملي في جريدة L'Opinion ، طوّرتُ "قسمَ الوثائق" فيه، وأنشأتُ لنفسِي - في منزلِي - تصغيرًا لوثائقِي الشّخصيّة، بكيفيةٍ أستطيعُ بها تنظيمَ واستِرجاعَ وتَوظيفَ أيةِ وثيقةٍ أبحثُ عنها، في ظرف دقائق.

5. يستطيعُ كلّ صحافي أن يُنظمّ وثائقَه الشخصية، في أيّ مجال من المجالات، لكي يَسترجعَ أيةَ مَعلُومة يبحَثُ عنها، في وقتٍ قصير، بدُون تضييعٍ للوقت.. وهكذا وبسُرعة، يستَعيدُ الباحثُ المَعلوماتِ التي هو اختارَها ويَحتاجُها في أبحاثه.. وبهذا يُحافظُ على ذاكرته المِهنيّة..

وبإيجاز :التوثيقُ ضَرُورةٌ لتطويرِ الفِكرِ التّدقِيقي، ومِن ثمةَ تطويرِ ذاكرةِ .البلد

ولا يتسنّى استِحضارُ ماضِينا بلا توثيق.. ولا قراءةٌ لما قد مضَى بدُون توثيق.. ولا توقُّعاتٌ لما سوف يأتي، إلاّ بناءًا على معلوماتٍ تقودُ إلى المُستقبل..

وعلى كلِّ صحافيّ أن يُكَوّنَ لنفسِه توثيقًا خاصّا، مُنظّمًا بإحْدَى طُرُقِ التّنظيمِ التّوثِيقِي.. وأن يَنتَظِمَ على استِخدامِ توثيقِه الشّخصِي، لكي يُحافظَ على ذاكرتِه في المَجالاتِ التي تهُمّه..

وهذا ينطبقُ على مجالاتِ البحث، وحقولِ المعرفة، وحتى على تنظيمِ الوثائقِ الإدارية..

مُلاحظة: التوثيقُ له طُرُق، ونحنُ بصددِ الحديث عن طريقةِ جريدة " Le Monde" الباريسيّة..

وفي هذا السّياق، اشتَغلتُ في الأقسامِ الرئيسية للعَملِ الإعلامِي، وهذا مكّنَني من الرّبطِ بين مُختلفِ الأقسام، وبالتالي لجَعلِ عملِها المُتنوّع مُتكاملاً مُنسجِمًا مُؤهّلاً لإنتاجِ مؤسّسةٍ إعلاميةٍ واحِدة، قويّة، هادفة، فعّالة، مُقنِعة.. إنها أهمّيةُ مِهَنٍ بصيغةِ الجمع، تَتكامَلُ في مِهنةٍ واحدة، هي الصحافة..

وكُلّما ازدادَ الصحافيُّ دِرايةً بهذهِ المِهَنِ المُتنوّعة، كُلّما تأهّلَ لإتقانِ هذه المِهنةِ الواحدةِ المُشترَكة..

إذاعة ميدي١

5 يناير 1981: أوّلُ يومٍ لي في "إذاعة البحر الأبيضِ المُتوسّط الدولية": مِيدِي1، الناطقة بالعَربية والفَرنسيّة..

كُنتُ قد أمضَيتُ الاختِبارَ التّحرِيرِي والإلقائي، بإشراف مديرِ التحرير الفرنسي آنذاك، وهو السيد "فْرانْكُو"، أحدِ أبناء المُعمّرين الفرنسيّين في منطقة "سُوس" المغربية، وكان يتكلّم "السّوسيّة" و"الدّارجة" بطلاقة.. إعلاميٌّ طيِّبٌ خَيِّر..

وتمّ قَبُولِي في الإذاعة، لتَقديمِ النّشَراتِ الرئيسية، ومُختَصَراتِها.. وأيضا: تَعيِينِي في 1984 سكرتيرًا إداريّا للتحرير العربي..

وفيما بعد، ثمّ تعيِينُ فرنسيّ آخر، اسمُه: "Jean Robert Cherfils"، نائبا للمُدير العام، وهو من كبارِ الإعلاميّين الفرنسيّين.. وهذا طلبتُ منه أن يُعلّمني فنَّ إلقاءِ النشرات الإخبارية الفرنسية..

وحدّدَ لي وقتًا للتدرُّب، داخلَ الاستُديو.. وصِرتُ أُلقِي أمامَه الأخبارَ بالعربية، بالطريقة التي يُلقيها بها الفرنسيّون باللغة الفرنسية..

واستغربَ نائبُ المُدير بالسّرعة التي استَوعبتُ بها فنّ الإلقاءِ الإذاعي..

وأصبحتُ أنا بدوري أقومُ بتدريبِ الوافِدينَ المُرشّحِين للعَمل، على الإلقاءِ الإذاعِي باللغة العربية..

والسّرّ يكمنُ في كتابةِ النصّ العربي..

وقد اشتَغلْتُ في هذه الإذاعة صَحافيًّا مُذيعًا لغاية 20 مارس 1990.. فقَدّمتُ خلالَ هذه السنوات العشر إلى جانبِ عَملِي الإعلامي العادي حوالي 200 حلقة من برامجَ مُتنوعة، منها الفَضائية والعِلميّة والبيئية، كما أعدَدتُ برنامجا خاصا بأَحَاجي الأطفال..

وكانت تصلُني رسائلُ يومية من المُستمعاتِ والمُستمِعين، من مختلف المناطق..

وذاتَ صباح، تمّ إخباري أن شابًّا من الجزائر يَنتظرُني في مَدخَل الإذاعة..

خرَجتُ إليه، وقال إنه لا يَعرف أحدًا سِوايَ في طنجة.. سألتُه: "كيف تعرفني؟"، أجاب: "بصوتك"..

وتذكّرتُ "عبد الجبار السحيمي" الصحافي الكبير، عندما زُرتُه في جريدة "العَلَم" بالرباط، طالبًا منه أن يُدخِلني إلى عالم الصحافة..

وقد كان له الفضلُ في إدخالي إلى جريدةِ "الأنباء"..

قمتُ بالواجب مع الشابّ الجزائري..

وكنتُ سعيدا..

إنّ مُساعدةَ الآخر، ولو بالنّصيحة، مَنبعٌ للسعادة..

وكانَت هذه مَرحلةً هامّة في مَسارِي الإعلامِي..

زياراتٌ واتصالاتٌ كثيرةٌ لمُستمعاتٍ ومُستَمِعين.. ومنهُم يستمدُّ الإعلاميُون بريقًا من التشجيع والأمل..

وفي ماي 1981: بعثَتنِي الإذاعةُ إلى باريس، من أجلِ تدريبٍ بإذاعةِ "مُونتِي كارلُو" المُوجّهة للشرقِ الأوسَط..

وسلّمنِي مُديرُ الأخبار، أنطوَان نَوفَل، شهادةً يقول فيها: إن السيد إفزارن "قد تَميّزَ خِلال هذا التّدريب بالجدّية والانضِباط، ويَتوفّر على المؤهّلاتِ الطّبِيعيّة للعَملِ الإذاعي"..

وهُنا بدأ "المَسؤولُ الكبِير" بإذاعةِ "مِيدِي1" يستَدرِجُنِي إلى إسداءِ خَدماتٍ بعيدةٍ عن عملي الإعلامي: الوشاية والنّميمة ضدّ زُملائي المغاربة..

وأدرَكتُ أنّ "المسؤول الكبير" يسعى لأن يصنعَ مِنّي ليس فقط صحافيّا، بل أيضًا دَركِيّا في "قسم التحرير العربي"..

إنه يريدُني جاسُوسًا على الصحافيّين المغاربة..

ومِرارًا عبّرتُ للمَسؤول الكبير أنني لا أصلُح بَيْدَقًا للمُؤامرات.. إنّ عملي ليس الدّسِيسة، بل مُعالجة الأخبار الدولية، وتقديمها في شكل أخبار أو تقاريرَ صحافية، على أمواج الإذاعة..

رُبّما كان "المسؤولُ الكبير"، وهو يَضغطُ عليّ، يَعتقدُ أنّني سأتَحوّل مُكرَهًا إلى جاسوس..

وقلتُ صراحةً: "هذه ليست مِهنتِي"..

وأرادني أن أُصَابُ بالإحباط، ولكن حدَث العكس..

أقومُ بعملي الإذاعي بحَزم، وفي وقت الفراغ أتعاطَى للقراءة والكتابة..

ولم يعُد "المسؤولُ الكبير" يقولُ عنّي: "هذا هو الأكثَرُ جدّيةً في هذه الإذاعة"..

لم يعُد يقولُ هذا..

صارَ يُحرّضُ ضدّي مغاربةً من "القسمِ العربي"، لاستِدراجي إلى خطأ مِهنِيّ.. وصار يَحبكُ لي مؤامراتٍ خَفيّة مع بعض اتباعه في الإذاعة، لإضعافِي نفسانيًّا..

وحتى في هذا لم يَفلَح..

وأنا لا أزدادُ إلا حُبّا لعملي، مُتفانيّا في خدمةِ عمَلي، ولي طُموحٌ مِهنيّ مشروع..

حبُّ عملي هو المُهمّ.. بل هو الأهّمّ!

في آخر يوم "مُونتِي كارلُو"، خرَجتُ مُتأخّرًا من "قسمِ التحرير"، وتَوَجّهتُ إلى مَطعَم.. وهناك طلَبتُ وجبَةَ عَشاء.. فرَفضَ النّادِل، وخاطَبنِي بخُشُونةٍ وحِدّة: "ألستَ أنتَ مَن حَاوَلَ اغتيالَ البابَا يُوحنّا بُولُس الثاني؟"..

ها هُو مَجهُولٌ يُهاجِمُ مَجهُولاً باتّهامٍ ساقِط..

ولم يتَوقّف عندَ هذا..

واصَلَ بقِلّةِ أَدَب: "أنتُم أجانِب.. ارحَلُوا من هُنا! لا مكانَ لكُم بينَنا.. نحنُ لَسنَا مِن طِينَتِكُم.. نحنُ عاصمةُ العالَم.. ارحَلُوا عنّا!"..

وما كُنتُ أتصَوّرُ العُنصريةَ بهذه الخَساسَة، في "مدينة الأنوار"..

الخيالُ العِلمي

كانت السّنة 1985 مَفصَلاً في توّجُّهِي العِلْمِي.. وتحدِيدًا إلى أدبِ الخيال العلمي..

صديقان التَقيتُهُما ولهُما رأيٌ حاسِم:

الأول هو الزميل "عبد القادر شبِيه "الذي كان قد غادرَ إذاعة ميدي1 التي كانَ ..رئيسَ تحريرِها، وبدأ يشتغل في"رسالة الأمة".. إنه من رُوادِ الصّحافة في بلادنا وقد سبَق أن اشتغلَ في صحيفتي العَلَم، و الميثاق .الوطني

سألني عن الجديد، فقُلتُ إنّني قد أعدَدتُ مجموعةً قصصيّة من جنس الخيال العلمِي..

وسألني عن طبيعة القصص، فأخبرتُه أنها تَداخُلٌ بين الخيالِ والعِلْم.. قراءةٌ خيالية للغدِ البعيد على أساسٍ عِلمِي..

والتقطَ الصحافي الكبير تعبيرَ "قراءة خيالية للغدِ البعيد"، فقال لي: سَمِّها: "غَداً"..

وهكذا كان.. أسميتُها: "غَداً"..

وكُلّما وقعَ المَطبوعُ أمامي، تذكّرتُ العزيزَ الراحِل "عبد القادر شبِيه"..

والصديق الثاني هو العزيز د .علال الغازي.. أستاذٌ في كّلية الآدابِ .بالرباط، ، حائِز على جائزةِ المغرب في الأدب في سَبعينات القرن الماضي

هو من أبناءِ قرية "رأس جِيرّي" التي وُلدتُ وعشتُ فيها..

زارَني في مَسكَني بطنجة، وكانت مُناسبةً لإطلاعِه على مَشروعِ "مَجمُوعتِي القَصصِيّة في الخيال العِلمي"..

كنتُ أعتزمُ إصدارَها، فطلبتُ رأيَه..

وفي الصباح، ومع الفُطور، كان قد أتمّ قِراءتَها..

وسألني عن عُنوانِها.. فقلتُ: "غَدًا"..

أعجَبهُ العُنوان، وكتبَ لي تَقدِيمَ: "غَدًا"..

وسَحَبتُ الكِتابَ في مَطبعةِ "الأنباءِ" بالرّباط..

الرسوم الداخلية كانت من إبداع الفنان والصديق العربي الصبان.

بعد صدور مجموعة "غدا"، اتصل بي الكاتب أحمد عبد السلام البّقالي وحدّد لي موعدًا في منزله بحيّ حَسّان بالرباط، فذهبتُ إليه.. هو شاعِر، وأولُ روائي مغربي في الخيال العِلمي، بقصّتهِ الجذابة: "الطُّوفانُ الأزرَق".. وهو أَعَدّ حَلقةً خاصّة بإصداري "غدًا" على أمواج الإذاعةِ البريطانية: البِي بِي سِي..

وقال لي: "مَكانُك الطبيعي ليس الصّحافة، بل الخَيالُ العِلمِي.. مَجموعتُك القصصية فيها أفكار عِلميّة مُهمّةٌ للتّصوّرات المُستقبَلية، لكنّك لستَ قاصّا، وعليك الاشتِغال في حَبكِ الفنّ القصَصِي"..

وصار يُكرّرُ لي نفسَ الرأي.. ويَزورُني في طنجةَ كلّما تَيسّرَ له..

إنهُ من أطيبِ الناس.. أديبٌ سابقٌ لوَقتِه..

كان يُحاولُ جَذبِي من الصّحافة إلى الخيال العِلمي.. قلتُ له صراحةً: الصّحافةُ هي عَمَلِي..

واصلتُ الكتابة في الخيال العلمي..

كتبتُ سِلسِلَةً منَ القصَصِ القصِيرة، بعضُها نُشِر، وأكثرُها لم يُنشَر.. طبعتُ كُتيّبًا هو رِسالةً إلى أبناءِ الغد بعُنوَان: "القادِمُون".. وكُتيّبًا آخر تحت عنوان " اعترافاتُ رُوبُوت".

إنه رُوبُوت يكتبُ اعترافاته..

يَسرِدُها في قالبٍ إنساني..

هذا إنسانٌ آلي يقول لبنات وأبناء كوكب الأرض: "ليتني كنتُ من لحمٍ ودَم! لو كنتُ إنسانًا، ما فرّطتُ مِثلَكُم في إنسانيةِ الآخرين، وفي حياة الأرض"..

الأحداثُ تبدأ من الشمال، وتنتهي في الجنوب..

في الشمال، تندلعُ الحرب النووية، ويضطرُّ الشمالي للزّحفِ إلى الجنوب بحثا عن الأوكسيجين...

وفي الجنوب تنضمُّ العقولُ إلى السواعد، فتنهضُ حضارةٌ بشريةٌ جديدة!

ينسُجُ أحاسيسَ الأحداثِ هذا الرّوبُوتُ الذي كان جاسُوسًا.. فوَقعَ في حِبّ الرّوبوتِ فينُوس..

لوحة غلاف "اعترافات رُوبُوت" كانت من إنجاز الفنان محمد مُوح الهاشمي.. صديقٌ وأستاذٌ لفنّ الرّسم..

كلما التقينا نتحدث في الخَيال العلمي..

"مُوح الهاشمي" فنّانٌ كبير، هو الآخرُ سابِقٌ لوَقتِه..

في سنة 2005.. أصدرتُ رِوايتيْن في الخيال العلمي: "أبناءُ الشّمس" و"قاع الدّنيا"، وهذه الأخيرةُ طبعَتها وزارةُ الثقافة عام 2007، بالقُنيطرة، لدَى "البُوكيلي للطّباعة والنّشرِ والتّوزيع"..

علاقتِي بالغَدِ مَتينَة..

علاقةٌ لا تُشبِهُ توالِي الأيام..

الغدُ عندِي رمزٌ للتّطوّرِ والتقَدّم.. ولِفهمِ الحياةِ أكثر..

محمد شُكري

كاتبٌ مغربيّ ذو سُمعة عالمية..
كُنّا نَشتَغِلُ في إذاعة "ميدي1"، في ثمانِيناتِ القرن الماضي.. هو كان يُعِدّ برنامجًا للإذاعة، وأنا أشتَغِلُ في "قِسمِ التّحرير العَربي"، أقدّمُ الأخبَار، وبعضَ البَرامج..
وهذه العلاقة المِهنية، جعلَتنا نلتقِي بين الفِينَة والأُخرى، ونتَحدّثُ في كل شيء، وبلا حُدُود.. وهو يُنكّتُ ويَحكِي عن ليالي اللاّمُبالاة..
وكُلّما التقَينا، يُردّدُ لي نفسَ المُلاحظة، وهو يَضحك: "إنكَ غريبُ الأطوار.. فنحنُ نَصرِفُ أموالَنا لكي نَسكَر، وأنتَ تَضحكُ وتَفرَح بدُونِ أن تَصرفَ سنتِيمًا واحِدًا.."
ونَنفَجِرُ جميعًا بالضّحك..
وأخُونا "السّي محمد شُكري" يَعرفُ أنْ لا علاقةَ لي بالسُّكر.. ولم يسبِق في حياتي أنْ سَكَرتُ..
وأنَا ألتقِي بالعزيز "شُكرِي" من باب احترامٍ واعتزازٍ لهذا الأديب الذي يعيشُ حياتَه كما يُريد.. وبكُلّ حُرّية.. وبلا تعقِيد..
الحياةُ عندَه بهذه البَساطة..
ومن خلالِ مُخالطةِ نماذجَ من الصعاليك، ينقلُ إلى قُرائِه كيف تعيشُ ثُلّةٌ مِمّن يُوصَفُون بالمَنبوذين.. ويقول بشأنِهِم: "هؤلاء أنا خالَطتُهُم، وأنا أعرفُهم، وهُم إخوَتِي.."
أحتَرمُ في "شُكرِي" انفِتاحَه هذا على كلّ البَشر...
لقد اشتَهرَ الكاتبُ بسِيرتِه الذّاتيّة "الخُبز الحافي"، وفيها يحكِي عن مَسِيرَةِ حياتِه منذ ميلادِه عام 1935 في قبِيلة "بني شِيكَر"، وهِجرَتِه وهو طِفلٌ إلى طنجة..
قصةُ حياةِ كاتبٍ بدأ مِشوارَهُ أُمّيّا، وخالطَ مَنبُوذِين، وحكَى عن ليالِي طنجَة، وعَلاقاتِه مع فئاتٍ اجتِماعية مغربية وأمريكيّة وفرنسية وإسبانيّةٍ وغيرِها...
واستفادَ من برنامج "مُحاربة الأمّية" الذي قرّرهُ السلطان محمد الخامس، فتَعلّم القراءةَ والكتابة، ودخلَ التعليمَ الابتدائي في العرائش.. وعندما بلغَ سِنّ التّقاعُد، هو نفسُهُ حكَى لي أنهُم لم يُبقُوا له في مَعاشِه إلا 900 درهم شهرِيًّا..
كان شُكري عندما بلغ سنَّ التقاعُد قد أصبحَ كاتبًا مرمُوقًا، وكِتابُ "الخُبز الحافي"

تُرجِمَ إلى لُغاتٍ عالمية، واتّصلَت به مُؤسّسةٌ ألمانية أنتَجت من قصة حياتِه فيلمًا سينمائيا..
لقد اشتَهرَ بعلاقاتِه مع الكَاتِب الأمريكِي "بول بولز"، ومع "تِينِيسِي وليامز"، ثم مع أدباءَ مَغاربة، ومِن مُختلفِ مَناطق العالمِ العَربِي.. وبين وقتٍ وآخر، يزُورُهُ كُتّابٌ وكاتباتٌ من القاراتِ الخمس..
"الخُبز الحافِي" كَتبَهُ بالعَربية، وتَرجَمهُ إلى الإنجليزية "بُول بُولز"، ثم إلى الفرنسية "الطّاهر بنجلون.."
والنّسخةُ العربية، وهي الأصلية، خَرَجت إلى الأكشاك المغربية، في ثمانينات القرن الماضِي، وتدخّلَ وزيرُ الأوقاف آنذاك، ومَنعَ الكِتاب..
هذه سِيرةٌ ذاتية يقولُ فيها "محمد شكري" كلَّ شيءٍ عَن ليَاليهِ في طَنجة، وعَن علاقاتِه مع الذّكور والإناث..
هو كاتِبٌ يحكِي عن حياتِه الشّخصيّة كلَّ شيء.. ليست له أسرار.. وليست له حياةٌ خاصة.. يحكِي كلَّ ما عاشَهُ بوُضُوح، وليسَت له عُقدةُ "أسرارٍ شخصيّة.."

ومَشهَدٌ لا أنساه، عِندَما وَصل جُثمانُ الرّاحل "محمد شُكري" إلى طنجة (نوفمبر 2003)..
في "مَسجِد محمد الخامس" بطنجة، أُقِيمَت للرّجُل صَلاةُ الجَنازة، بحُضُورِ الكاتب "حسَن أُورِيد"، الناطِق باسمِ القصرِ الملكِي آنذاك..
ولدَى خروج المَوكبِ الجَنائزي، وقفَ رِجالُ الأمن في الشارعِ العُمومي، وأدّوا التحيّةَ، للرّاحلِ الكَبِير..
وقلتُ في نفسِي: "بلادُنا، وعلى أعلَى مُستوًى، تُحيّي الكاتبَ الذي قد رَحل، ولم يَترُك للأجيالِ الصاعدة إلاّ بصماتِ مَسيرةٍ شفافة، كما هو قد عَاشَها، وبدُونِ أيّ تَلوِين.."
له مقولة تتردّد: "أنا إنسان عاش التشرد، وأكلَ من القمامة، فهل تَنتَظرُون منّي أن أكتُبَ عن الفراشات؟"

رائدُ فضاءٍ صحافي!

وتصلُ الأيامُ إلى يناير 1986 ..

عندها ردّدَت وكالاتُ الأنباءِ الدولية خبرًا مُقتَضَبًا يفيدُ أنّ "الدار البيضاء" ستَكُونُ مَطارًا احتياطيّا لشاحنة الفضاء الأمريكية "شالنجَر" التي كانت ستُقلعُ إلى الأجواء العُليا يوم 28 يناير 1986..

اتّصلتُ بنائبِ المدير، واقتَرحتُ أن أحضُرَ إلى الدارِ البيضاء.. وشرحتُ له كيف أن الحدثَ الفضائي قد تعرفه هذه المدينةُ المغربية، إذا ما حَصلَ عطبٌ تقني خلالَ الدقائق الأولى لإقلاعِ "شالنجَر".. إذا وقعَ أيُّ عطَب، فإنّ المَركبة الفضائية الأمريكية ستَنزلُ في الدار البيضاء..

واقتنعَ نائبُ المُدير بضَرُورة حضوري إلى مطار الدار البيضاء..

وما حَدثَ كان أكثرَ ممّا كنتُ أتوقّع..

المَركبةُ الأمريكية "شالنجَر" لم تُصَب فقط بخَللٍ بسيط، بل انفَجرت.. لقد انفجرت شاحنةُ الفضاء، وماتَ رُوادُها السّبعة..

ومن الدار البيضاء، بعثتُ مُراسلاتٍ وتصريحًا خاصّا من رائدِ فضاء أمريكي سابق كان مع الطاقمِ التقني الفضائي الذي كان حاضرا بالمطار..

كما تدخّلتُ في برنامجٍ خاصّ بالإذاعة الوطنية، وشرحتُ كيف أن "مطار محمد الخامس" يدخُلُ عصرَ الفضاء".. وأعدَدتُ برنامجا خاصّا لإذاعة "مِيدي1"، أُذيعَ يوم السبت 1 فبراير 1986..

وعلى هذا الحَدسِ الإعلامي، والسبقِ الإذاعي، قرّرَ مكتبُ مطارات الدار البيضاء مَنحِي مِيداليةً أحتفظُ بها إلى الآن..

وقد أكّدتُ لنائبِ "المُدير العام" للإذاعة أنّ هذا ليس شرَفًا لي، بل هو شرَفٌ للإذاعة..

لكنّه لم يكتُم غيظَه.. خانَهُ وجهُه الذي احمَرّ حتى صارَ بلَونِ الطّماطِم..

كان هذا إذن يوم السبت 1 فبراير..

ويوم 7 فبراير، كنتُ في مكتبِ السيّدة "سْمِيث"، القُنصُلة الأمريكية بطنجة، فاقترحَت عليّ زيارةً إلى الولاياتِ المتّحدةِ الأمريكية، على نَفقةِ السّفارة..

وخلالَ الحديث، طلبتُ منها أن تُرشّحَني لمُهمّةِ "رائدِ فضاءٍ صحافي".. وفي ذلك الوقت، كانت وكالةُ الفضاء الأمريكية "نَازَا" نَشرَت إعلانًا عالميًّا، لاختِيّارِ أول صحافيّ رائدِ فضاء..

وفِعلاً تقدّمت السيّدة "سْمِيث"، القُنصُلةُ الأمريكيةُ في طنجة، بترشيحي إلى "وكالةِ نَازَا"..

ونُسخةٌ من هذا الطّلَب، أرسلَتها إليّ، وتحملُ تاريخ 12 فبراير 1986..

الفصل عن العمل

أبلَغُوا "المسؤولَ الكبير" في إذاعة "مِيدِي1" أنّ "الجمعية المغربية لعِلمِ الفَلَك" قد دَعَت الإعلامي أحمد إفزارن لتأسيسِ فرعٍ لها بمدينةِ طنجة، يوم 19 أبريل 1986..

ويوم 2 ماي من نفس السنة، وبصفتِي رئيسًا لفرعِ طنجة لجمعيةِ عِلمِ الفَلك، دَعوتُ العالِمَ الكنَدِي الفيزيائي "Hubert Reeves"، إلى إذاعة "مِيدِي1"، لتوضيحِ خلفياتٍ عِلمية، وتقديمِ رأيِهِ في الأخبارِ المُعلَنة عن انفِجار "محطّة تشيرنُوبيل" السّوفياتية النّووية..

وهذا العالمُ الكبير بعَثَ لي، بواسطةِ المَركزِ الثقافي الفرنسي بطنجة، نسخةً من رسالةٍ وجّهها إلى "المسؤول الكبير" في الإذاعة، وهي تهنئة على أهمّيةِ البرنامج الذي أعددتُه يوم 10 ماي 1986..

وبدلَ أن يفرحَ "المسؤولُ الكبير" لهذا العمل الذي يُشرّفُ الإذاعة، بعثَ لي يوم 12 ماي، أي يومَيْن فقط بعد العمل الذي يُهنّئُني عليه المركزُ الثقافي الفرنسي، رسالةَ توبيخٍ بقولُ فيها إنّني مُتهاونٌ في عمَلي..

من 18 إلى 21 يونيه 1989، أُرسلتُ إلى أكادير لتغطيةِ مُناظرة دوليةٍ حول التّصحُّر..

وتوصلتُ برسالة تهنئةٍ من وزيرِ السّكنَى الذي هو في نفسِ الوقت رئيسُ جمعية إيليغ..

الرسالة مُحرّرة يوم 20 يوليوز 1989.. وبعد هذه التهنئة بشهريْن تمّ توقيفي عن العمل، لمدة أسبوع، بتهمةٍ واهية..

لقد كنتُ في عُطلة، وكان عليّ أن أستأنفَ عمَلي يوم الأربعاء 11 أكتوبر..

ولكنّ "المسؤول الكبير" دعاني من عُطلتي، وحرّر لي يوم 9 أكتوبر قرارا بتوقيفِي عن العمل، بدعوى تجاوُز السّلّمِ الإداري للمُؤسسة.. فكيف يُعاقَبُ صحافيٌّ وهو في عُطلة؟ ومع ذلك اقتَطَعَ من راتِبي قيمةَ عمل أسبوع..

وهذه بعضُ تصرفاتِ "المسؤول الكبير" الذي صرّح للصحافيّين خلال اجتماعٍ مُغلَقٍ يوم 20 مارس، الذي فُصِلتُ فيه من عملِه، حيث قال جهرا: "أنا أصنعُ القانون"..

وعندما طُردِتُ من عملي، كان من حقّي أن أستَلِمَ تسجيلاتِ حوالي 10 سنوات من البرامج المسموعة التي أعدَدتُها دونَ أن أتقاضَى عنها أيَّ سنتِيم، باستِثناءِ بعض البرامج، مثل موضوعِ "شالنجر" الذي يَدخلُ في إطار عمَلي..

لقد تم إفراغ دُولاَبِي الذي يحتوي على تسجيلاتِ برامجي..

وقد أُتْلِفَتْ حوالي 200 حلقة، علمّا بأنّ "المسؤول الكبير" لم يُصرّح بأيٍّ من هذه البرامج لمَكتب "حقُوق التّأليف"..

إدريـس البَصْرِي

كان طَردِي التّعسُّفِي من قِبَلِ المُديرِ العامّ الفرنسي "Pierre Casalta " مُشكِلاً كبيرًا في حياتِي المِهنيّة: أصبحتُ عاطلاً عن العَمل.. اشتكيتُ إلى القضاء في طنجة، فأنصَفنِي ابتدائيّا، وقلّصَ مُستَحقّاتِي استِئنافيّا.. ولا مَدخولَ لي.. وأبنائي في المَدرسة: "نبيل" حاصلٌ على البكالوريا، ويجبُ أن يلتَحقَ بالجَامعة في الرباط.. و"عزيز" و"سمير" لا يَعرفان ما يَحدُث.. والحالةُ المادية تَتأثّر.. والنّومُ يطِيرُ من عَينيّ..

وأستَمدُّ التّحدّي من الأخبارِ والاتصالاتِ من هُنا وهناك..

وأقولُ لزوجتي وأبنائي: "سنَكُون بخير.. إن شاء الله.. والمُهمُّ الآن، هو أن تكُونَ نظرتُنا إلى المُستقبَل إيجابية، تفاؤُلية.. وربّي يُسهّلُ كلّ صَعب"...

وآخُذُ ابنِي "نبيل" إلى الرباط، لأبحثَ له عن بَيت، لكي يُتابعَ الدراسةَ الجامعية..

والصّحافةُ المَغربية تناوَلتْ قضيّتِي، باستِنكار.. وكتَبَت عنها كثيرا..

وبَلغَنِي أن وزير الداخلية والإعلام، إدريس البصري، قد تدَخّلَ شخصيّا على الخطّ..

لقد كانت لي مُشكلةُ الطرد التعسُّفي، وأصْبَحَتْ لي مُشكلةٌ إضافية مع وزير الداخلية والإعلام إدريس البصري.. وأنا لا أعرفُ هذا الشّخص إلاّ بالاسم، وبِصُوّرِهِ على التلفزيون..

وصَلتُ إلى الرباط..

وبجوارِ حيّ "المَلاّح"، أوقفتُ السيارة، والتقيتُ بالمُخرجَ الإعلامي الكبير "محمد بن عبد السلام"..

سألَني وحكيتُ لهُ ما وقَع، وقال: "لا تَقلق.. إذا طردكَ البَخيل؟ فعندَ الكريمِ تبِيت"..

ثم ابتسَم: "هذا مَثلٌ مَغربِي"..

وهذا الرجُل لا يَحتاجُ لتعريف.. إنه من كبار الإذاعة والتلفزة، عطاءًا وإبداعًا.. وله مُبادراتٌ خلاّقةٌ ساهمَت في تطوير الإعلامِ السّمعي البصري بالمغرب..

قال لي: "أنا ذاهبٌ إلى مَكتب مُدير الإذاعة الوطنية، عبد الرحمان عَشُور.. فالتَحِقْ بي هُناك.. ستَجدُني بِمَكتبِه.. لا تتَأخّر"..

وهذا ما حصَل..

استَقبَلني المُديرُ عبد الرحمان عَشُور، ومعهُ "محمد بن عبد السلام".. واقتَرَحَ عليّ أن أُعِدّ برنامجًا إذاعيًا: "ستُقدّمُه بإذاعة طنجة، ونحنُ نُعمّمُه على أمواجِ الإذاعة الوطنية"..

واتّفقنا..

وسألِني عن سببِ مَجِيئي إلى الرباط، فقلتُ: "أبحثُ عن مَسكنٍ لابنِي في "الحيّ الجامِعي السّويسي 2" - الرباط..

وبعد لحظات، سلّمنِي توصيةً طيّبةً إلى مُديرِ الحيّ..

ولم أعُد إلى طَنجة، إلاّ وابنِي قد حَصلَ على مَسكنٍ في الحيّ الجامِعي..

وجدتُ الخَبرَ قد سبَقني إلى الإعلامي خالد مَشبال، مُدير إذاعة طنجة..

فرحّب بي.. وسيكونُ برنامجي الإذاعي بعد مُنتصَفِ الليل..

واقترحتُ عُنوانًا للبَرنامَج، هو: "عُيُون".. عُيُونٌ على السماء.. عُيُونٌ على الأرض..والفضاء.. والبِحار..

واستَضفتُ في الحلقة الأولى: طبيبَ العُيُون.. وشاعرَ العُيُون.. وقدّمتُ كُشكُولاً من نُجومِ التّخصُّصات المرتبطة بالعُيُونٌ..

وشاركَ معنا داخل الأستوديو، في الحلقة الأولى، "د. علال الغازي"، الحاصِل على جائزةِ المغرب في الأدب، خلال سبعينات القرن الماضي.. ومن الدار البيضاء، كانت معنا بالهاتف الأستاذة الجامعية "زهور كرّام"..

ساعات متواصلة بعد منتصفِ الليل، أتحَفَت البرنامجَ بمُدَاخلاتٍ مُتنوّعة جذّابة..

ومع الفجر، أعادَني سائقُ الإذاعة إلى المَنزل..

وخلالَ النهار، انقَلبَت الدّنيا.. خالد مشبال يَدعُوني إلى مَكتبه بالإذاعة..

أخبرَنِي أنّ وزيرَ الداخلية والإعلام "إدريس البصري" قد اتّصل بالسيد "والي الإذاعة الوطنية"، وهذا الأخير اتصلَ بمُدير الإذاعة الوطنية، عبد الرحمان عَشُور، وهذا اتّصل بِي، ويريدُ أن يُكلّمني مساء اليوم، في السادسة..

- "ياك لا باس، يا السّي خالد"؟

قال خالد مشبال: برنامجُك أحدثَ قَربلة.. ويجب أن تكون هنا، بمكتبي في السادسة مساءًا.. و"عَشُور" سوفَ يُكلمُك في هاتف الإذاعة..

وفي السادسة بالضبط، رنّ الهاتف.. إن الأستاذ عبد الرحمان عَشُور مُنضبطٌ في توقيتِه..

وأدركتُ أنّ "البَصرِي" يَتضَامنُ مع "بيِير كازَالْطا": "كيف يُعقَلُ أن تُشغّل الإذاعةُ الوطنيّة صحافيّا مَطرُودًا من إذاعة ميدي1؟ هل أنتم معنَا؟ أم ضدّنا؟"..

وعلّقَ "الفُكاهِي الضّاحك": "القضيةُ أصبحت حامضة!"..

وفعلاً تمّ إيقافُ البرنامج.. حلقةٌ ناجحةٌ واحدةٌ كانت كافيةً لإيقاف البرنامج...

- إنه لأمرٌ مُضحِك.. حلقةٌ واحدةٌ لكّل البرنامج..

كان البَصْرِي يفعلُ ما يُريد..

ولا حسيبَ له ولا رقيب..

القناة الثانية

وفي زمن "البَصْرِي "أيضًا، وبعد انتهاءِ "المُناظرة الوطنية الأولى للصحافة سنة 1993، دعاني مُديرُ الأخبار بقناةِ "دُوزِيم "الأستاذ محمد مامَاد، إلى .ندوةٍ مسائيةٍ لهذه القناة، حول حصيلةِ المُناظرة

وجِئتُ قبل الوقت المحدّد، وأعدَّت القناةُ غُرفةً خاصة بي في الفُندُق..

وعندما اقتَرَبت الساعة، أطلَعُوني إلى "البلاطُو".. وما هي إلا لحظات، حتى كان السي محمد مامَاد، يُشيرُ لي بالنّزول..

نزلتُ من "البلاطُو".. فماذا حصل؟

مَبعوثةُ "ميدي1" أخبرَت "كازالطا" أنّ عبدَ ربّه موجودٌ هُنا، وسوف يُشاركُ في النقاش التلفزيوني حولَ المُناظرة..

وتحرّكت الهَواتف.. ووقعَ الكلام.. وتبادُلُ المَعلُومات..

وأُخرِجتُ من التلفزة.. ولم أشارك في النقاش..

ولا أستبعدُ شبحَ "البَصْرِي".. وأنا لا أعرفُ البصري، إلاّ بلقطاتٍ سمعية بصَرية.. وهو لا يَعرفُني إلاّ بالاسم..

ولكنّني أجدُه أمامِي أينما اتّجَهتُ، وهو حَجرُ عثرة، أمامي أنا وأُسرَتي.. فماذا فعلتُ لهذا "البَصْرِي"؟

لماذا يُلاحقُني حتى في لُقمة العيش؟

- وهذا لم يَمنع مُؤسّسِي "النقابة الوطنية للصحافة المغربية" من عقدِ لقاء خاص، مع وزير الداخلية والإعلام، بشأن طردِي التّعسّفي من إذاعة "ميدي1"..

والتزمَ "البَصْرِي" أمام هؤلاء الصحافيّين الكِبار بأن يقُوم شخصيّا بالإجراءاتِ اللاّزمةِ للبحثِ في وضعيةِ هذا الصحافي..

وكلّف إدريسُ البصري الكاتبَ العامّ "حَسْبِي"، بمُتابعة القضية..

وهذا كلُّ ما في الأمر..

وفي 1999، كانت المفاجأة .. إقالةَ إدريس البصري من مَنصبه..

نهايةُ الأسطورة!

ثُم نَفَى "البَصرِي" نفسَه إلى باريس..

الخضراءِ الجديـدة

دخلتُ إلى المَطبَخ، وسألتُ زوجتي: "كم تَبَقَّى من الميزانية؟"
أجابت: "2000 درهم.. هذا كلُّ ما عِندَنا"..

إنّنا نَستَهلكُ أكثرَ ممّا نُنتِج.. وها هُو ضوءٌ أحمرُ يَشتعِل.. ومع ذلك، كانَ لا بُدّ من المُغامَرة.. سأُغامرُ وسوف أَنجَح.. أغمضتُ عينيّ، وتوكّلتُ على الله.. ومن طنجة، أصدرتُ جريدة: "الخضراء الجديدة"..

أسبوعيةٌ جِهويّة أصدَرتُها بدايةً من 24 يناير 1992.. ووَاصلَت الصّدورَ بانتِظام، كلّ خميس، على امتِداد حوالي 13 سنة..

طاقمُها التّحريرِي بلَغَ في أوجِ عطائها حوالي 20 فردًا، بين صَحافيّين ومُراسلينَ وكُتّابٍ وتِقنيّين، إلى جانبِ التّوزِيـع...

وفي هذا الأَوج، كانت تَطبع حوالي 20 ألف نسخة من كُلّ عدَد، و تُوزَّعُ بطنجة وتطوان وشفشاون والعرائش والقصر الكبير والقنيطرة والرباط وغيرها.. وكانت للجريدة شبكةُ توزيـعٍ في بعضِ الدول الأوربية.

وكان التوزيـعُ مَنظّما ومُنتظِما، ويأخذُ في الاعتِبار قُوّةَ المواضيع المنشورة..

وتمكّنت هذه الأسبوعيةُ من الدّخول إلى جُلّ البيُوت، وخاصة بعرُوس الشمال طنجة، بفضلِ المَواضيع التي كانت تتَناولُها، والأفكار الجديدة التي كانت حِريصةً على ابتِكارِها، والطريقة التي كانت بها تُقدّمُ منتُوجَها..

وكثيرًا ما كانت "الخضراءُ الجديدة" تَنفُدُ عن آخرِها، بمُجرّدِ وُصولِها إلى الباعة، فنضطرّ لإصدارِ طبعةٍ ثانية، وأحيانًا ثالثة، في اليوم الثاني..

القُراءُ كانوا مُهتمّين بالمَواضيع التي كانت تنشرُها، وهي مواضيعُ ساخِنة، ناقِدة، وتتميّزُ بالقُرب من الحياةِ اليومية للناس..

وأنا المُديرُ ورئيسُ التحرير أقضي يومين مُتتاليين، ليلا ونهارا، بمقرّ الجريدة، في عملٍ مُتواصل، لتجهيزِ الجريدةِ للطّبع، كي تصل إلى قُرّائها في الموعدِ المُحدّد..

**هي جريدةٌ بيئيةٌ بالأساس.. وضَعتُ لها شعارا: "تلوُّثُ البيئةِ من تلوُّث الفِكر"..
وهذا للتوعية بكونِ التلويث لا يأتي بالصُّدفة.. كثيرا ما ينطلقُ من تفكير المرءِ قبل أن يصل إلى الشارع وإلى حياتِنا العامة.. وإذا أردنا بيئةً طبيعيةً سليمة، فعلينا بتغييرِ عقليةِ التّلويث..**

ومن أجل مكافحة التلوُّث، صرتُ أنفتحُ على كل أشكال وأنواع التلوث: البَشَرِي، الإداري، السياسي، الاقتصادي، وفي كل القطاعات..

وقال لي صحافي فرنسي كُنّا نتَعارفُ في إذاعة "مِيدِي1": "إنّ البيئة الطبيعية لا تبيعُ الجرائد"..

أجبتُه: "ولكنّ مُكافحةَ التلوّثِ تُنتِجُ أفكارا صحافيةً ساخِنة قابلةً للتّسويق"..

وانفتحتُ على التلوُّث.. كلّ أنواع التلوُّث والتلويث..

وصنعتُ جريدةً ناقِدةً ناجحة..

ومعي فريقُ عمَلٍ قد استوعبَ رسالةَ الجريدة، وهي النقدُ البنّاء لكل ما يستَوجبُ النّقد..

ونَقَلْنَا الجريدة، وبِلُيُونة، من البيئةِ الطبيعية المَحضَة إلى الحربِ المفتوحة على التّلوث، أينما كان..

هذه جريدةٌ ناقِدةٌ بلا حدُود.. تنتَقدُ كلّ ما يجبُ انتقادُه، في مسار أية مؤسسة عمومية، أو مجلس مُنتخَب..

والجريدة تمارسُ النقدَ البنّاء، بلا تحامُل، ولا دخولٍ في الحياة الشخصية.. وتحرصُ على البحث، والتحقّق من المعلومات، وإذا أخطَأَتْ، لا تتردّدُ في الاعتذار العلني..

العملُ الصحافي يختلفُ عن العمل الإذاعي، من حيثُ كون الأوّلَ تواصُلٌ مع العَين، أي بالقراءة، والإذاعةُ تواصُلٌ مع الأُذُن..

ويبقى الخطابُ واحدًا.. هو الإخبارُ بما يَقَع..

وفي الجريدة اتصالٌ مُباشرٌ مع الناس..

والجريدةُ أكثرُ تفاعُلاً مع الزُّوار..

شكايات قضائية

خلال 13 سنة من إصدار "الخضراء الجديدة"، رُفعت ضِدّي 13 شكاية أمام القضاء.. أي بمعدل شكاية كل سنة..

شكايات من برلمانيّين، ورؤساء جماعات محلية، ومُراقِب عامّ، وحتى من بعض الخواصّ.. وانتهت كلّها بالبراءة.

وأحدُ الوزراء تَراجعَ عن شكايتِه..

لقد كان يخلطُ بين مفهُومَيْ "السبّ والقذف" وحقّ انتقادِ حزبِه..

ونحن نُفرّقُ بين الشخصِ وحِزبِه..

وقد سحبَ شكايتَه من المحكمة..

وتنازَلَ أيضا مليارديرٌ برلماني..

وهذا كان يَبتزّ الجريدة.. يريدُها أن تكون في خدمتِه..

واشترى صحافيًّا مُزوّرا من الرباط، وأنشأ له جريدةً بنفسِ الشكلِ والإخراج، وأسمَاها "الخضراءِ السياسية"، وأسّسَ له شركة توزيـع، وصار يُوزّعُ جريدتَه مجانا في شوارعِ طنجة، ولم يفلح في إقناعِ قُرّائنا بأنّ جريدتَهُم هي "الخَضراء الجديدة"..

وهذه المعركة لم تزِدنا إلاّ إشعاعًا..

تهمة زرقاء

خلال إحدى الحملات الانتخابية، طَبَعنا "الخضراء الجديدة" بمَطبعةِ "الوَرْزَازِي" في "حيّ الدّرادب"..
والمفرُوضُ أن تكُون بعضُ الصّفحات مَطبوعةً باللونِ الأخضر..

ولكن هذه المطبعة لم يكُن لها اللونُ الأخضر، في وقتِ الطباعة.. والوقتُ كان يُداهِمُنا.. ويجبُ أن يكُونَ العددُ مُوَزّعا في المساءِ بمدينة طنجة..

قال لي المسؤولُ عن المَطبعة، "الوَرْزَازِي" رحمهُ الله: "أنتُم تُريدُون اللونَ الأخضر، وهو غيرُ موجودٍ عندنا.. وأقترحُ عليكم اللونَ الأزرق..

واضطرَرنا للطباعةِ بالأزرق.. مسؤول في أحد الأحزاب فَهِم أن الجريدة تُساندُ حزبَ اللونِ الأزرق..

وغضبَ بعض فُهماءُ الحزبِ.. كتبوا تقريرا أوصله لمقر الجريدة "مناضل" من نفس الحزب، ونشرنا في ذلك الوقت قراءات لمضمونه.
الحزب ذكَرَ اللّونَ في تقريره.. وكتب أن الأزرقَ دليلٌ على تواطُؤ الجريدة.. واتّصلَ بي كبِيرُهم في طنجة، وصارَ يشتُم ويُهَدّد.. ويتّهمُنا بالوقوف مع مُرشّحِ حزبِ "العَقار"..

وظل بعضُ كبارِ هذا الحزبِ غاضِبِينَ.. ويقولون: "من ليس معنَا، فهو ضِدّنا"..

تهديد بالانتحار في مقر الجريدة

اتّفقتُ مع "فُلان" على أن يُعِدّ تحقيقًا عن أحداثٍ تقعُ أحيانا في الميناءِ القديم لطنجة: ماذا يَقعُ هناك بعدَ مُنتَصَفِ اللّيل؟
وانطلقَ - كما تَهيّأ لي - إلى الميناء.. لكن أدركتُ فيما بعد، أنهُ أصلاً لم يذهب إلى المِيناء.. ولم تكُن له دِراية بِما يَحدثُ هناك، من أحداثٍ مشبُوهة، يَشتَكي منها بعضُ القُرّاء..
لقد كان من مَنزِله يَصطَنِعُ سيناريُو لِما يُمكنُ أن يَحدُثَ بعدَ مُنتَصَفِ الليل، في أيّ مكان..
والتّصوُّراتُ والتهيُّؤاتُ والتّخيُّلات ليست صحافة..
-وجاءني بالموضوع في الوقت المحدّد..
إنه يُجيبُ عن "ماذا يحدُث"؟ وقد تقعُ أمورٌ كثيرة.. فهل هو مُؤّهلٌ للغَربلةِ والانتِقاء؟
سألتُه: هل أنتَ مُتأكّدٌ من هذه المعلُومات؟
أجاب: نعَم.. لقد تأكدتُ بنفسي من أنّ الباخرةَ نزل منها أشخاصٌ مشبُوهٌ فيهِم.. وتتَبّعْتُهُم.. وبعد مُنتَصفِ الليل، سلّمُوا حقيبةً لشخصٍ مَسؤول، وهذا الأخيرُ من جِهتِه، سمِعتُه يشكُرُ من أتَى بالحقيبَة..
وسألتُه: إذن، في القضية رَشوة.. هل أنت متأكّد؟
أجاب: نعم.. الرشوةُ حاضِرة.. وأنا مُتأكّد.. أعرفُ من سلّمَ الرشوة، ومن تَسَلّمَها..
ومن باب الاحتياط، تعمّدتُ أن أتجنّبَ ذِكرَ الأسمَاء..
-واتّضحَ لي أن هناك غموضًا..
وأمهَلتُه أسبوعًا آخر، لكي يَضبِطَ معلُوماته..
وهذه المرة جاء بمَعلومات تبدُو معقُولة..
وبعد النشر، تنبّهتُ إلى أن المعقُول قد لا يكونُ هو الحقيقة.. ولكن فاتَ الأوان..
ويوم الخميس، أتصل بي مسؤولٌ أمني من الميناء: "يا السّي أحمد! ما هذا السّيناريو الذي نَشَرَتهُ الجريدة؟ إنه افتراء.. مُجردُ افتِراء.."
حاوَلتُ الاتصالَ بالمُبتدِئ، ولا جَواب.. الهاتفُ مقطُوع..

وبعد الظّهر، دَقّ بابَ الجريدة.. وفُتِحَت له الباب..
ودخَلَ وكأنهُ عزرائيل.. وصرخَ في وجهِي: ماذا تريد؟ أنا جِئتُك بالمعلُومات..
فعلا، جاء بها.. فهل هي المعلوماتُ المطلوبة؟ وهل هي دقيقة؟ صحيحة؟ وهل وهل؟؟
بدَا لي أنه غيرُ طبيعي..
ورفعَ صوتَه أكثر: "واضِحٌ أن المَعلوماتِ هي الأَهَمُّ عندَك.. تهمّك، لأنها سوفَ تبيعُ جريدتَك.. أليس كذلك؟.."
وازدادَ صُراخُه: "أنا أعطِيكَ معلومةً أهمَّ من كلّ هذا..
ثم انقَضّ على الكُرسِيّ باتّجاه النّافذة، وأخرجَ سِكّينًا من جيْبِه، وهدَّد بالانتِحار: "سأضرِبُ ذِراعِي بهذا الخَنجر، ثم أقفِزُ من هذا الطابقِ الخامِس.. وستِجدُ أنتَ معلوماتٍ ساخنةً تَستطِيعُ بها أن تبيعَ جريدتَك.."
-وها قد احمَرّت عيناه..
وبَغتةً حاصَرهُ شابّان من أسرةِ تحرير الجريدة، ولم يُطلِقاه من قبضَتِهِما إلاّ بعد أن هَدَأ، ثم أخرَجاهُ بأدبٍ واحترامٍ من باب الجريدة..
وبعد حوالي شهر، عادَ إلى الجريدة، راجيّا أن أسمحَ له باستِئنافِ العَمل..
ثم جاءَ في الأسبوع الآخَر، والثالث والرابع.. وفَقَدَ الأمل..
-وانتهت العلاقةُ بهذا الشخص..
وجبَ الحذَر! قد يأتيك مَبعُوثُك بأجوبةٍ مُقنِعةٍ عَن أسئلتِك، وبعد فواتِ الأوان، تُفاجَأُ بأنها ليست حقيقية، بل هي إجاباتٌ على مَقاسِك.. المَقاس الذي أنت تُريد..
واعتَذرتُ للمَسؤول الأمني، وتفَهّم أن الجريدة نفسَها ضحيةُ صِحافيّ مُزوّر، غيرِ مُؤهّل..
الصّحافيّ المُزوّر قد يُعطِيك البريق، ولا يُعطِيك الحقيقة!

الخطّ التّحرِيري

طوال 13 سنة، ظل الخط التحريري لجريدة "الخضراء الجديدة" محافظا على معالمه الرئيسية.. والخط التحريري يتضمن للمعالجة عدة زوايا يمكن ايجازها في النقط التالية:

التّدقيق: الحرص على كسب ثقة القراء، بتقديم أخبار صحيحة، ومعلوماتٍ دقيقة.

الصحافة لا يصنعُها الصحافي وحده، بل تصنعها أيضا جماهيرُ القُرّاء . وعندما تصلُنا تصريحات أو بيانات، ننشُرُها، شرطَ ألاّ تتَضمّنَ مساسًا بأشخاص.

الاستِقصاء: وهذا يعتمد على البحث الميداني: مهنيون يخرجون إلى الميدان، فيلتقطون الصور، ويسجلون الأحاديث، لنقل معلومات وشهادات وآراء من عين المكان، لجعل القارئ يعاين الحدث بعيون "الخضراء الجديدة"..

ومع ذلك، كثيرا ما تَعرّضنا لتسريباتٍ سلبية، بسبب سلوكاتٍ غيرِ سويّةٍ من بعض المصادر. وفي هذه الحالة، نُبادر فورا إلى التصحيح. فكل خطأ، يجب تصحيحه عبر متابعات، لكي نُقدم موادَّ إخبارية وتحليلية صحيحة بنسبة كبيرة، حتى يتمكن القارئ من جهتهِ ببِناءِ استنتاجاتٍ سليمة.

وفي عَملنا الاستقصائي الميداني، نحرصُ على تقديمِ وجهاتِ النظرِ المختلفة، لضبط مدى تأثير هذه الأحداث على حياة الناس.

المَصادر: كُنا نحرصُ على إعلانِ مَصادرِ معلوماتنا وأخبارنا، حفاظا على المِصداقية.. وعندما نكون نحن مصدرَ خبرٍ أو معلُومة، نقولُ هذا بوضوح، ونُقدّم دليلا ملموسا على ذلك.. الصحافي مُطالَبٌ دائما بتقديم ما يُثبِت صحةَ ما يَنشر.

وفي هذا السّياق، نحن مُطالَبُون في أجناسِنا الصحافية بالإجابة عن الأسئلة: من؟ ماذا؟ متى؟ أين؟ لماذا؟ كيف؟

وكنا نكتبُ في أجناسٍ منها الخبر، المقال، التحقيق، الحوار، وغيرها...

وأحرصُ في كتاباتي، باعتباري المُدير ورئيس التحرير، على صياغةِ بعض الأحداث، بشكلِ "القصة الخَبرية"، وفيها الفكرةُ المِحورية، ولغةٌ تتّسم بالبَساطة والوضوح، مُراعيًا أهمّية المُقدّمة والخاتمة، والعُنوان...

إن المعلومات قد لا تصل إلى القارئ، ولو كانت صحيحة، إذا لم يُقدّمها الصحافي بطريقة تِقنيةٍ جذّابة، وهذه مهارةٌ كنتُ أحرصُ على تقدِيمِها لأُسرَة التحريرِ داخلَ الجريدة.

الحذر من عقدة النجومية: أخطرُ ما كان يتَعرض له بعض المحرّرين: النّجومية.. هذه تقُود إلى الغرور.. وفي هذه الحالة، يَنعكسُ الغُرور على مَنتُوجِهم، ويُسئ لسمعة الجريدة..

وفي بعض السلوكات لا تتوقف الإساءة عند الرداءة، بل تتجاوزها إلى ما هو أسوء..

ولذلك، كنت أفضّل مُراسلاً قليل المَعرفة، ولكنه مُتشبعٌ بضمير مهني، على شخص آخر كثيرَ المعرفة ولكن قليلَ الضمير..

فمن يريد بالفعل أن يتكوّن، يستطيعُ أن يتعلم داخلَ الجريدة ويتطوّر.

وهذا ما جعل بعضَ أفراد "الخضراء الجديدة" يَكبُرون مهنيّا، وفيهم من أصبح صحافيا دوليّا..

وهذا يقُود إلى تقديرِ المجهُود الجبّار الذي بذَله طاقمُ الجريدة.. إنّ الفضلَ يرجعُ إلى هذا الطاقم، وإلى القُراء، والكُتاب، وغيرِهم، في إشعاعِ "الخضراء الجديدة"..

كُتّابُ الرأي : يُقدمُون آراءَهم بخصوص مجريات الأحداث.

إنهم مُساهمُون في تبليغِ الرسالة الإعلامية..

أحيانا كان البعضُ يُرددون هُنا وهناك أن الكاتب الفلاني له الفضلُ في انتِشار الجريدة.

وبالنسبة لجريدة "الخضراء الجديدة"، وباعتباري مَسؤولَها الأوّل، أنا أعرَفُ من غيري بالأسبابِ الحقيقية لبيع الجريدة: إن الكاتِب يُساهِم في تألُّق الجريدة، وليس هو المَصدر الرئيسي لبيعِ الجريدة، فما يَبيعُ الجريدة هو الخَبرُ الصحيحُ والسّبقُ القويّ وكيفيةُ المُعالجة والتّقديم...

السرُّ يَكمُن في المَضمُون والمُعالجة والعَنوَنة والإخراج..

السرُّ يَكمُن في الكَيفِ لا في الكمّ..

وهذا لا يُنقِصُ من قَدرِ أي كاتب..

فإذا لم تلتزم الجريدةُ بتقنياتِ وتَطوير نفسِها، من مهارةٍ إلى فنّ، فإنها لن تستطيع تقديمَ كاتبٍ من حجمِ العلاّمة والمَنجرة وغيرِهما، بالشكلِ القيّمِ المُفيدِ الجذّاب.

العَلاّمة عبد العزيز بن الصّديق

"العلاّمةُ عبد العزيز بن الصّدّيق" .. رَجُل فاضل .. شخصيةٌ لا تُنسَى.. كنت أتصلُ بهِ بانتِظام، وأخبرُه بمُستجدات حالة من حالات المجتمع والسياسة والثّقافة، وأحيانا أقترح عليه تعليقا في موضوع ما، ثم يأتيني الجواب مكتوب بخط نجله الدكتور عبد المنعم بن الصديق.

والعلامة نفسُه تناول في كتاباته كثيرا من مواضيع الساعة.

وذاتَ يوم: التقيتُ صديقي الأستاذ "عبد السلام النّقّاش" الذي كانَ مُفتّشَ "حزبِ الاستقلال" بطنجة، ورئيسا لجماعة "اثنين سيدي اليماني"، فتَحدّثنا كالعادة في كل شيء، وقفزَ إلى واجهة الحديث سؤال: ما رأيُ العلَّامة في المسألة الجنسية؟

قال الأستاذ النقاش: "اطرَحْ السؤالَ على العلاّمة، أكيدًا سوف يُجيب، وستكُون إجابتُه شافية.."

اتصلتُ بالعلاّمة وحدَّثْتُه في الموضوع . وبعد أيام، زارني نجلُه الأستاذ عبد المنعم في مقرّ الجريدة، وسلّمني مقالاً لفَضيلة العلاّمة.. هو جواب على سؤال من سيّدةٍ قارئة..

وَوضَعتُ للمقال عُنوانا هو "ما يجُوز وما لا يجُوز في الحياةِ الزّوجيّة.."

هذه هي خلفياتُ الكتاباتِ الجنسية - لفَضيلة العلاّمة - التي تمّ تَجميعُها في كتابٍ بنَفسِ العُنوان، أصدَرتهُ مؤسسةُ البوكيلي للطباعة والنّشرِ والتّوزيعِ بالقنيطرة.

وعلمتُ، فيما بعد، أنّ الكتابَ قد تمّت تَرجمَتُهُ إلى الفرنسية مِن قِبَلِ "د. عبد الحميد شَبّكُودَة" الذي يُدرّسُ الدّينَ الإسلامي في جامعةٍ بلجيكية.

العَلاّمةُ شخصيةٌ سياسيّة أيضا، ومن عاشرُوهُ في تلك الفترة، عرفُوا كيف كانت مَواقِفُه وهو عضوٌ بالمجلس البلدي لطنجة خلال ستّيناتِ القرنِ الماضي، عن حزبِ "الاتحاد الاشتراكي"..

كان يُفرّقُ بين الشأنِ الغَيْبي والشأنِ التّدبيري: بين الدين والدُّنيا.. ويُفرّقُ بين قناعتِه وقناعةِ غيرِه.. كان يَحترمُ الرأيَ الآخر.. ويَلتزمُ بمبدَإ الحِوار..

العَلاّمةُ مُنفتحٌ على الجمِيع..

وقد تَقبّلَ العَلاّمةُ بصدرٍ رحبٍ كلّ الآراء التي خالَفَتْهُ في كتاباتٍ تحوّلت إلى: "ما يجوزُ وما لا يجُوزُ في الحياة الزّوجية"..

المهدي المَنجرة

كانت "الخضراء" و"الخضراءُ الجديدة" مفتُوحةً لخبِيرِنا في العلُومِ المُستَقبَلية..
ولهُ فيهِما حوارات..
وعندَما كان في "زمنِ البَصرِي"، وزير الداخلية الأسبق، يُمنَعُ من إلقاءِ مُحاضَرات،
كانت "الخضراءُ الجديدة" مُتَنفَّسًا للعَالِمِ الكبِير..
وعندمَا اضطَرّ للرّحِيل إلى "اليابان"، كانت الجريدةُ تُقدّم أخبارَه، وتَقِفُ إلى جانبِه،
مُسَانِدَةً لخبِيرِنا في المُستَقبَليّات..
وكُلّما كان له مُلتقًى فكري، يَدعُوني للحضُور..
وقد التَقينا كثيرا.. وعرفتُ هذه الشخصيةَ المغربيةَ عن قُرب..
وفي خِضمّ الحرب الأمريكية التّحالُفيةِ على العراق، عام 2003، أجريتُ مع خبيرِ
المُستَقبَليات - د. المهدي المنجرة - سِلسِلة لقاءات شخصية وحِوارية مُتتالية،
بعضُ مَضامينِها نُشرت في الجريدتيْن، وفي كتابِه "الحرب الحَضارية الأولى"..
نقاشاتٌ وحواراتٌ شفوية ومكتوبة، عبرَ سنوات، مع د. المهدي المنجرة، كانت
تَدورُ حولَ الخَلَلِ الحاصِل في العلاقاتِ الدّولية، بسببِ هيمنةِ الكبارِ على الصغار..
وظلّ الرّجُلُ مُنشغلَ البالِ بهذا الخلل الذي يُشكّلُ خطرًا على سلامةِ البَشرية..

أحمد بُوكْمَاخ

تعرّفتُ عليهِ في طنجة..

وأجرَيتُ معه لقاءاتٍ وحِوارات، حَول سِلْسِلتِه التّربَويّة: "اِقرَأْ"..

يُطلَقُ عليه "مُرَبّي الأجيال".. وقد ترَبَّتْ على "اِقرَأْ" أجيالٌ منَ المُستَويات الدراسيةِ الابتدائية..

وكانت أخواتٌ وإخوةٌ تتناوبُ على قِراءتِها، وتَصِلُ إلى بَناتِ وأبناءِ الجيران، وتَنتقلُ مِن طفلٍ إلى آخر..

كُتُبٌ رَخِيصةُ الثّمن، كثيرةُ الفائدة، ولها مِيزةٌ تعليميةٌ وتربوية، وما زالت حاضرةً في ذاكرة أجيالٍ قد أصبحَ بعضُها أُطُرًا في الداخلِ والخارِج..

كانت لي جلساتٌ مع "أستاذِ الأجيال".. وقال لي: "أستغربُ لحالةِ التّعليم.. أرى أطفالاً يَحملُ كلّ واحدٍ منهُم 10 كيلوغراماتٍ من الكُتُب"..

والكُتُبُ ليست كيلوغرامات.. ليست حُمُولة.. إنها مَضمُون..

كان يفكّرُ في تطويرِ "اِقرَأْ".. وأكدَ لي أنه يشتغلُ على قامُوسٍ خاصّ بالأطفال..

فهمتُ من مُلتقياتٍ مع الأستاذ بوكماخ، أنهُ يُفكّرُ في تحويلِ "اِقرَأْ" إلى نمُوذجٍ تعليمِيّ للتّحمِيسِ على النُّبُوغ، بَدَلَ الدّفعِ بالتعليم إلى التراجُع، بسبَب جعل الكتابِ المَدرَسي مُجرّدَ تِجارة..

لو تيَسّرت الظروفُ للرّجُل، وهو ذُو بُعدِ نَظَر، لَمَكّنَ الكتابَ المَدرَسي من مُواكبةِ التّقدّمِ أكثَر، بدلَ جَعلِهِ عُرضةً للانقِراض..

كان الأستاذ بُوكماخ سابقًا لوَقتِه في زمنِ "اِقرَأْ"..

إنه مِن نوابِغِ الإبداعِ في التعليمِ العُمومي المغربي.

سميرة القادري

السُّوبرانُو.. الفنّانة الكبيرة.. الباحِثةُ المُوسيقيّة.. تُتقنُ لُغاتٍ قديمةً في شبهِ الجزيرة الإيبِيريّة، لدرجةِ أن كثيرًا من الإسبَانِ أنفُسِهِم لا يَعرفُونَها..

2010: بدأت حملةُ التّشهير ضدّ الأستاذة سميرة القادري وزوجِها المُهندس..

وطلبتُ هاتِفَ المُهندس من الأستاذة نعيمة، شقيقةِ الفنانة، فحَدّثني في الهاتف.. أردتُ أن أعرفَ رأيَه، لأن الحملةَ تَستَهدفُ زوجتَهُ الفنّانة، كما تَستَهدفُه هو شخصيّا..

وأجابني: "سميرة هي زوجتي منذ 23 سنة، ولا أسمحُ لأحَد أن يُسِيءَ لها، من قريب أو بعيد.. لقد وَعَيتُ منذُ اللّحظات الأولى لانطلاق حملة التّشهير، أن مُؤامرَةً تستهدفُ حياتنا الزوجية.. وسأُواجهُ العصابةَ بكلّ ما أُوتِيتُ.. إنها مُؤامرة، لا أقلّ ولا أكثر"..

هذه كلماتُ الزوج المهندس..

وقلتُ في نفسِي: "هذا زوجٌ يُعتَمدُ عليه"..

وفي يومٍ لاحِق، نشَرَت جريدةٌ رِياطيّةٌ في رُكنٍ يصِفُني: "كارِي حَنكُو".. ولم أرُدَّ عليه.. وإذا كان له ضمير، فليَتَذكّر أنّني من المُدافعين عنه في وقتٍ من أوقاتِه الصّعبة..

واحتدّت حملةُ العِصابة..

وأصبحَت مِهنٌ أخرى تُشاركُ في حملةِ التّشهير.. أشخاصٌ يُساهِمُون في إضرام النار، من أجل هدفٍ واحدٍ هو "إحراقُ" فنانةٍ كبيرة..

والفنّانةُ لا تزدادُ إلاّ صُمودًا..

وكل يومٍ تذهبُ إلى عملِها المُعتاد.. هي مُديرةٌ لدار الثقافة في تطوان.. ولا تعبأ بأحَد: "القافلةُ تَسِير.. والكِلابُ تنبَح."..

وفي المساء، تُصابُ باكتئاب: "يا ربّ! لماذا يُهاجِمُونَنِي؟ ماذا فَعلتُ؟ لماذا اكْتَرَوا شخصًا للإساءةِ لي؟"..

انطلقت تعبئةٌ لإنقاذ الفنّ المغربي، من فيرُوسٍ يَستهدفُ أحدَ رمُوزه..

في النهاية.. هزَمت سميرة القادِري المُتآمِراتِ والمتآمِرين، بقُوّتِها وصبرِها ورباطةِ جأشِها.. وعادت لتألقها الفني.

الحاجّة الحَمداويّة

قَبْلَ "الخضراء الجديدة" ، كانت "الخَضراء"..

وفي العدد 69 (22 سبتمبر 1991)، بَدأتُ في "الخضراء" حملةً لفائدةِ الفنّانةِ "الحاجّة الحَمداويّة"..

ومَن مِنّا لا يَعرفُها؟

هي قويّة بالأداءِ والمَضمُون، وفي مُخاطبةِ "البَندِير"، ومن خلالِه مُخاطبةِ نُفوسِ وضمائرِ البلد..

ولا ننسَى لها مَوقفَها عام 1953، عندما أقدَمت فرنسا الاحتِلاليّة على نَفيِ السّلطان محمد الخامس..

آنذاك فَرضَت "بن عَرَفة" على العرش.. فاهتَزّ المغاربة، وثارَ أحرارُ البلد، كلٌّ بسلاحِه..

وأشهَرَت "الحاجّة الحَمداويّة" بندِيرَها في وجهِ الاحتلالِ الغاشِم.. فكانت أُغنيتُها الشهيرة: "أَوَيْلِي يا الشّيبَاني"..

وردّدَ الأغنيةَ مَلايينُ المغاربة..

وأُدخِلت "الحاجّة الحَمداويّة" إلى السّجن في فرنسا.. ولم تَعُد إلى المَغرب، إلا مع عودةِ السّلطان..

قالت لي "الحاجّةُ الحَمداويّة" عندما زُرتُها في بيتِها عام 1991، في طنجة: "لِحدّ الآن، لم أحصُل على بِطاقة المُقاوَمة"..

وتَدَخّلَ الملكُ محمد السادس، بعدَ أن تَولّى الحُكم، ووَصلَه ما هي عليه، وحَماها من غدرِ الزّمن..

زُرتُها في بيتِها بطنجة، بصفتِي الصحافية، وكتبتُ سلسلةَ مقالاتٍ في ذلك الوقت، بنفسِ الجريدة..

وقد وجدتُ "الحاجّة الحَمداويّة" آنذاك في عُمقِ المأساة.. فنانةٌ في أرذلِ العُمر.. مريضة.. عاجِزة.. ومسؤولةٌ عن تِسعِ نُفُوس.. وأحَدُ أطفالِها بالتّبنّي مرِيض.. والبيتُ بلا ضوء ولا ماء.. وهي مُهدّدةٌ بإفراغِ بيتِ الكراء..

وسألتُها: لماذا تَركتِ الزّمنَ يفعلُ بك ما أنتِ فيه؟"..

أجابت الحاجّةُ الحَمداويّة "مُطربةُ المُقاومة المَغربية": "كنتُ آخُذُ من النّاس، وأُعطي للناس.. كانت فُلوسِي هي فُلوسُ المُحتاجين من الناس.. أعطي الأسبقيةَ للآخرين.. فلم أفكّر في شراء مَنزلٍ أو عِمارة.. وصِرتُ أؤخّرُ نفسي، وبقيتُ على هذه الحال من الأسبقيةِ للغير، إلى أن فاجأني الزّمن.. وما حسِبتُ أن الزمن غدّارٌ بهذا الشّكل"...

وقالت لي أيضًا "سيّدةُ المُقاوَمة": "كان عبد الحليم حافظ يأخُذُ معي "الطّعرِيجَة".. إنّني قد أشهَرتُ "بَندِيرِي" في وجه الاستعمار".. وقد سجنَتنِي فَرنسا.. ولم أَعُد إلى المغرب إلاّ مع رُجُوع محمد الخامس"..

الحديث عن الحاجة الحمداوية يذكرني برائدة فن العيطة الجبلية "شامة الزاز"..

8 دجنبر 2012 على شاشة 2M.. استضافَ الإعلامي "عتيق بن الشيگر" في برنامجه (مسار) الفنانة "شامة الزاز". في هذه الحلقة، قدّمتُ تفاصيلَ عن الحملة الإعلامية التي قُمتُ بها لفائدة الفنانة التي كانت تُعاني من قرصنة شركةِ إنتاجٍ في فاس، وقرصنةِ إذاعاتٍ مغربية.. كانت أغانيها تُوزّعُها شركاتُ التوزيع التي تأخُذُ كلَّ المداخيل، ولا يَعبأ بها "المكتبُ المغربي لحقوق التأليف"..

وطالت القرصنةُ أجواقَ الأعراسَ التي كانت تنسبُ لنفسِها أغانِي وأشعارَ الفنانةِ الجَبليّة، ابنة "تاونات"..

محمد البوكيلي: متحف البادية

محمد البوكيلي: تشكيليٌّ حوّلَ إسطبلَ أكباشٍ الى مَتحفٍ فنّي.. إنه الفنان، الناشِر، في القنيطرة.. نتَعارفُ منذ سبعينات القرن الماضي ..ذكريات متجذرة لا تنسى..التقَينا في العَمل بجريدةِ «العلَم» بالرباط، آنذاك، كان مُصحّحًا.. وأنا مُصفّفٌ على "اللّينُوتِيب"..

توَطّدَت بينَنا صَداقةٌ حميميّة..

ذاتَ ليلة، بعد مُنتَصف الليل، اتصل بي البوكيلي على الهاتف:

يبدأ بالضّحك، والتنكيت، فيتحولُ الحوارُ إلي مُمتِع..

- وفي تلك الليلة، أخبرَني البوكيلي أن فكرةً قد خَطرت بباله.. ما هي؟ إنها تحويلُ "إسطَبل الأكباش" إلى مَتحف!

قال إنه لا يريد أن يرى الأكباش..

يريدُ أن يرى الإنسان.. الإنسانُ بدلَ الأكباش!

ومنذ تلك الليلية، ونحن نتَهاتفُ بعد مُنتَصف الليل..

مئاتُ الأفكار تولّدتْ من حِواراتِنا الثنائيةِ اللّيلية..

وأهمُّ تلك الأفكار قامَ "محمد البوكيلي" بتجسِيدِها في مَتحفِه الذي دشّنَته وزيرةُ الثقافة السابقة، الفنانة الكبيرة "ثريا جبران"..

الإبداعُ لدَى الفنّانِ الكبِير هو الأوكسِيجِين.. الهواءُ الطّلقُ في حياتِه اليومية..

أنشأ المُبدعُ في القُنيطرة مَطبَعة، وصارَ يُمارِسُ هِوايتَهُ المُحبّبة، وهي طَبعُ الكتُب..

مئات الكتُب من مُختلفِ مَشارِب المَعرفة، طَبعَها وَوزّعَها بطريقتِه الخاصة، وحَصل على جائزةٍ أوربية، وعلى "دُكتوراه فخرية"، تقديرًا لمُساهماتِه الفِعلية في

نشرِ الثقافةِ بواسطةِ النشر والتوزيـع، وتقديرًا للطريقةِ الفنّية الجذّابةِ التي أَخرجَ بها تلكَ الكتُب..

ورغم أزمةِ القِراءة، لم يَتوقّف البُوكيلي عن المُجازفةِ بكُلّ ما يَملك من أجلِ مُواصلة طبعِ ونشرِ الكتاب..

بعضُ الكتُب التي تَحمِل اسمَ «البوكيلي للطّباعة» حصَلت على جوائزَ في المغرب، منها جائزةُ الكتاب لوزارة الثقافة..

كلُّ غلافٍ من كتُب "دار البوكيلي"، يُشكّلُ في حدّ ذاته لوحةً فنّية، بفَضلِ الجَماليةِ التي يَصنَعُ بها هذا الغِلاف، مِن حيثُ الألوان، والحُروف، والإخرَاج، والطباعة..

ومن يتأملُ منزلَه، يُدرك أنه تُحفةٌ فنّية..

ويُدركُ أيضا أن البوكيلي هو مَن رسمَ وصمّمَ ووَقف على إنجاز هذا المنزل وما حول هذا المنزل الجميل..

هو هكذا في الصباح وطيلةَ النهار وفي الليل..

يضحك، ويمرح، ويُنكّت، ويحكِي عجائبَه وغرائبَه، وعلاقاتِه الكبيرة والصغيرة، الجميلة والقبيحة، وسُرعان ما تكتشفُ أنه قد دخل في حالة شرود.. لقد غاب عنك، ونسيّ ما كان يقول لك، وأصبح مُرتبطا بعالم آخر..

البوكيلي كثيرُ العلاقات..

هو لا يعرفُ فقط أدباء وفنانين ووزراء وشخصيات مرمُوقة، لكنه كثيرا ما يستضيف في جلساته الحميمية بُسطاء الناس.. هذا حارس.. هذا بنّاء.. هذا نجّار، وذاك فلاّح..

البوكيلي محبوبٌ جدا..

سور المَعكازين

أثارَت الجرِيدةُ في تناوُلاتِها الأسبُوعية عدّةَ قضايا تُحرّكُ بها الرأيَ العام، عبرَ فَعالياتٍ ثقافيّة، وخاصةً في طنجة التي كانت تَصدُرُ منها "الخضراءُ الجديدة"..

ومن هذه القضايا، مناطقُ كانت تتعرّض للنّهب من قِبلِ أباطرةِ العقار، بتواطُؤ مع مسؤُولين في الإداراتِ المُختصّة بهذه المدينة.. وقد شَنّت الجريدةُ حملاتٍ متواصلةً شاركت فيها أبرز الأقلام، للحِفاظ على سلامة "سور المَعكازين"، ساحة الأمم، وغيرِهما...

وفتَحَت لي إذاعةُ طنجة، تحتَ إدارةِ خالد مشبال، ميكروفوناتِها، لاستجوابِ بعضِ الوُزراء ورؤساءِ الأحزاب وغيرِهم، في هذا الشأن..

كما دَعَتني الإعلاميةُ "مليكة مالك" إلى قناةِ دوزيم في برنامجها المُتميّز للمُشاركة في مُساءلة وزيرِ الثقافةِ آنذاك، فطرحتُ قضيةَ "سور المَعكازين" وغيرِه...

في النهاية.. لم يتَحوَل "سور المَعكازين" إلى عِمارات، بل لازال فضاءًا لطنجة مفتوحا على القارّة الأُوربيّة..

مُتَّهم بتبرير الإرهاب

عام 2003، اعتُقِل مجمُوعةُ صحافيّين بجهاتٍ مُختلفةٍ من الترابِ المغربي، بالسّجنِ لمُددٍ مُتفاوِتة، بتُهمة نشرِ تقاريرَ تُحرّضُ على الإرهاب..

وفي طنجة، أضافُوا إلى القائمة، الصحافي "أحمد إفزارن" مُديرُ جريدة "الخضراء الجديدة"، وتابعُوهُ بتُهمَة السّب والقَذف في حقّ مَسؤولين أمنيّين..

وهذه النّازلةُ تعُودُ الى مَقالٍ بقلمِ مُدير الجريدة، بعُنوان "بَنِي مكادة تحتَ غِطاء الإرهاب، اعتِقالُ أشخاصٍ أبرياء، القضاءُ يُصْلِحُ أخطاءَ "الآخرين"..

وكانت قضيةُ هؤلاء الأشخاصِ المُعتَقَلِين قد أحدَثت ضجّةً بمدينة طنجة، حيث تمّ تقديمُهم في حالة اعتقال، وقضَت المحكمةُ ببَراءتِهم من جَميع التُّهم الخطِيرة المنسُوبةِ إليهم..

وتطرّقَ مقالُ "أحمد إفزارن"، في تعليقٍ على الحُكم، إلى كونِ العدالةِ مُؤهّلةٌ لتصحيحِ أخطاءِ "الآخرين"، ثم طرَح تساؤلاتٍ حولَ دَواعِي اعتِقالِ مُواطنِين لمُجرّدِ الاعتِقال..

في حين، اعتَبر المَسؤولانِ الأمنيّان أن بعضَ ما جاء في المَقال يُعتَبرُ قذفًا و سبًّا في حقّهِما، بل طالبَا بمُتابَعة مديرِ "الخضراء الجديدة"، بتُهمة تشجيعِ "جماعةٍ زاغَت عن الطّريق بنَشر أفكارٍ هدّامة، مَطيّةً لبُلوغِ مَرامٍ مجهُولة، وتحريضِ الرأيِ العام ضدّ الجِهازِ الأمنِي، خِدمةً لأهدافٍ مشبُوهة"..

و قد اعتَبرَ كثيرُون أنّ قصدَ المَسؤولَيْن الأمنيّيْن هو نصبُ فخّ لمُديرِ جريدة "الخضراء الجديدة"، رغم أنّ مَوقفَهُما يُعاكِسُ حُكمَ العَدالة الذي قَضَى ببراءةِ المتّهمِين..

وهذا من المواقِف التي عبّرت عنها جرائدُ مغربية، مُسانَدةً منها لمضمُون مقالِ مُديرِ جريدة "الخضراء الجديدة".. وتعاليقُ صحافيةٌ أخرى، تشير إلى أنّ الصّحافي قد تساءَلَ: "لماذا يُعتقلُ مُواطنُون أبريّاء؟"..

- وهذا من جهة..

ومن جهةٍ أخرى، تقدّم نفسُ الصحافي"أحمد إفزارن" بنصّ المقالِ الذي نشرتهُ "الخضراءُ الجديدة"، وفيه بوُضوح: "لا للإرهاب! ولا مُبرّرَ للإرهاب!..

وهذا الموقفُ لم يَرِد مرةً واحدةً في المقالِ المُشتكَى به، بل هو قد وردَ مرّاتِ في نفس المقال، لتأكيدِ أن الإرهاب لا يُمكنُ قَبولُه لأن الإرهابَ مرفوض، ولا يُمكنُ تبريرُه..

لكن، يبدو أن الأمنييْن المُشتكيّيْن لم يَقرَءا المقالَ المعني.. لقد اشتَكيَا من نصّ هُما أصلاً لم يَقرآه.. ولو قَرآه، لاكتَشفَا أن المقالَ قد كرّر هذا التّعبير: "لا للإرهاب! ولا مُبرّرَ للإرهاب!

وفي هذا التّعبير، إجابةٌ شافيّة.. وبهِ تكُونُ الشكايةُ المَعنيةُ غيرَ مُستَنِدة على مُبرّرٍ قانوني، وإلاّ ما معنَى اعتقالُ أشخاصٍ قد برّأتهُم العدالة؟ وما معنى اتهامُ صحافي على مقالٍ يُدافعُ فيه عن نزاهةٍ أمنيةٍ ضرُورية؟ وعن أن الإرهابَ مرفُوض.. ولا مُبرّرَ للإرهاب..

وَاضحٌ أن تلك الشّكاية الأمنية اندفاعيةً، على حساب القانون..

إلى وجدة!

أسرة "الخَضراءِ الجديدة" تتابع ما حدث في وجدة لجَريدَتَيْ "الشّرق" و"الحياة المغربية"..

الزّميلان مصطفى قشنني مدير "الحياة المغربية"، ومحمد الهرد مُدير "الشرق"، تم الزّجُّ بهِما في سجن "سلا"، وحُوكِما بمُوجب "قانونِ الارهاب" أمام مَحكمة الاستِئنافِ بالرّباط..

وفي السّجن أضرَب الصحافيان عن الطعام، ولم يتَوقفا إلى أن تمّ الإفراجُ عَنهُما..

وبعدَها، وجَد الصحافيان أنّ السلطاتِ المُختصّة قد أمرت بوقف إصدار جريدتيْهِما، فكانَ على عبد ربه، كاتب هذه السطور، أن يَضَع أسبوعيَّتَه الصادرة من طنجة "الخضراء الجديدة" رهنَ إشارتِهما، في إطارِ التّضامُن، لتَقديمِ ملفِّ المُضايَقات التي تعرّضَا لها، باعتِبارِهِما صحافيّيْن..

فرَحلت "الخضراءُ الجديدة" من طنجة إلى مدينة وجدة، وَوزّعت هناكَ عددًا خاصّا، فيها أخبارٌ ومقالاتٌ وموادٌّ أخرى، لشرحِ ما وقَع، حتى يكون قراءُ الجريدتيْن الموقُوفتيْن على علمٍ بما حَصَل لهُما..

وكان هذا المَوقفُ مؤازرةً من "الخَضراء الجديدة" للزميلتيْن "الشرق" و"الحياة المغربية"..

ومُؤازرةٌ من هذا النوع، وبهذه الطريقة، ربما لم يَسبِق لها مثيلٌ في تاريخِ الصّحافةِ المَغربية..

وبعد ذلك، تمكَّن الصحافيانِ من العَودة إلى الساحةِ المِهنية، وبشَكلٍ أقوَى وأمتَن..

مُؤازرةُ المظلوم من أخلاقياتِ مِهنةِ الصّحافة..

كُولمبُو

كانت "الخضراءُ الجديدة" قد عرّفَتني بالأمني المثقّف الذي أطلقت عليه طنجةُ تسميةَ "كُولمبُو"..

هو "د. ميلودِي حمدُوشي"، رجُل الأمن الوطني المشهور.. أعرفه منذ أن اشتغل في طنجة..

هو حُقوقي، أديب، مُثقف من الطراز الرفيع..

وإلى هذا هو نموذجٌ للأمنيّ المَسؤول، بكُل ما تعنِي المسؤوليةُ المهنية..

د. ميلودي حمدوشي من أشهر كفاءات الساحة الأمنية ببلدِنا.. في ثمانينات القرن الماضي، كان مسؤولاً بطنجة..

وأثناء مُزاولةِ مسؤوليته الأمنية، لم يكُن يُفرّق بين فقيرٍ وغنيّ ووجيهٍ وبسيط.. الناسُ أمامَه سواسية..

وقد كتَبت عنه جريدة "Le Monde" الفرنسية مقالاً تحدّثَت فيه عن نزاهةِ "كولُمبو"..

وكان يَنشرُ أُولَى قصَصِه البوليسية في جريدة "الخضراء الجديد"..

أخبرتُه أن مسؤولا قد رفعَ بي شكايةً كَيدِيَةً إلى القضاء..

والقضاءُ حكَمَ بإلغاء الدّعوة العمومية..

- ثُمّ ماذا؟

كنتُ أفكرُ في الشكاية بالأمني.. ولكن قررتُ مسامحته..

قال: هذا أحسَن..

وطويتُ كلّ الملفّات..

وما زال "كُولمبُو" شامخًا في قلبي..

إنه أولُ أديب كاتب في القصة البوليسية بالمغرب..

ومثلُ هذا الرّجل، لا ينجُو من مُؤامرات..

وذات يومٍ، فُوجِئ سُكانُ طنجة بنقلِه إلى الرباط..

واستمرّت لي به علاقةٌ ثقافيةٌ عميقة..

والتقَينَا عدةَ مرات، في طنجة والرباط.. وتحدّثنا في شؤون الأدَبِ والصّحافة..

وعرفتُ منه، فيما بعد، أنه فَتحَ مكتبًا للمحاماة في باريس..

أمنيٌّ كبيرٌ نزيه..

مُتخصّصٌ في إشكاليات الجريمة وتعقيداتِها..

تخصّصٌ نفسِي واجتماعي، ترجَمهُ إلى نماذجَ قصَصيةٍ من الواقعِ في المغرب..

والهدفُ من هذا اللونِ الأدبي هو أخذُ العِبرة، مع الحِيطةِ والحذَر، وفهمِ واقعٍ محفوفٍ بمَخاطر..

الرجلُ مُثقفٌ من الطراز الرفيع.. يربطُ الثقافةَ بالواقع.. وكان على صلة بمُختلفِ المثقّفين..

- غشت 2019: فارَقَنا الأمنِيُّ الطيّبُ النّزيهُ إلى دار البقاء.. مَسؤولٌ لا يُنسَى.. مسؤولٌ ترك بصماتٍ إيجابيةً في عَمله الهادفِ لاستِتبَاب الأمنِ والأمَان..

نَبِيّ في طنجة

إنه شابٌّ من "الأحَد الغَربيّة".. قَدِمَ إلى الجريدة لكي يدّعي النّبُوّة.. قال إنهُ نبيّ.. سألتُه عن الدليل، فأجاب: "سأكتُب لك في أيّ موضوع، وفي زمن قياسي"..

وسلّمتُه قلمًا وورقًا.. وبدأ يكتبُ بخطّ جميل وسُرعةٍ خارقة... وفي دقائقَ قليلة، سلَّمَني النّصّ.. وحدّدتُ له موضوعا آخر، فانطلقَ بنفس الوتيرةِ والدّقّة.. ثم الموضوع الثالث، فالرّابع.. وكان بنفس التركيز والدقة والسّرعة..

وقلتُ له: "أنتَ تُخاطبُ من؟ رسالتُك مُوجّهةٌ إلى من؟"

أجاب: "أنا أخاطبُ النّخبة"..

واتصلتُ بنُخبةٍ مثقفةٍ من أصدقائي، وحدّدتُ لها موعِدًا، والتَقَينا في الجريدة..

ودعوتُه إلى غذاءٍ في منزلي..

وكانت لنا وليمةٌ بيصَارية..

وقال لي: "لا أَحبَّ لي من االتّغذيةِ الطبِيعية..

وحكى لي ما وقع له منذ بضعة أشهُر..

قال: "أعِي أنّني غيرُ طبيعي، وبتعبيرٍ آخر: فوقَ الطبيعي.. وما دام الأمرُ كذلك، فقد قررتُ أن ألتقي شخصية مهمة في البلاد لتبليغها الرسالة أخبرتُ الحُرّاسَ أنّني من الأنبياء. ولم يصدّقوني.. ألقوا القبضَ عليّ، وأخذوا في استنطاقي.. ومن حقّهم أن يعرفُوا من أنا.. وأنا أكّدتُ لهُم أنني نبِي.. وعليّ بتبليغِ الرسالةِ..

وانهالُوا عليّ صفعًا وركلاً وضربًا.. ولم يتوقّفُوا إلا وأنا مُغمى عليّ..

ثم أخرجوني إلى الخلاء..

وهدّدُوني: "ستَلقَى نفسَ المصير، إن وجدناك هُنا، مرةً أخرى..

وأخذتُ الطريقَ مَشيًا على قدمَيّ..

كلّ الليل وأنا أمشي.. وأمشي.. وستسألُني عن حُجّتي.. ما حُجّتي؟ وجوابي هو إنّني هنا واقفٌ على قدمَيّ رغم كل ما وقع..

وسألتُه: "ماذا ستفعل؟"..

وأجاب: "سوف أعود لكي ألتقي تلك الشخصية المهمة"..

وشكرتُه على هذه المعلوماتِ المُهمّة...وحسبتُ أنهُ لن يعُود، لكنه عاد.. وهذه المرة، سألني: هل تعرفُ فُلانًا؟ إنه مسؤولٌ عن معالجة المُستنقعات..

قلتُ: "نعم.. أعرفُه"..

وطلب منّي أن أتوسّط له، لكي يُعيدهُ إلى عملِه..

وفعلاً، توسطتُ له، لكن المسؤول رفض، بذريعة أنّ الشخص الذي يدّعي النُّبوّة، يُضيّع أوقاتَ العُمال..

وصارَ "النّبيُّ" يزورُني بين الحينِ والآخر.. وأنا حيرانٌ في ما هو يحكِي..

نموذج آخر التقيتُه في مَقرّ "الخضراء الجديدة":

شَخصٌ جاءني بعُلبة صغيرة ..قال" :عندي بِشارةٌ إلى جميعِ الناس ..
من الآن فصاعدا، لن يكُون على الأرضِ شيطان ..الشيطانُ أنا اعتَقلتُه
إنه هُنا ..مَسجونٌ في هذه العُلبة..

تأمّلتُ العلبة جيدا.. ولم أجِد بداخلها إلا فَراشة..

ومِثلَ سابقِه، حاولَ أن يُقنِعَنِي، لكنّني لم أقتنِع..

طرائف في مَقرّ الجريـدة

أصبحت "الخَضراءُ الجديدة" معرُوفة.. يتسابقُ عليها الناس، بمُجرّد بدايةِ توزيعِها في طنجة..

أنواعٌ من البشَر، زارُونا في مقرّ الجريدة..

ولكلّ منهُم نوايا وأهدافٌ خاصّة..

وفيهم من يعتقدُ أن الجريدةَ هي تحكُمُ في طنجة.. وهي صاحبةُ القرار.. وتضغطُ على كل المسؤولين، صغارًا وكبارًا..

- جاءت إلى الجريدة شابّتان :"لقد نشرتُم أن حيًّنا تنتشرُ فيه الدعارة ..وتمّ اعتِقالُنا ..نحن مجموعةٌ من البنات ..ونحن الآن نادِماتٌ تائبات ..ولا نُريدُ إلا الخُبزَ الحلال إن "المَخزَن "قد أَطلقَ سَراحَنا، ونحنُ جِئناكُم أنتُم المؤمنُون ..وما دُمتُم تُغيّرون المُنكر، فنحنُ نطلبُ منكُم أن تُشغّلونا مَعكُم، حتى لا نعُودَ إلى الدعارة. لقد خجلتُ من نَفسِي!
- وهذا عَجوزٌ يشتَكِي بابنِه.. إن له غيرةً قُصوَى من ابنهِ الشّاب.. ويخشَى أن تكُون له علاقة مع زوجتِه الشابّة..
- وقارئٌ يَشتَكِي من المَحكمة: "لقد ظَلمَتني.. فخُذُوا لي منها حُقوقِي"!
- وعضوٌ في المجلس البلدي طرقَ بابَ الجريدة، وفي يدِه 100 درهم: "هذه لكي تأخذُوا لي حقّي من الحُكومة!"..
- وهذا عميدٌ سبَق أن هدّدَنا.. وها هو نفسُه يَطلبُ منّا أن نقتَصّ مِمّن ظلمَه..

وغرائبُ وعجائب.. ومنها قضيةُ الزعيم:

في العدد 100 من جريدة "الخضراء الجديدة" (22 دجنبر 1994)، نشَرنا أنّ الزعيمَ قد زارَنا..

جاء ثلاثَ مرّاتٍ قبل أن يجِدَني في المكتب.. كان يُخفِي سِكّينًا في شكلِ سيف.. وعبّر عن إعجابه بالجريدة: "أنا أقرأُها بانتِظام"..

ثم أضافَ إن القاتلَ هو شقيقُه: " لقد أخطأتُم وأنا جئتُ لكي تُصحّحُوا الخطأ.. أنتُم نشرتُم أن القاتلَ قد طعَن المقتُولَ منَ الخَلف، وهذا غيرُ صحِيح"..

وسألتُه: وهل هُناك فرقٌ بين الأمامِ والخَلف، ما دام المقتُولُ قد مات؟

أجاب: "الموتُ هو الموت.. ولكن أخي طعنهُ من أمام.. والأمامُ يعني مُواجَهةً شُجاعة، بينما الخلفُ يعني الغَدرَ والخيانةَ والجُبن. إن أخي فارِس.. والفارسُ لا يضربُ من الخلف، خاصّة عندما يكُونُ القِتالُ مُتَبادلاً"..

قلتُ: "وهل نُقدّمُ هذا التَوضيحَ على لسانِك؟ هل ننشرُ اسمَك وصُورتَك؟ إن عَملَنا يَفرضُ علينا أن ننشُرَ مَصدرَ "بيان الحقيقة"؟

ضحكَ الزعيمُ حتى ظهَرت أسنانُه، وقال: "النشرُ ليس في صالِحنا"..

وتبيّن أنّ الزعيمَ مُثقّف..

إلى أمريـكـا!

1996 : دعوةٌ رَسميةٌ توصّلتُ بها من السّفارة الأمريكية بالرباط.. السفير (Marc C. Ginsberg) بعثَ لي رسالةً يَدعُوني فيها للقيّامِ بزيارةٍ إلى الولاياتِ المتحدة الأمريكية، مُدّتُها أسبوعان.. البرنامجُ تم إعدادُهُ لمَجموعةِ 10 صحافيّين في العالمِ العَرَبي، ومنهُم عبدُ ربّه: الصّحافي الوحِيد من المغرب..

والمُناسبة: الحملةُ الانتخابية الرئاسية الأمريكية..

الزيارة بدأت من واشنطن، بنَدواتٍ حول دورِ الصّحافةِ الأمريكية، في تتَبُّع حملةِ المُرشّحَيْن: الدّيمُقراطي والجَمهُوري: "بيل كلينتون" في مواجهة "بُوب دُولْ"..

وانتَهت الحملةُ بفَوزِ "بِيل كلينتُون" رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية..

وكان الهدفُ من هذه الزيارة مُراقبةَ حملةِ الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة، والدّور الذي لعبته الصحافةُ الأمريكية في هذا السباقِ إلى البيت الأبيض..

وفي البرنامج، زياراتٌ ومُحادثاتٌ رسمية وغيرُ رسمية للوُصُول إلى قضايا دقيقة تهمُّ الفريق الصحافي على الصعيد المِهني وعلى مُستَوى المعرفةِ الشخصية...

وقد رافَقَنا في "الجولة الأمريكية" فريقٌ من المسؤولين والمترجِمين، وشَملت أربعَ وِلايات..

ومكّنَتنا من الاطّلاع عن قُرب على الحياة السياسية والاجتِماعية والثقافية والصحافية...

واستُقبِلنا في وزارة الخارجية الأمريكية، وفي القيادة المركزية للدفاع الأمريكي، وفي إحدى كُبرياتِ الجامعات الأمريكية، وغيرِها...

وقد رافقَنا خلالَ هذه الجولة مُتَرجِمَان..

وهذه كانت مُناسبةً لطرحِ أسئلة على بعضِ كبار المسؤولين الأمريكيّين الذين استَقبَلونا.. وقد نشرتُ في ذلك الوقت، مَضمونَ الأجوبة الأمريكية في جريدة "الخضراء الجديدة"..

وكان الاستقبالُ طيّبًا، يُنمّ عن تجذُّر العلاقات المغربية الأمريكية، وعن التقدير الأمريكي للمغرب، باعتباره أولَ دولةٍ في العالم اعتَرفَت بسيادة واستقلالِ الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1777، في عهد الملك محمد الثالث.. وما زالت بصماتُ ذلك التاريخ، موجُودةً في المغرب، تحت اسمِ "المُفَوّضِية الأميركية في طنجة"، وهي أولُ مقر دبلوماسي للولايات المتحدة الأميركية وأولُ عَقارٍ خارجَ الولايات المتحدة امتلكته الحكومة الأميركية..

وبإيجاز: استفدتُ من هذه الزيارة أمُورا منها أنّني ازدَدتُ تقديرا واعتزازًا لبلدي، وأنا في الخارج..

وسألتنا ،سيّدةٌ أمريكية" :مَن فِيكُم الصّحافي المغربي؟ .."فأشرتُ إليها بيَدِي وقالت" :سعيدةٌ بوجُود مغربيّ في هذه الكوكبةِ الإعلامية .."ثم حدّثَتني عن أنها عاشَت سنواتٍ لا تنساها، بمدينة القنيطرة ..وعن ذكرياتِها المغربية.

ومن استِقبالاتِ واشنطن :المركزُ الفلسطيني.. وأكبر تنظيم يهُودي في العاصمة الأمريكية.

لقد مكّنَتنا هذه الزيارةُ من الاطّلاع على وجهاتِ النظر للفلِسطينيّين واليهُود، خارج مِنطقةِ النزاعِ الشّرق أوسطية..

وخَرجتُ بانطباعِ كَونِ السّلامِ في المِنطقة ليس مُستحِيلاً، وأنّ المَغرب يَستطيعُ أن يلعبَ دورًا مُهِمّا، لإحلالِ السّلام..

ولا أنسَى أيضًا، خلالَ هذه الزيارة، أن سفيرَ المغربِ في الولايات المتحدة الأمريكية، محمد بنعِيسَى قد زارنِي في الفُندُق، وأخَذَني معهُ في جلسةٍ مغربيةٍ أصيلةٍ لا أنساها.

تَرشّحتُ للبَرلَمان

الحُمقُ البرلماني.. القانونُ الانتِخابي لم يكُن يَسمَح..

ويَستحيلُ أن أترَشّحَ بعيدًا عن مِظلّةٍ حزبية..

اتّصلَ بي حزبٌ يساري، ومعهُ ترشّحت..

ترشّحتُ وفي قلبي يساريٌّ آخر: "علي يَعتَه"..

هذا لَهُ مكانةٌ خاصّة: لا يَتغيّب عن الجَلساتِ البرلمانية، وعندما يأخُذُ الكَلِمة، الكلُّ صامِت.. الأفكارُ تنسابُ منه مُنظّمةً مُستَرسِلةً مُقنِعَة..

"علي يَعتَه" يُشفي الغليل.. شخصيةٌ فريدةٌ من نوعِها.. أين أمثالُ "علي يَعتَه"؟

وكتبتُ في العدد 242 من جريدة "الخضراء الجديدة "23 أكتوبر 1997:

"إذا كانَ كُلّ إنسان يُصابُ بالحُمقِ مرّةً واحدة، فقد جاء دورُ مُديرِ جريدةِ "الخضراءِ الجديدة".. هو أيضًا أُصيبَ بنَوبةٍ من جنون البرلمان..

تَصوّرُوا أنهُ هو الآخَرُ قد قرّرَ أن يتَرشّحَ للبرلمان!"

وما قد حصَل، عجيبٌ غريب: الأضواءُ انطَفأت في ليلة فرزِ الأصوات..

وقال لي مديرُ جريدة "الأسبوع الصحافي"، الأستاذُ "مصطفى العلوي": "لو استَشَرتَنِي، لأشَرتُ عليكَ بعدَمِ التّرشُّح"..

ثم توقفَ الكَلام.. - كلُّ شيءٍ واضِح!

العَمالةُ تَبني بدُونِ رُخصَة!

هُنا طنجة..

وهذا مقالٌ مَنشورٌ بجريدة "الخضراء الجديدة"، العدد: 106، الخميس 2 فبراير 1995"، ويحملُ توقيعَ "نُور"، وهو اسمٌ مُستعارٌ أستَعمِلُه في بعضِ الحَالات..

فماذا يريدُ منّي "عامِل طنجة"؟ لقد اتصلَ بِي قائدُ الحيّ الذي أقطُنه، وأخبرَني أنّ "السيد العامل" يَستَدعِيني إلى مَكتَبه في تمامِ السادسة مساءًا..

وأضاف: "لا أعرفُ السّبَب"..

ويجبُ أن أكُون هناك في تمامِ السادسة.. وها أنا في الشارع.. سأكُون قبلَ الوَقتِ المُحدّد..

واستِفهاماتٌ تدُور بخاطِري: هل في المقال ما يُزعِجُ "السيد العامل"؟ إنّ المقالَ ليس مساسًا بشخصِه.. يتَطرّقُ لبِناء.. فهل العمالةُ تقومُ بتوسِعة طابقِها الخامس بدُون رُخصَة؟ أم هي لا تَحتاجُ لترخِيص؟

- وصلتُ إلى عمالة طنجة..

كان العاملُ بانتِظاري..

وفي حالةِ غضبٍ شديد: "أنا مُهنِدسٌ مُتخرّجٌ من فرنسا.. فهل أبني بدُون رُخصة"..

ابتسمتُ "للسيد العامل".. ولكن الابتسامةَ لا تنفَع..

وبدأ كبارُ مُوظفي العمالة يَدخلونَ واحدا بعد الآخر، ويأخذُون أماكنَهُم حول "السيد العامِل".. وكلُّ واحدٍ منهُم مُحمّلٌ بمِلفّ..

لقد أحضَروا معهُم كلّ الإثباتات..

وأشارَ "السيد العامِل" لأحدِهم: "عندما يأتِي عندك، وهو يشيرُ إليّ وكأنني مَجهول، سلّمهُ ترخيصَ بنايةِ العمالة"..

وردّ عليه المُوظّف: "نعَم يا سيدي"..

وبدا لي الارتباكُ في الوجوه..

وقبلَ الخُروج، سألتُ السيد العامل: "متى أتسلّمُ الترخيص؟" يجبُ أن تكُونَ معي الوثيقة، لكِي أقومَ بتصحيح الخطأ.. لقد أخطأنا.. وعلينا بالتّصحيح.. فمتى أحصُلُ على رخصةِ البناء؟

قال لي "السيد العامل": "اذهَب معه.. وسيُعطيك الوثيقة"..

- شكرا سيادة العامل..

ثم تَبِعتُ المُوظف.. وقد كان سريعَ المَشي..

واختفَى في السلاليم..

وعُدتُ إلى العمالةِ أسألُ عنه، بلا جدوَى..

ثم عُدتُ مرّات:

- إن العَمالةَ بالفعلِ تبنِي بدُون رُخصَة!

"الإنسان الجديد"

..2005

هذه مَجلّةٌ شهريةٌ من الرباط : اجتماعية، ثقافية، سياسية..

أحدُ أفرادِ الأسرة - يُونس دوِيرِي - قرّرَ خوضَ تجربةِ الصّحافة، فاتصلَ بِي..

اقتَرحَ تَسميةً للمَجلّة: "الإنسان الجديد"..

راقَتنِي التّسميّة، خاصةً وأنها تُواكبُ الحاجةَ إلى إنسانٍ بعقليةٍ جديدة.. مُتطوّرة.. حَداثيّة..

وتفسَحُ المَجالَ للنّقدِ البنّاء، في مُختلفِ المَجالات..

أنا كنتُ جُزءًا مِن الفريق، كنتُ مدير النشر.. ولم تكُن لي نفس سلطة القرار التي كانت لي في "الخضراء الجديدة"..

ومع ذلك، كانت للمَجلّة إسهَاماتٌ نقاشيةٌ في القضايا التي تشغلُ بالَ المُجتَمع..

لم تَطُل المَجلّة.. توقّفَت لأسبابٍ مادّية..

ضريفة أمقران

"ضرِيفة أمَقْرَان"..
مُوثّقةٌ (Notaire) بطنجة..
شقيقةُ المُقَدّم محمد أمَقْرَان، الطّيّار الذي قادَ أحداث 1972 بالأَجوَاءِ المَغربية.. أجرَيتُ معَها حِوارًا يَدُورُ حولَ انعِكاسِ هذه الأحداثِ على الحياةِ اليوميةِ لأُسرةِ شقِيقِها الطّيّار، في ما يُعرَفُ بحَادِثِ الطائرةِ المَلَكيّة..
كان الحوارُ عام 2005، ونُشِرَ في مَجلة "الإنسان الجديد"، التي كنتُ أُدِيرُ تحريرَها بالرباط، وفيه قدّمَت الأستاذةُ "ضرِيفة أمقران" تَوضِيحاتٍ عمّا وقَع للأُسرة، بعدَ اعتِراضِ انقلابِيّين للطائرةِ الملكية..
1972: كُنتُ أشتَغلُ بِآلةِ التّصفِيف - "اللّينُوتِيب" - بمَطبعة "الرّسالة" التابعة لجريدَتَيْ "العَلَم" و"Lopinion" بالرّباط..
والمُراسَلاتُ تأتِينِي تِباعًا مِن "قسمِ التّحرير" بصحيفة "العَلَم"، فأقُومُ بتَصفِيفِها على "اللّينُوتِيب"، تمهيدًا لتَصحِيحِها وإخراجِها، ثُمّ طِباعتِها على آلةِ "الرُّوتاتِيف"..
ومَعلُوماتُ هذه المُراسَلات، كُنتُ أوّلَ قارئٍ لها بعد "قسمِ التّحرير"..
وأُصَفّفُ مُراسلاتٍ تتَضمّنُ ما كان يَدُورُ بِجَلساتِ المَحكمةِ العَسكرية الدائمة في "القنيطرة"..
إنها مُحاكَمةُ المُتَورِّطِين في المُحاولة الانقلابيّة الثانية التي قام بها "الجنرال أُوفقِير"، يوم 16 غشت 1972، والتي تُعرَفُ بحَادِثِ الطائرةِ المَلَكيّة..
وأصدَرَت المَحكمةُ العَسكريةُ أحكامَها ضدّ الجنُود والعُرفاء والضّباط وضُباط الصّف والمُلازِمِين، وتَتضمّن 11 حُكمًا بالإعدامِ في حقّ مَجمُوعةٍ من الطُيارين، على رأسِهم المُقدّم "محمد أمَقرَان"، الذي كان مُساعِدًا للقائدِ العامّ للقُواتِ الجويّة المَغربية، وفَرَّ إلى "جبل طارق" بعد فَشلِ الانقِلاب، لكنّ بريطانيا سلّمَته إلى المَغرب بعدَ مُطَالبَتِها بِه..

وأكّدَت أن زَوجتَهُ الألمانية رَفعَت شكايةً إلى القَضاءِ البرِيطاني على تَسليمِ زَوجِها للمَغرِب..
بريطانيا قدّمَت لزَوجتِه تَعوِيضًا ماليّا..
ونشرَت الصّحافةُ أنّ هذا التّعويضَ الماليّ كانَ مُقابِلَ سَحبِ شِكايَتِها منَ القضاء..

وأجابت الأستاذة "ضريفة أمقران" عن تساؤلاتي الاجتماعية لأُسرَتِها، فقالت: إنها كانت تعيشُ في منزلِ شقيقِها بالقُنيطرة عندما وَقَعَت تلك الأحداث.. وقد مرّت بظروفٍ عسِيرة، هي وأُسرتُها، واضطرّت للاشتغالِ سُكرتيرة، وفي نفسِ الوقت تُتابعُ دراستَها الجامِعية.. وتمّ تسجيلُها مع د. المهدي المنجرة، لإعداد أُطروحة الدكتوراه..

ورغم الصّعوبات النّفسية والمالية، تمَكّنَت من استِكمالِ دِراسَتِها الجامعية، وهي تشتغلُ حاليّا مُوثّقة بطنجة..

وأضافت: إن ابن أخيها يعيشُ في ألمانيا، ويشتغل في مشروع فضائي، وتحديدًا في فُندقٍ سياحي في مدارٍ حولَ الأرض..

"خالد الجامعي .."الرّمز !

قبلَ حوالي شَهرٍ من التِحاق هذا الإعلامي الكبيرِ بدَارِ البقاء، تَلَقّيتُ مِنهُ مُكالمةً هاتِفيّة.. سألَنِي عن حالتِي الصّحّية، فشَكرتُهُ وطَمأَنتُه.. ووَاصَلْنا الحديثَ عن القضَايا التي تَشغلُ بالَنا معًا.. ووَعَدتُه بزيّارتِه في وقتٍ لاحِق، بعدَ زوالِ جائحة كورونا التي تُزعِجُ مُختَلفَ أقطارِ المَعمُور..
وبعدَ شَهر، وتحديداً يوم 1 يُونيُه 2021، نُشِرَ الخَبَر: وفاةُ قَيدُومنِا "خالد الجامعي".. إنهُ صحافي وكاتِب ومُحلّل سياسي.. رئيسِ تحريرٍ سابِقٍ لجريدة "L'Opinion" الناطقَة باسمِ حزبِ الاستِقلال.. وكان عُضوًا لِلّجنَةِ التّنفِيذيّة لهذا الحِزب..
مَلكُ البلاد وصَفَ المرحُومَ "خالد الجامعي" بالصحافي المُقتدِر.. وبأنه يتَحلّى بالنّزاهةِ الأخلاقية والثّباتِ على المَبادئ، والصّدقِ والمَوضُوعيّةِ والمِهنيةِ العالية، سواءٌ في كتاباتِه الصُّحُفية، أو في مواقفِه السياسيّة..
عرفتُهُ منذ 1969، وهو في ديوان وزير الثقافة آنذاك، محمد الفاسي.. ثم التَقَينا بعد ذلك في جريدة L'Opinion.. وظلت علاقاتُنا مُستمرّة.. وما عَرفتُه إلا مُلتزِمًا بالقِيَمِ الإنسانيةِ والمِهنيّة.. هذا صحافيٌّ لا يُساوَم.. نَمُوذجٌ للكفاءةِ والنّزاهة..
"خالِد الجامعي" لا يُنسَى! فريدٌ من نَوعِهِ في مِهنة المَتاعِب: هو "خالِدُ" الأستاذُ والمُؤطّرُ والمُوَجِّه.. في مَسارِه قد تعَلّمنا..

1973: المغربُ في سنوات الرّصاص.. اختطفتهُ سُلطةُ وزير الداخلية، إدريس البصري، ومارست عليه التّعذيب، ولم يتَخلّ عن سلاحه المشروع: سلاح القَلَم.. وبَقِيّ كما هو: لم يتأثّر بسُلطة التّهديد.. بَقِيّ على موقفه الثابِت: الحقُّ لا يُتخلّى عنه، مهما كان الثّمن: لا مُساومة في الحقيقة، ولا قَبُولَ للظُّلم..
وهكذا واصَلَ حياتَه إلى نهاية المَطاف..
والنتيجة: ذهبَ البَصري، وبَقِيّ خالِدُ حاضرًا في تاريخِ الصحافة، يَخدُمُ حُريةَ التّعبير.. الصحافي الحُرُّ لا يُساوَم.. وخالدُ قد عاشَ حياتَهُ كما أراد..
شخصيةٌ بسيطة، ولكن عميقة.. وكفاءةٌ رفيعة، إعلاميًّا وسياسيًّا.. وها قد رَحَل.. وتَركَ خَلفَهُ رصيدًا ثمينًا هو الصّدقُ والوفاء..

أستاذٌ زائِر

خلال السّنة الجامِعية 2013- 2014 ، دَعَتنِي "جامعةُ عبد المالِك السّعدِي" للتأطيرِ العِلمِي والبِيداغُوجي لطلبةِ "مدرسة فهد العُليا للتّرجمة والصحافة": دبلوم (DCESS) سِلك الدّراسات العُليا المُتخصّصة في الاتّصَال والصّحافة. وعُهِدت لي بصفة أستاذ زائر، مُهِمّتان:

- تعليمُ تقنيّاتِ ومُقارباتِ الصحافةِ المُعاصِرةِ باللغة العربية..
- المُشاركةُ بصفِتي عُضوًا في لجنةِ مُناقشةِ مَشاريـعِ نهايةِ الدّراسات..

وخلالَ هذه السّنةِ الجامِعية، قدّمتُ للطّلبَةِ عُروضًا نظريةً وتطبيقيّة في الأجنَاسِ الصّحافيّة، وحولَ كيفيةِ عِلاجِ تعقيداتٍ مِهنيّة، باعتبارِي ذا خِبرةٍ مَيدانيّة، لمُدّة تفوقُ نصفَ قَرن..

التجربة لا غِنىً عنها لِفَهم ما يُدَرِّسُه التَّنظير.

وسَلّمَت لي الجامِعةُ شهادةً تقدِيريّة .. أنا التلميذ الذي غادر المدرسة في المستوى الإعدادي !

إذاعةُ طنجة المتوسط

2015: جلسةٌ في "ميناء طنجة المتوسط": القُطبُ الاقتصادي المغربي الذي يحتضِنُ "إذاعة طنجة المتوسط"..

الجلسةُ كانت مع رئيسِ المحطّة، الزميل رشيد بروحُو.. اتّفَقنا على برنامجٍ أسبوعي بعُنوان "مغاربة العالم".. برنامج يُقدِّم مساء كل جُمُعة كفاءتَيْن من المغاربة المُقيمين بالقارات الخمس: تقديمُ كفاءاتِهم وأنشطتِهم وهمُومِهم في مواجهة ظروف الحياة اليومية..

ودُونَ تَردُّد، انطلَقنا في إعدادِ "الخطّ التّحريري" للبرنامجِ:

الإذاعة تابعة للميناء المتوسطي، وبالتالي هي تابعة للدولةِ المغربية..

البرنامجُ مُوجّه إلى كل مغاربة العالم، بواسطة البثّ الرّقمي، في حلقةٍ أسبوعية مُدّتُها ساعة ورُبع، يتمّ بثُّها مساء كل جُمُعة في الساعة العاشرة ليلا بالتوقيت المغربي..

الحوار يتمّ باللّهجة المغربية "الدّارِجة"، لأنها هي مُمكِنة بين كل التنوّعات المغربية في الداخلِ والخارج..

وقد حدثَ أن حاورْنا ضيوفا لا يستطيعون التواصُلَ بلُغاتِ إقاماتِهم، في مختلفِ دُول العالم، ولكنهم يتواصلون بالدّارجة..

إنه برنامجٌ ينشرُ قيّمَ التعايُش والتسامُح والاحترامَ المتبادَل.. ويُطلعُ المستمعاتِ والمُستمِعين على هذه القيمِ الإنسانية والوطنية..

البرنامجُ تتَتَبّعُه الجهاتُ المسؤولة، لكنها لا تتَدَخّلُ في البرنامج، ونحنُ أسرةُ الإذاعة نفهمُ الحدُودَ واللباقة، ونَفهمُ أيضا قيمةَ الجُهدِ المبذُول لخدمةِ كل فئاتِ مغاربةِ المهجَر..

والموضوعُ يَدُورُ حول التّعرِيف بالشخصية المستَضافة، ومسيرَتِه المهنية، وظُروفِ الحياةِ اليومية، وآفاقه المُستقبليّة، ومَشاكِلِ المغاربة، في الدّاخلِ والخارج..

خبراءُ بمُختلفِ التخصُّصات، مُقيمة خارج المغرب..

مغاربةٌ في كلّ التخصصاتِ العِلمية: التّكنولوجيا المُتطورة، الطب، الهندسة، العلوم الإنسانية، علوم الفضاء، العلوم الرقمية، علوم الطاقات، وخبراء في التّدبير والتّسيير المالي والتّجاري العالمي..

عَمَليّة جِراحيّة

8 يونيه 2020: خَرجتُ إلى جِوارِ المنزل، قريبًا من بائعِ الحَليب، وباغتَتنِي سيّارة.. لم تُسقِطنِي السيارة..

لقد سقطتُ على ظَهرِي في الشارعِ العمُومي ..وَوقعَ لي كَسرٌ في الوَرْكِ ..الأيمَن وكان لا بُدّ من "عملية جِراحيّة "عاجِلة..

وبتدخل من السيد والي طنجة والسيّدة رئيسة الجهة ..أُجرِيت لي عملية جراحية كان ابنِي "نبيل "يقُومُ بكلّ الإجراءاتِ والاتّصالات ..

ورغمَ أن العمليةَ مُعقّدةٌ وخطيرة، فقد شَعُرتُ خلالَها أنّ الخبير في جراحة العظام الدكتور منصور كان حريصًا على تمتِين الثّقة معَ المَريض، من أجل استِئصالِ مَصدَرِ الدّاء.. وقد تَوفَّقَ الفريقُ الطّبّي في إضفاءِ جوّ من الثّقة المُتبادَلة..

كان "المَايسْتْرُو" يُوجّهُ أفرادَ فريقِه الطبّي، المُنسجِمِ المُتكامِل، ويَستَغلّ كلّ مَراحِلِ العَملية، لتقدِيم شروحاتٍ صوتيّة، وأنا أستَرقُ السمعَ لفَهمِ ما يَتَداولهُ "قادةُ المَيدان".. وصِرت أتفاعلُ ذهنيّا مع فريقِ الجِراحة، وكأنني شرِيك، وأربطُ بين تسَلسُلاتِ الأحداثِ الجِراحيّة..

لقد تَلقّيتُ من هذا الفرِيقِ المُبدِع عنايةً مُركّزَةً دقيقةً تَستَأهلُ كلَّ اعتِزاز.. وما هي إلا أيام قليلة حتى وقفتُ ثانية على قدَمَيّ.

عائدٌ من حربِ "كُورُونَا"!

في شتنبر 2021، وقعتُ في قبضَةِ فَيرُوس "كُورُونا".. فبعدَ حُقنَتيْن تَطعِيميّتيْن، وهذا ما يُسَمَّى "جَوَاز اللّقاح"، تَعرّضتُ لهجُومٍ كُورُونيّ مُباغِت.. وأصبَحتُ - بمَنزِلِي - مُمتَدّا على الفِراشِ بين الحياةِ والمَوت.. ودَخَلتُ في حالةِ طَوارِئ صِحّيّة، تحتَ مُراقَبةٍ طِبّية، ليلاً ونهارًا..

وفِي المَنزلِ جِهازٌ للتّنفُّس الاصطِناعِي..

وأحيانًا أدخُلُ فِي غَيبُوبة.. ولا أدرِي أينَ أنا، ومعَ مَن، ولا أتذَكّرُ شيئًا.. دَخلتُ في حالةِ فُقدانِ الذّاكرة.. ونادِرًا ما أَعِي أنّنِي أنا هُو أنا..

وبعدَ شُهُور، أستَعِيدُ حياتِي الطّبِيعيّة.. وأبنائِي وزَوجَتِي يَحكُونَ لي ما وقَعَ أثناءَ الأزمةِ الكُورُونيّة، حيثُ كنتُ حاضِرًا بالْجَسَد، غائِبًا بالْوَعْيِ والذّاكِرة..

عَلّمَتنِي الحَياة!

أنْ أكُونَ إنسانًا.. لا شِبهَ إنسان..
الأشباهُ نُسخةٌ من بعضِها..
ولا اعتِمادَ إلاّ على الإنسانِ الواقِف..
أنا أُحِبُّ الوُقُوف.. والرُّؤيةَ البعيدة..
أُحِبُّ أن أرَى ما وراءَ الأُفُق..
أُحِبُّ الحَرَكةَ والمُتَحرِّكَ النّشيط!
وأَكرَهُ الكرَاهيّة.. أَكرَهُ الخُمُول.. أَكرَهُ الغِشَّ والخِداع..
أُحبُّ العَمل.. أنا مَخلوقٌ لكِي أَعمَل.. وأعمَل.. ثُمّ أعمَل..
وهذه خُلاصةُ ما في حياتي قد وقَع: هي مَسيرتِي في أحداثٍ زمانيّة، وأفكارٍ مَكانيّة.. تَفاعُلاتٌ في الزّمانِ والمكان.. تطَوُّراتٌ لِوَقائع.. ومعَها تَنضُجُ الأفكارُ وَتَتغيّر.. وتَتنَوّعُ المَشاهدُ والرُّؤَى..
وأُحِبُّ السّماء.. بأمطَارِها وأضوائِها ونجُومِها.. وما أرَى.. وما لا أرى..
وأُحِبُّ الخيَال.. والوَرد..
والأحلامَ الجميلة.. والأخبارَ المُفِيدة..
وأُحِبُّ الناسَ جميعًا.. بلا استِثناء.. أُولاَءِ إخوتِي.. كلُّهُم إخوَتِي.. لا فرقَ بينَهُم في حُريةِ هذا وذاك: الحُريةُ بلا حُدود..
في الأفكارِ والألوانِ والأجناسِ والعِبادات...
كُنْ ما شِئتَ ومَن شِئتَ.. لا فرقَ بين الناس إلاّ بالخَيرِ وحُسنِ التّعامُل، وبالاحتِرامِ المُتبادَل، وبالصّدقِ والوَفاءِ والضّمِير.. وبالعَدْلِ واحترامِ حُقوقِ الإنسان..
واعتَقِدْ ما شِئتَ..
هذه حُرّيتُك..
وما يَجمَعُنا هُو الاحتِرامُ المُتبادَل..
الأَخلاقُ فوقَ كلّ ما يُنتِجُ الفِكر..
الأخلاقُ هي الأساس، وما عدَاها قابلٌ للأخذِ والرّد..
وكلُّ الأديانِ في عُمقِها دينٌ واحِد.. مِن إلهٍ واحِد.. تحتَ سماءٍ واحِدة.. على أرضٍ

واحدة..
وتعبّدْ كما شئت.. هذه حُرّيتُك..
كلُّ الكائناتِ فُسيفِسَاءُ لكونِنا الشاسعِ الرّحب.. وما أروَعَهُ هذا الكَونُ اللاّمُتناهِي..
الكونُ المُتَنوعُ الواحِد..
الأصلُ هو أن نَختلف..
الاختلافُ بُستانٌ مُتنوّع.. وألوانُه تتَعانَق..
نحنُ مُتنوّعُون.. وهذا ليس عيبًا.. هذا مُفيدٌ لنا جميعًا، مِنَ المَهدِ إلى اللّحد..
مِنْ أفكارِ الطفولةِ والمَراهَقةِ والشّباب، إلى أفكارِ ناضِجٍ مَسؤُول، ثُمّ مُسِنٍّ في أعماقهِ طِفلٌ كبير..
وما زِلتُ مسكونًا بالتّنوُّع..
ومَسكونًا بالطّفلِ الذي كُنتُ قبلَ أكثر من سَبعِينَ عامًا..
وهذه خُلاَصةُ الصّورة: طِفلٌ جديدٌ في قلبِ وعقلِ ورُوحِ امْرِئٍ طاعِنٍ في السّن..
إنّنا في صُلبِ القَريةِ الجمِيلة.. الواقِفة.. الواثِقة من نفسِها.. قريةِ الصّمُود.. والشّمُوخ..

أحمد إفزارن : لقطاتٌ مِهنيّة

1965: اشتَغلَ بجريدةِ "الأنباء" الحُكومية بالرباط مُصحّحًا ثم مُحرّرًا.

1969: شاركَ في أوّلِ تدريبٍ للصحافيين المغاربة، بإشراف «وزارة الأنباء».. التدريبُ الذي استَمرّ 6 أشهُر نظَّمتهُ المُؤسسةُ الألمانية "فرِيدرِيك نيُومان ومنهُ انبثقَ "المعهدُ العالِي للصّحافة"

1969: تم انتِدَابُه لتغطية أشغال مؤتمر القمة العربي بالرباط.

1972: شارك في تدريب تَخصُّصِي ببلجيكا حول التقنياتِ المَطبعيّة وأعقبَ ذلك بتدريبٍ في دارِ نشر، في بروكسيل.

1977: اشتغل مُحررا بجريدة "العلَم" وتم انتدابُه لتغطية دورات البرلمان.

1978: التحق بصحيفة "L'Opinion" مُحرّرا مَسؤولاً عن "قسم الوثائق"..

1980: أُرسل إلى تدريب بصحيفة "Le Monde" الفرنسية، وفيها اطّلع على تقنيات "قسم الوثائق" وأهمّيته في إنعاش وتطوير العمل الصحافي. وفي نفس التدريب أَنجز دراسات ميدانية في تقنيات الأرشيف بتسعٍ من كُبريات المؤسسات الإعلامية في باريس، ومنها "وكالة الأنباء الفرنسية"AFP ، وحصل على شهادة تقديرية ..

يناير 1981 :التحق بإذاعة البحر الأبيض المتوسط الدّولية ميدي1، واختير مُقدّما لنشراتها الرئيسية وسُكرتيرًا لهيأة التحرير العربية.. وكان يقومُ بتدريب الوافدين للعمل الإعلامي على الإلقاء الإذاعي بهذه المؤسّسة.. وقد اشتغل في "ميدي1" صحافيا مُذيعا لغاية 20 مارس 1990، فقدَّم خلال هذه المدة إلى جانب عمله الإعلامي العادي حوالي 200 حلقة من برامج علمية وبيئية مُختلفة، وأعدَّ أيضا أحاجٍ للأطفال.

ماي 1981 :شارك في تدريب بإذاعة "مونتي كارلو "الموجَّهة من باريس إلى بُلدان الشرق الأوسط،وحصلَ على شهادة تقديرية، من وزارة ..الخارجية الفرنسية

1985: أصدر مجموعة من قصص الخيال العلمي بعُنوان "غدًا". ونشر لاحقًا روايات أخرى من جنس الخيال العلمي، وله حوالي 100 من القصص القصيرة في الخيال العلمي، بعضُها منشورٌ في الصحافة المغربية، وأخرى في مجلات عربية، وأخرى لم تُنشر بعد.

1986: أسّسَ فرع طنجة للجمعية المغربية لعلم الفلك. وبعدَها أسّسَ مجموعة من الجمعيات منها "نادي الفِكر" الذ ما زال نشيطًا في طنجة. ونَظَمَ ندواتٍ ومهرجاناتٍ شعرية.

يناير 1992 :أصدر أسبوعية "الخضراء الجديدة ."هذه الأسبوعية ..واصلتْ صُدورَها بانتظام لمُدة 13 سنة

1992: انتُخب كاتبا عاما لفرع الشمال للنقابة الوطنية للصحافة المغربية وعُضوا في "المجلس الإداري" لهذه النقابة ثم عضوا في "نادي الصحافة" الذي تأسّس في أواخر 1993.

مارس 1993 :مُشاركةٌ في المُناظرة الوطنية الأولى للإعلام في المغرب ..بوَرقة عملٍ حول أخلاقياتِ مهنة الصحافة

: أكتوبر 1996 :تدريبٌ في المركز الدولي للصحافيين بالولايات المتحدة الأمريكية كما شاركَ مع صحافيين من العالم العربي في مُراقبة ..الانتِخابات الرئاسية الأمريكية

ماي 1998 :استَشارتهُ "وزارةُ الاتصال "حول المَقايِيسِ التي يُمكنُ للحُكومة أن تَهتديّ بها لدعم الصّحافة الأسبوعية في المغرب.. وأشار ..على الوزارة بتجربةِ عاميْن، قبل الاستِفادة من الدعم

مارس 2002 :صدر له عن "دار البوكيلي "كتاب "عام الزّفت"، وهو ..تحليلٌ لواقِعنا الاجتِماعي

2007: أنشأ في طنجة «بيت الصحافة»، وهو مركزٌ للتّكوين في الإعلام والاتّصال. شاركَ في التكوين أكثرُ من 200 جامعي وجامعية، وسُلّمتْ لهم شهادات تقديرية. كما قام بتدريبات في تاونات ووجدة، وغيرهما.. لفائدة حوالي 100 من المراسلين والمحرّرين في جرائد وإذاعات.. وقد دُعي لتكوينات أخرى، في العيون وفاس وغيرِها لفائدة الصحافة الجهوية المكتوبة والمسموعة والمرئية.

2009: انتُخب عضوًا في لجنة التّحكيم بالنقابة الوطنية للصحافة المغربية.

2011: تدريبان لفائدة الإذاعيين في "كاب راديو" بطنجة: شهرَان لكُلّ تدريب.

2013- 2014: تأطيرِ عِلمِي وبِيداغُوجي لطلبةِ "مدرسة فهد العُليا للتّرجمة والصحافة": دبلوم (DCESS) سِلك الدّراسات العُليا المُتخصّصة في الاتّصَال والصّحافة (جامعةُ عبد المالِك السّعدِي)..

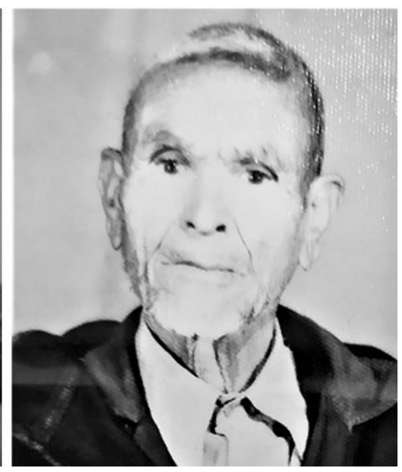
له مُساهمات صَوتية في الإذاعاتِ الوطنية والجِهوية والدولية وفي منابر ..عَربية وأورُبية، حول قضايا الساعة

المُجتمعُ المدني : ،فاعلٌ جَمعوي بمُختلف المجالات : ثقافية فنية حقوقية ،تنموية.. ترسيخ ثقافة المواطنة، دوراتٌ تكوينيّة، ثقافةُ التواصُل، والتعايُش والانفِتاح، البيئةُ الطبيعية، مُناهضةُ العُنف وكلّ أنواعِ التّطرّف، الاهتِمامُ بقضايا ،المرأة والطّفل، والأمّهات العازِبات ..والأطفالِ المُتخلّى عنهُم والمُشرّدِين والمَحرُومِين، وضحايا الإدمَان

أسّسَ مع مجمُوعةٍ من المّثقّفاتِ والمثقّفين، جَمعياتٍ مِنها:

- **2013: "مَجلسُ المُجتمع المَدني لتَتبُّع تدبير الشأن المحلّي بجهةِ طنجة تطوان الحسيمة"**
- **2014: "المُنظمةُ المغربية للإعلامِ الجَديد"**
- **2016: "نادِي الفِكر"**

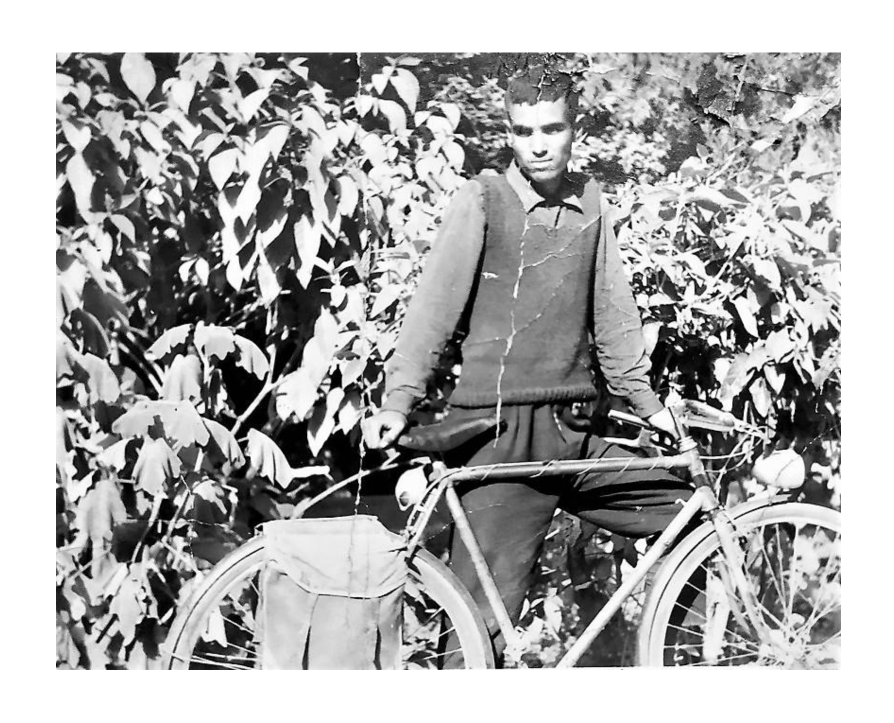
مُلحق الصُّور

والدي "عمرو ابن بوجمعة إفزارن" وأمّي "فاظمة نْسَلاّم العَلاّوِي"
رغم قساوة الظروف، بذلا الغالي والنفيس كي تعيش أسرتُنا حياة كريمة.



أول صورة التُقطت لي في حياتي بعمر 13 سنة وأنا أتأهب لولوج ثانوية مولاي اسماعيل.
مكناس، 1961.

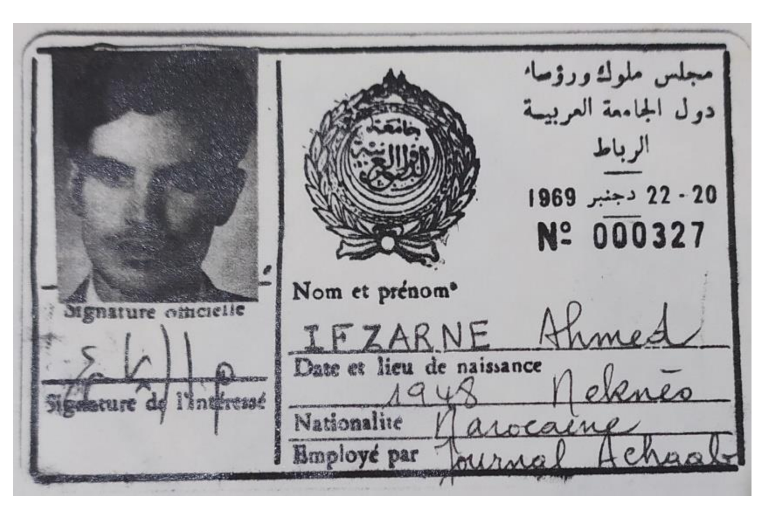


الفقر والأمل

في سنة 1965، امتطيتُ دراجتي الهوائية إلى حديقة "لحبول"

في مكناس قبل الانطلاق في مهنة المتاعب نحو الرباط.

في الحديقة، مرَّ بجانبي مصور متجول. أخرجتُ من جيبي درهما والتقط لي هذه الصورة التذكارية مع دراجتي.



مجلس ملوك ورؤساء
دول الجامعة العربية
الرباط

20 - 22 دجنبر 1969

N° 000327

Nom et prénom*
IFZARNE Ahmed

Date et lieu de naissance
1948 Meknès

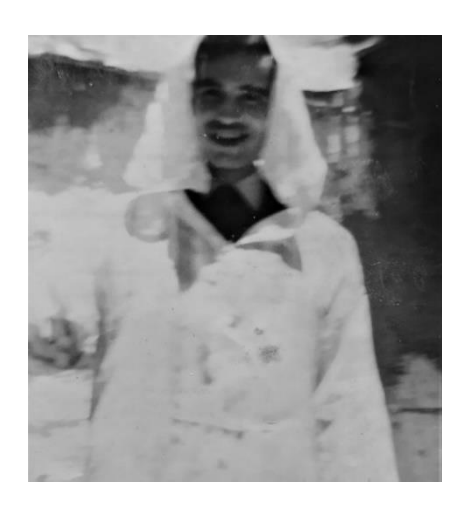
Nationalité Marocaine

Employé par Journal Achaab

Signature officielle

Signature de l'intéressé

تغطية القمة العربية بالرباط. 1969.



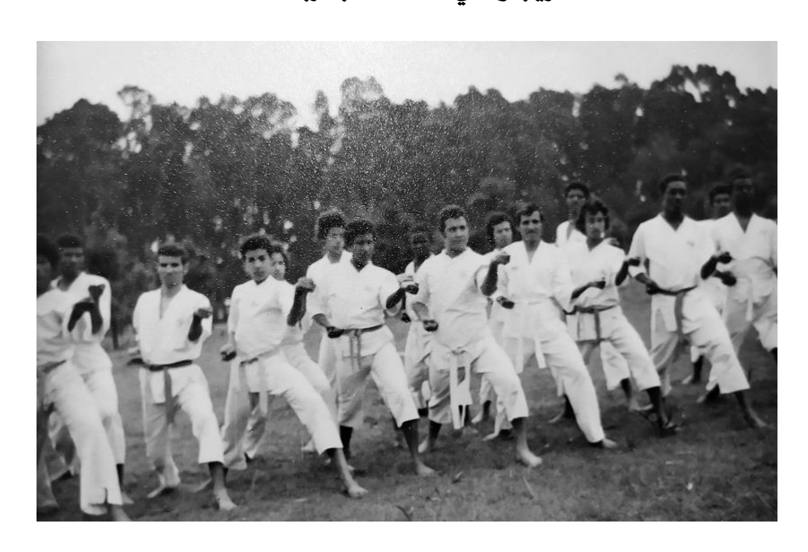
العريس أحمد إفزارن

في ليلة زفافه.

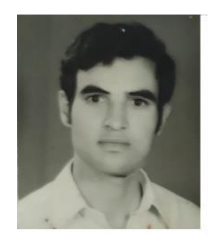
مكناس، 1969.



تدريب وطني للصحافة بالرباط. 1969.

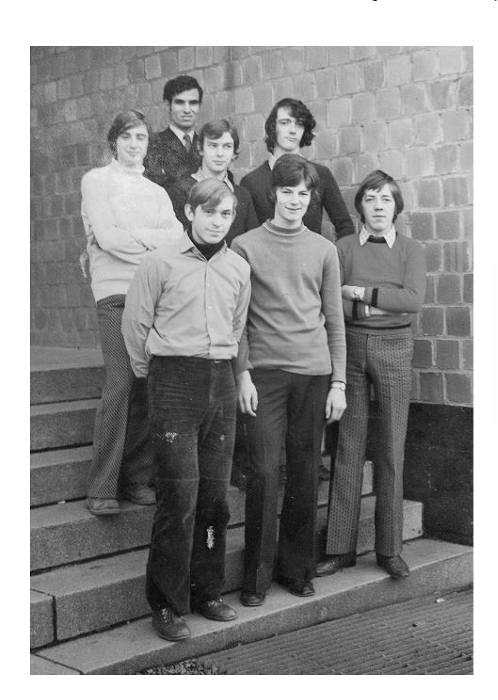


تداريب في الدفاع عن النفس. الرباط، 1971






فترة السبعينيات.. في معترك العمل الصحافي



تدريب في مؤسسة لتعليم فنون الطباعة.

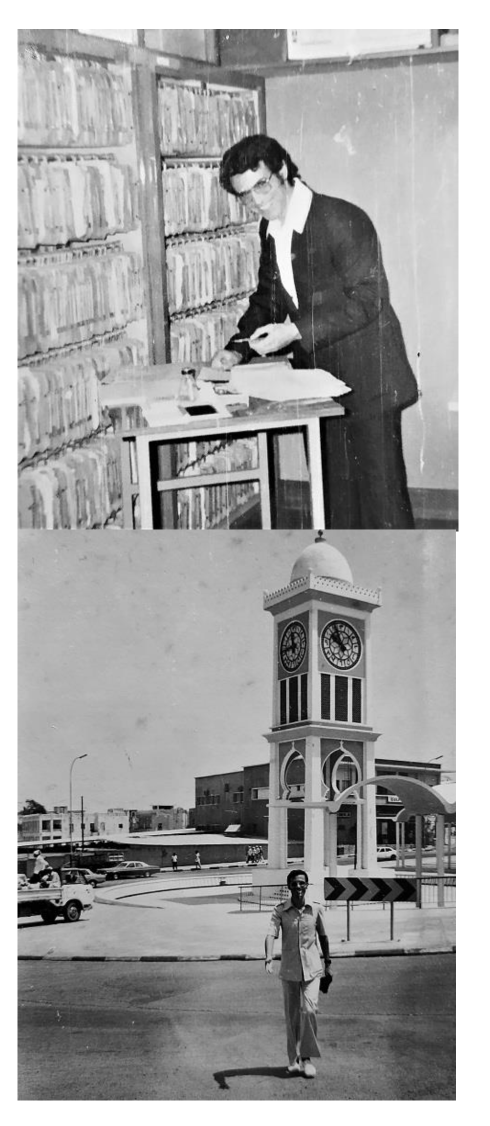
بلجيكا، 1972.



مع جريدة L'opinion. الرباط، 1979.



في مطبعة جريدة "العلم ". الرباط، 1976.



تدريب على التوثيق بجريدة

Le Monde الفرنسية. باريس،

1980.

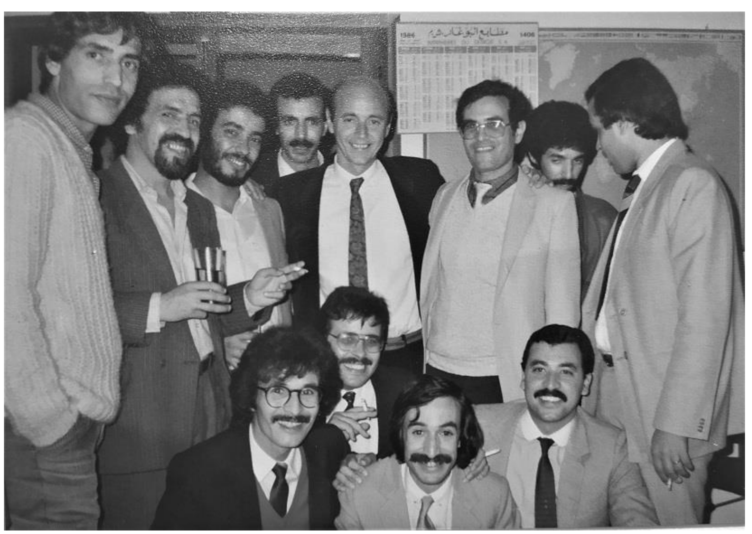
مهمة استطلاعية

إلى دولة قطر خلال عملي بجريدة

L'opinion.

قسم التحرير العربي في إذاعة ميدي 1. طنجة. 1986









10سنوات من العمل الصحفي بإذاعة ميدي 1 .



مع الزميل

عبد الصادق بنعيسى.

إذاعة ميدي 1. طنجة.

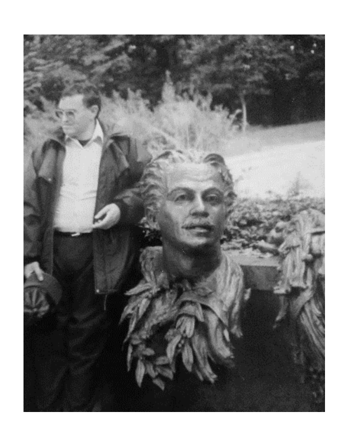


تأسيس فرع الشمال للنقابة الوطنية للصحافة المغربية الذي انتُخِبْتُ فيه كاتبا عاما. طنجة 1992.

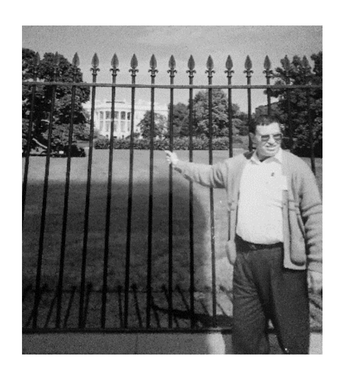
في مقر وزارة الخارجية الأمريكية. واشنطن، 1996.

□





في حديقة جبران خليل جبران بواشنطن - 1996



أمام حديقة البيت الأبيض – 1996.



مع محمد بنعيسى السفير المغربي في واشنطن آنذاك



عِملاقان في بدايةِ مِشوارِي المِهني :

الإعلاميان الكبيران "عبد الجبار السحيمي" (على اليمين)

والكاتب الكبير محمد الطّنجَاوِي (على اليسار).

الأول فتحَ لي بابَ الصّحافة، والثاني أدخَلنِي إلى قِسمِ التّحرير.



مع معلم الأجيال "أحمد بوكماخ"

صاحب سلسلة "اقرأ". طنجة، 1990.



مع عالم الفلك الشهير "هوبير ريفز" خلال زيارته لطنجة، حيث تم تأسيس فرع طنجة للجمعية المغربية لعلم الفلك الذي كنت أول رئيس له. طنجة 1986.



مع الأستاذ سعيد الخطابي، نجل الزعيم عبد الكريم الخطابي. الرباط 2005.



مع عالم المستقبليات
الدكتور مهدي المنجرة.



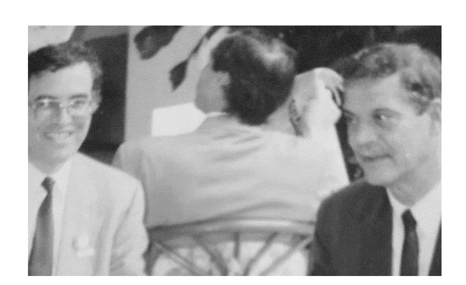
مع العلامة
عبد العزيز
ابن الصديق.
طنجة،
.1998



صورة لندوةٍ في تاونات بحضور الإعلاميين خالد الجامعي، إدريس الوالي، نسيمة الحُرّ وأحمد إفزارن



مع المؤرخ زكي مبارك



مع الإعلامي خالد مشبال

في سنة 1991، قمتُ بزيارة للمنزل الذي كانت تقطن فيه الفنانة الحاجة الحمداوية بطنجة، ونشرتُ توضيحات عن الوضعية المزرية التي تعيشها الفنانة. بعدها، تدخلت بعض الجهات وتمّت تسوية الحالة الاجتماعية للفنانة الكبيرة.



ندوة إلى جانب الأستاذ محمد الساسي. الرباط. أكتوبر 2019.





ظلت جريدة "الخضراء الجديدة" مواظبة على الصدور لمدة 13 سنة (1992-2005).



في شتنبر 2005، صدر العدد الأول من مجلة "الإنسان الجديد" التي كنت مدير نشرها.



صديقان عزيزان من طفولة "رأس جيري"

الأستاذُ الأديب د. علال صديق الغازي (على اليسار)

ود. عبد السلام تشاح: خبير البيئة الطبيعية (على اليمين)



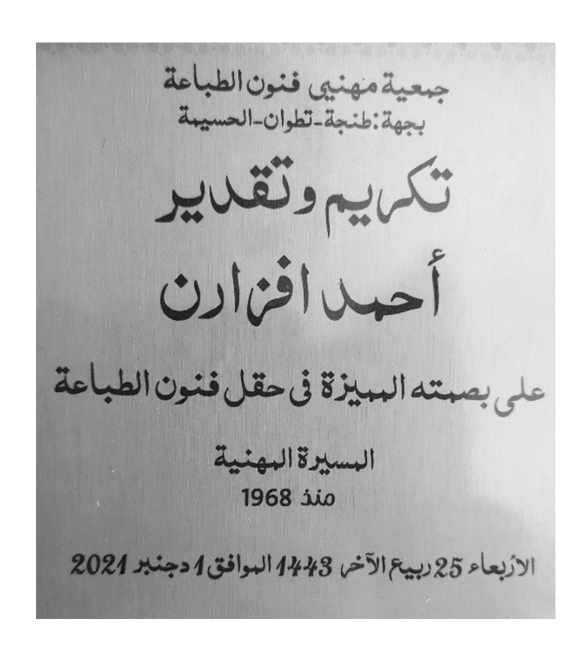
عالم المستقبليات المهدي المنجرة برفقة الباحث الأخضر غزال

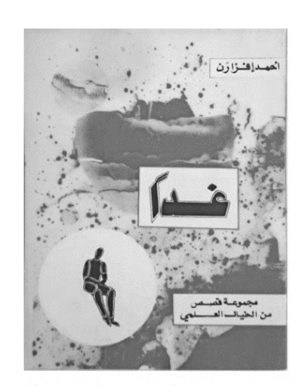
الذي أدخل الحروف العربية في علوم الكمبيوتر

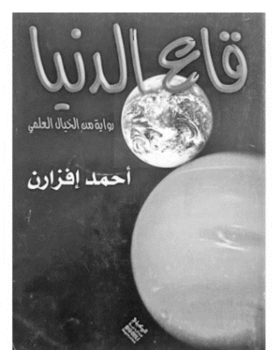


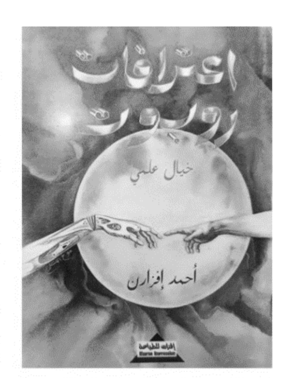
"مغاربة العالم".. برنامجٍ أسبوعي بدأ بثه سنة 2015

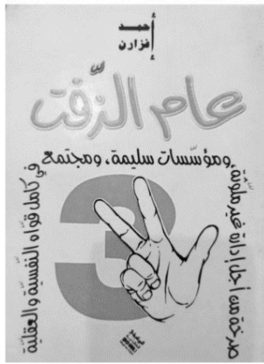
على أمواج "إذاعة طنجة المتوسط".

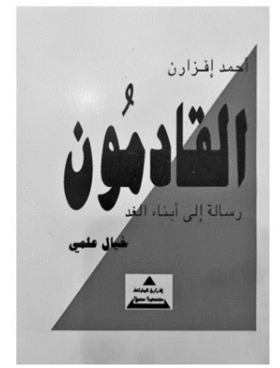


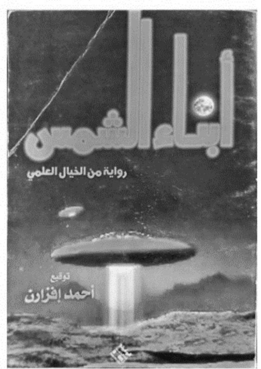












إصدارات أحمد إفزارن

منها خمس كتب في الخيال العلمي

غدا (1985)، عام الزفت (2002) ، اعترافات روبوت (2003)،

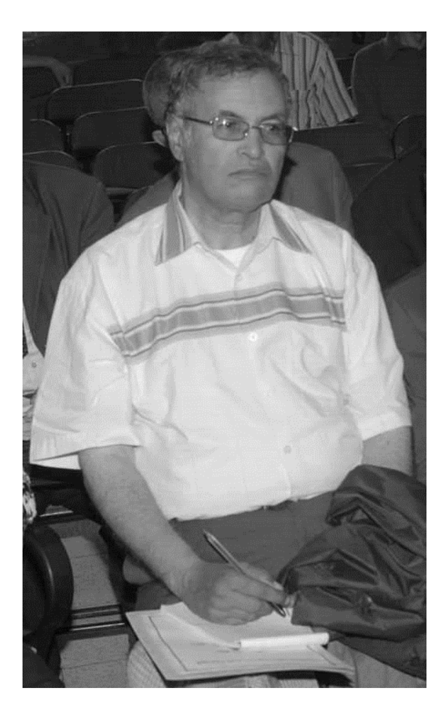
القادمون (2003)، أبناء الشمس (2005)، قاع الدنيا (2007)

أبنائِي الثلاثة (من اليمين إلى اليسار) :

نَبيل (ناشِر)، د. عَزِيز (أستاذ باحث في الرّياضيّات، كاتب ومُلَحِّن)،
د. سَمِير (مهندس ودكتور في الإعلاَمِيّات)







في ندوة فكرية بطنجة



في حي "مُونمَارتر" الشهير،
رسمني أحد الفنانين بمِقصّه.
باريس، 1980.

يُدَوِّنُ هذا الكتاب مَسِيرَةَ حياة الإعلامي أحمد إفزارن كما كتبها بقلمه. مِن أُسرة مُهاجرة مِن الريف في ظُروفِ المَجاعةِ الكُبرَى التي عمَّت المغرب في أربعينات القرن الماضي، إلى أحد قَيْدُومِي الإعلام المغربي.. قصة تَستحقُّ أن تُروى .

السيرة تلقي إضاءات على تاريخ الصحافة في المغرب ابتداءا من ستينيات القرن الماضي. نجاحات وإخفاقات.. أحداث مؤلمة وطرائف مضحكة.. قصص من واقع الحياة ومفاجآت كثيرة في مسيرة صحفي قضى أزيد من نصف قرن في مهنة المتاعب.



أحمد إفزارن

- أصدر جريدتي "الخضراء" و "الخضراء الجديدة"، ومجلة "الإنسان الجديد".
- اشتغل في تحرير عدة صحف وطنية (العلم، الأنباء، L'opinion، ...)
- مارس العمل الإذاعي في "إذاعةِ مِيدِي1" و"إذاعة طنجَة المتوسّط".
- أصدَر كتُبا، منها خمسة في مجال "الخيال العِلمي".
- شارَك في تدريب صحافيين وإعلاميين.
- فاعل جمعوي ومؤسس لجمعيات فكرية وثقافية وتنموية.